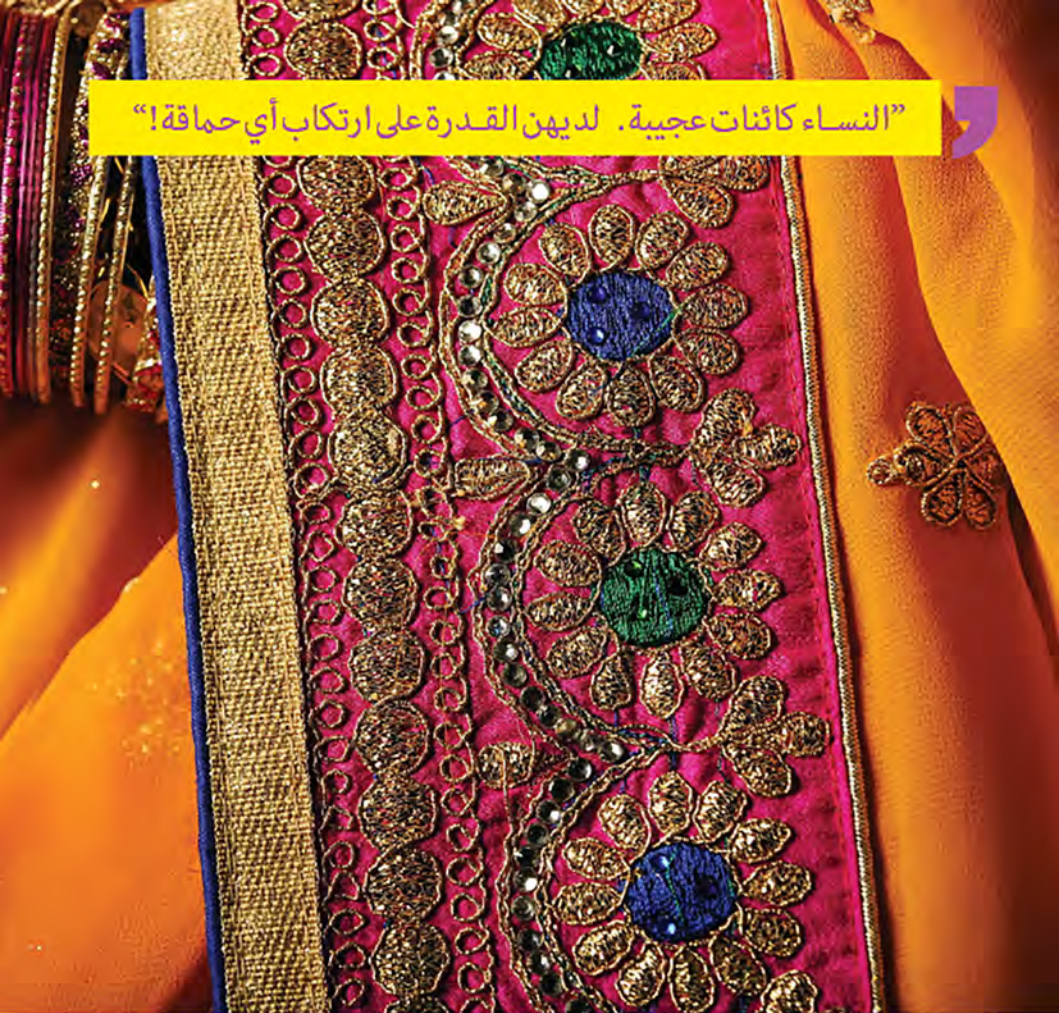


”النساء كائنات عجيبة. لديهن القدرة على ارتكاب أي حماقة!“



دكان الساري

روبا باجوا

ترجمة: ريم داوود



روايات مترجمة



دُگان الساري

دكان الساري
روبا باجوا

ترجمة: ريم داوود
مراجعة وتحرير: هدى فضل
مراجعة لغوية: محمد حامد بكر

طبعة: نوفمبر 2017
الغلاف: آلاء هيكل

رقم الإيداع: 2017/11577
الترقيم الدولي: 9789773193577

© جميع الحقوق محفوظة للناشر
60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة
ت 27921943 - فاكس 27954529 - 27947566
www.alarabipublishing.com.eg



Copyright © Rupa Bajwa 2004
Published April 3rd 2004 by Penguin Books
India (first published 2004)

روبا باجوا

دُگان الساري

رواية من الهند

ترجمة: ريم داوود



بطاقة فهرسة

باجوا، روبا

دكان الساري: رواية من الأدب الهندي/ تأليف روبا باجوا، ترجمة: ريم داوود.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2016،

ص؛ سم.

1- القصص الهندية

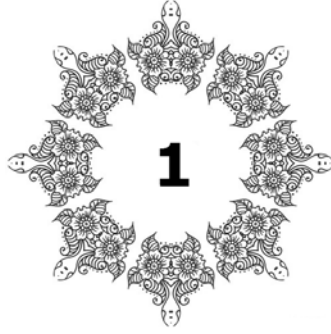
أ- داوود، ريم (مترجم)

1.493

ب- العنوان

الجزء الأول





استيقظ "رامتشاند" متأخراً، من نومٍ عميق. لم ينجح في إيقاظه إلا أصوات شجار أخته من الشارع، في الأسفل. فرك عينيه، وغادر السرير. سار باتجاه النافذة. حدّق عبر القضبان الحديدية الصدئة في الشخصين المتشاجرين. كان أحدهما بائع حليب انتهى لتوّه من جولة التوزيع اليومية، وقد علّق على جانبي درّاجته آئيتين كبيرتين من الحديد المغطّى بالزنك؛ اصطدمت إحدهما برجلٍ كان يمشي في الزقاق الضيّق. اندفع الاثنان في تبادل الصياح بغضب شديد، احمرّ على أثره وجهاهما.

وقف "رامتشاند" ينظّف أسنانه بالفرشاة، بجوار النافذة مستنداً إلى الحائط. وراقب الشجار حتى النهاية. بعد أن بدأ الملل يتسرّب إلى نفوس المراقبين من المازة، قاموا بالتدخل وتهدئة الطرفين، وهو الطقس المعتاد في مثل هذه المواقف، فاملتشافرون يشعرون بالخزي - عادةً - إذا اضطروا لإنهاء صياحهم قبل تدخل الآخرين.

أخيراً، غادر الرجلان. بعد ذلك نسي "رامتشان" أن ينظر إلى الساعة، فظل واقفاً في مكانه محملاً في فراغ الشارع الضيق. كان ذهنه لا يزال ملبداً بآثار النوم، وقد تجمدت أطرافه، كعقله تماماً، بفعل برد الصباح الباكر. تحرك ببطء.

وحين نظر إلى الساعة الحمراء الصغيرة فوق الطاولة، أدرك - أخيراً - أنه قد تأخر كثيراً. استحم وارتدى ثيابه على عجل. راحت الأشياء تتساقط منه خلال ذلك. أربكه التأخير، فتساقطت عليه قطرات الماء المغلي وهو يرفع القدر من على موقد الكيروسين؛ ثم زرر قميصه بشكل خاطئ. بعدها انسكب زيت الشعر على الأرض القذرة. وأخيراً، لم يستطع تذكر المكان الذي وضع فيه القفل الحديدي الخاص بباب حجرته. راح يبحث عنه وعن المفتاح الذي بداخله.

وجدهما على الطاولة، بعد أن أمضى ربع ساعة من البحث الدؤوب في كل أنحاء الحجرية. اندفع خارجاً من غرفته، واتجه إلى الدكان مهرولاً في الدروب والأزقة الضيقة للسوق المزدهم. اخترق جموع المشاة، في مناورة دائمة مع عربات الـ"توك توك"، ومحاولات متكررة لتفادي الاصطدام بعربات الخضراوات. شعر بعرق غزير بين أصابع قدميه، داخل الجوارب الصوفية الرمادية.

رغم أن الساعة لم تكن تتجاوز العاشرة صباحاً، فإن السوق كان يفيض بالحيوية. وقف الحلواني أمام محل "ميتشان للحلويات"، يسقط بمهارة قطع "الزلابيا" المتشابكة، في الزيت الساخن، فتطفو على سطحه داخل وعاء القلي الحديدي الكبير.

كانت جميع المحلّات في السوق قد فتحت أبوابها، وأحسّ "رامتشانند" بالذنب وهو يلاحظ أن جميع الباعة في الدكاكين المختلفة قد بدأوا في اجتذاب الزبائن، وهم يرسمون ابتسامات مرخبة على وجوههم النظيفة اللامعة.

الجانب القديم من "أمريتسار"، أو الجزء المسوّر من المدينة، مليءٌ بالأسواق. أسواقٌ صغيرة لا يعرفها إلا السكّان المحليّون. أماكن لبيع الأساور الزجاجية والمعدنية، والأقمشة الرخيصة. أسواق لا يمكن الوصول إليها إلا سيرًا على الأقدام.

وأسواق أخرى كبيرة، حيث الشوارع أوسع بقليل، وأنظف أيضًا بقليل. أسواق "أمريتسار" تموج بالبشر، كل يوم، طوال العام. بشرٌ يعقدون الصفقات، ويفاصلون في الأسعار، ودكاكين تفتح صباحًا وتغلق مساءً، وتبدو كما لو أنها تسير وفق ذلك النظام منذ بدء الخليقة، وكما لو أنها ستستمر عليه إلى الأبد.

ليس هناك مساحة خالية في هذه الأسواق. خليط من البيوت العتيقة المبنية بالطوب الأحمر، ومبانٍ أسمنتية قديمة بلونها الرمادي.. حوانيت.. لافتات.. بضعة معابد صغيرة على النواصي.. طرقات مزدحمة بالناس والأبقار والكلاب الضالة، وعربات الفاكهة والخضراوات. ليس للمنازل بوابات، مجرد عتبات ضيقة تفصل بين باب كل منزل والشارع. مبانٍ مفتّنة، متجاورة ومتلاصقة، كما لو أنها صناديق من الورق المقوّى لصقت ببعضها بقليل من الصمغ. شرفاتها مركّبة فوق بعضها بعدم انتظام. لا أسوار تحيط بالبيوت. ولا يمكن أن تعرف أين تبدأ حدود هذا البيت، أو تنتهي حدود ذلك..

في وسط تلك المباني المتداخلة، تلمح فتحة ضيقة، حيث يبدأ زقاق يحاول أن يجد لنفسه مكانًا بين تلك الجدران، وينتهي بحارة صغيرة في الجانب الآخر. قد تستغرق أعوامًا لتألف شبكة متاهات أزقة وحواري ودروب المدينة القديمة. هنا

يرقص المال والازدحام والضجيج، رقصات خالدة.. مجنونة.. لا تترك فراغًا أو فرصة لأي شيء آخر أكثر هدوءًا.

الأسوار الفعلية التي كانت تحيط بالمدينة في زمنٍ مضى، انهارت وتساقطت منذ وقت طويل؛ لكن أشباح تلك الأسوار لا تزال تفصل المدينة القديمة عن تلك الجديدة الآخذة في الازدهار على حدودها الخارجية.

يُعدُّ الدكان الذي يعمل به "رامتشانند" واحدًا من أقدم الدكاكين التجارية في المدينة. يتوسط "تالوار" للمفروشات والستائر، وأقمشة "تشاندورام". يقع في واحد من الأسواق الرئيسية التي تتمركز في قلب المدينة، ويتميز بوجود موقف لسيارات الزبائن أمامه.

المحلّات في هذا السوق تحديداً، أكبر من غيرها وأكثر قدمًا، وتتمتع بالسمعة الطيبة، ولها زبائن قدامى. كما أن أصحابها جميعًا أشخاص محترمون وينحدرون من عائلات تمتهن التجارة منذ زمن طويل.

تعلو مدخل الدكان لافتة ضخمة بلون أخضر فاتح، كُتِبَ عليها "سيفاك - بيت الساري"، بحروف حمراء منمقة باللغتين الإنجليزية والبنجابية.

لم تكن اللافتة دقيقة تمامًا، فالدكان لم يكن فقط يبيع "الساري"، فالدور الأرضي منه يبيع أقمشة رجالي كذلك. أقمشة كثيفة بدرجات البني والأزرق، وباللون الأسود. لكن القليل فقط من الزبائن هم الذين يأتون لـ"سيفاك - بيت الساري" لشراء أقمشة البدلات أو القمصان الرجالية؛ ذلك أن السوق يضمّ محلات أكبر حجمًا، وذات تشكيلات أوسع من تلك البضاعة، مثل معرض "رهبوند" الواقع على بعد شارعين اثنين فقط.

ولذلك، فإن للطابق الأرضي من الدكان منظرًا كثيبًا، وتغطي معروضاته طبقة رقيقة من الغبار.

الطابق العلوي من الدكان هو الذي تُعرض فيه أقمشة "الساري". تمتلئ أرففه الكثيرة بـ"سوارٍ" عديدة. أنواع بسيطة من القطن البنغالي، وأخرى بالغة الأناقة من نوعية "كانجيفارام" إضافة لتلك المصنوعة من الحرير الطبيعي و"الشفون" و"الكريب" و"الساتان". هذا الطابق ينبض بالحياة، والألوان الغنية والنعومة والرقة. هو الذي يجلب الزبائن والأرباح. وبفضل نجاح هذا القسم في اجتذاب المشتريين، أصبح "سيفاك" هو أفضل محلات "الساري" على مدار أعوام طويلة.

للدكان طابق آخر لا يعرفه الزبائن. يحوي مخزنًا كبيرًا وحمّامًا صغيرًا لاستخدام "مهاجان" والعاملين في الدكان.

"رامتشاند" واحدٌ من الستّة العاملين في قسم "الساري".



وقف "رامتشاند" مترددًا على باب الدكان. يبُلل العرق باطن يديه، رغم البرودة المعتادة لصباحات شهر ديسمبر. وقف مفكرًا في عاصفة الغضب التي سيستقبله بها "مهاجان". حين دخل الدكان أخيرًا، كان "مهاجان" يتحدّث في التليفون. استغلّ "رامتشاند" الموقف، ومرّ كالقذيفة أمامه. رمقه "مهاجان" بعينين غاضبتين.

بجوار السلم المؤدّي إلى الطابق العلوي، يقف تمثال الإله "جانيشا". عادةً، يقف "رامتشاند" أمامه كل صباح للحظات قصيرة. يغمض عينيه ويضمّ كفيه

إلى بعضهما في صلاة سريعة، قبل أن يصعد السلم. لكنه اضطر اليوم لأن يركض بسرعة على السلم الخشبية الضعيفة، دون أن يلتفت للإله.

كان قلبه يدق بعنف في صدره. في أي لحظة الآن، سيستوقفه "مهاجان" ويوبّخه. لكنه وصل سالمًا إلى الطابق العلوي. قبل أن يدخل إلى قسم "الساري"، وقف بمحاذاة الباب الزجاجي المؤدّي إليه، منتظرًا انتظام أنفاسه المتلاحقة.

وثب على ساق، ثم الأخرى، محاولًا تخليص قدميه من فردتيّ الحذاء. أحدثت وثباته صوتًا عاليًا على السلم، وأخيرًا جاءه صوت "مهاجان" صائحًا بغضب من الطابق السفلي:

- ما هذا؟ أهي محاولة لتعطيم المكان؟ تأتي متأخرًا وتظن أنّي لا ألاحظ؟ هل تعتقد أنّي أعمى؟ أنّي غبي؟ هل تعتقد أنّ الدكاكين تُدار بهذه الطريقة؟ بأن تأتي أنت أو غيرك متى تحب وتنصرفون متى شئتم؟ هل أنت ملكٌ مثلًا؟! ربّما كنتَ "المهراجا رامتشاند" وأنا لا أدري! ربّما تودّ سموك أن أرسل لك الحاشية لتحملك إلى هنا كل صباح!

توقف "رامتشاند" على الفور، وانتظر قليلًا. صمّت تامّ. خلع حذاءه بحرص، وهو يتمنى لو لم تكن لقدميه هذه الروائح النفاذة. كان قد استحم وارتدى جوربين نظيفين.. ومع ذلك..

كان يعرف أنّ رائحة قدميه ستزيد أكثر مع مرور ساعات النهار. وضع فردتيّ الحذاء بطريقة مرتّبة على الحامل الخشبيّ بجوار الحائط، على الرف المخصص للعاملين بالدكان. بقية الأرفف تُترك لأحذية الزبونات، بأنواعها العديدة وكعوبها المختلفة.. العريضة والقصيرة والعالية والمدبّبة.

أعاد "رامتشاند" تسوية خصلات شعره، وجذب قميصه الطويل إلى أسفل. كان يحسن من هندامه، كمحاولة تعويض عن رائحة قدميه.

دخل وجلس في المكان المخصص له، وشبك ساقيه ببعضهما. لا يزال الدكان يعمل وفق الأنظمة القديمة، ولذلك لا توجد به مناضد خشبية يقف خلفها الباعة ليفردوا عليها الأقمشة؛ وإنما مراتب رفيعة مفروشة على الأرض، ومغطاة بملاءات بيضاء. وعليها يجلس البائعون كل يوم في مواجهة الزبونات يفردون المنسوجات الملونة، ثم يعيدون طيها.

ابتسم له "هاري" ابتسامة عريضة من مجلسه البعيد قليلاً، وقال:

- مرحباً أخي "رامتشاند"، تأخرت ثانيةً؟

"هاري" هو أصغر العاملين في المكان. يتسم بالمرح واللامبالاة والوقاحة، وهو ما يجعله أكثر من يصب عليهم "مهاجان" غضبه وصراخه؛ وعلى عكس "رامتشاند"، لم يكن "هاري" يشعر بالحرَج أو التوتر حين يتلقى أي تأنيب.

بل إنه في بعض الأيام المملّة الكئيبة، كان هذا التقريع يبعث في نفسه الكثير من البهجة! وبعد أن يمضي "مهاجان" وقتاً طويلاً، ويهدر طاقةً كبيرة، في توبيخه، كان "هاري" يبتسم ويقول:

- دخل الكلام من هذه الأذن، وخرج من الثانية!

وبحكم كونه بائعاً صغيراً، عديم الخبرة، جاهلاً بأنواع المنسوجات، فقد تمّ تعيينه مسؤولاً عن سوارى "براج" البسيطة التي تلبس في النهارات العادية، وتلك التي تحمل الاسم نفسه، المخصصة للمناسبات الخاصة؛ فكلا النوعين لا يحتاج بيعهما إلى مهارة كبيرة أو معرفة واسعة بالأقمشة.

سيمرّ وقتٌ طويلٌ قبل أن يصبح "هاري" مسؤولاً عن أنواع أخرى من أقمشة "الساري"،

لكن ذلك لا يزعجه إطلاقاً.

بأدله "رامتشاند" الابتسام، وقال:

- ما العمل يا صاحبي؟

قال "هاري" وهو لا يزال محتفظاً بابتسامته العريضة:

- لقد سمعنا صراخه من مكاننا هنا! رغم أن الباب لم يكن مفتوحاً..

كّرر "رامتشاند"، بشيء من الحزن هذه المرّة:

- وما العمل يا صاحبي؟

قال "هاري" محاولاً التخفيف عنه:

- لا عليك. لقد قدّمت له خدمه بتأخره هذا. بعض الناس يصابون بعسر هضم إن لم

يملؤوا المكان صياحاً وصراخاً.

أضاف ضاحكاً وهو يغمز بعينه:

- صاحبنا "مهاجان" من هذا النوع.

أطلق ضحكة أخرى، أعقبها بتنهيدات مسرحية.

جلس "جوكل" في هدوء، يطوي بضعة أثواب "ساري" ويعيدها إلى

مستطيلات مرتبة. السواري المكلف ببيعها هي المصنوعة من الكريب الفاخر،

الباهظ الثمن. وفي مواسم الأعراس، يساعد الآخرين في عرض الأقمشة المزخرفة ذات الحواف المذهبة. "جوكل" رجل أربعيني رزين، شديد الجدّية في كل ما يتعلّق بعمله. يقدر "مهاجان" خبرته الطويلة وإخلاصه للدكان، ورغم هذا فإن ذلك لا يمنعه من جلد "جوكل" أحياناً بلسانه السليط.

منذ حوالي عشر سنوات، قرّر "سيفاك - بيت الساري" بيع أوشحة الـ"تشوني". فقد كانت سيدات الأسر السيخية العريقة، الكيبرات منهن والشابات يأتين لشراء السواري، لكنهن كنّ لا يتوقفن عن السؤال عمّا إذا كان الدكان يبيع الأوشحة وأغطية الرأس الخفيفة. فبالنسبة إليهن "الساري" قطعة مهمة من الملابس، باعتباره الزيّ الشائع، إلّا أنّه لا يعبر عنهن.. فملابسهن الحقيقية عبارة عن ثوبٍ قصير وسروال، وغطاء رأس طويل.

كانت شكواهن الدائمة هي صعوبة الحصول على وشاح ذي نوعية جيّدة. بعد تفكير اشترك فيه "بيمسن" و"مهاجان"، قرّرا معاً أن يبدأ الدكان ببيعها. وقعت مهمة اختيارها وعرضها على الزبونات على عاتق "جوكل"، الذي أحرز نجاحاً ملحوظاً في المهمة الموكلة إليه.

اختارها بطول محدّد هو متران ونصف المتر، إذ لم تكن أيّ من السيدات السيخيات لترضى بارتداء واحد أقصر من ذلك. ففي اعتقادهن الأغطية القصيرة لا تضعها إلّا الهندوسيات، أو الفتيات صغيرات السنّ.

اهتمّ الدكان بتوفير نوعيات عالية الجودة.. فهناك تلك المصنوعة من "الشفون" الخالص، وتلك المصنوعة من الحرير الأبيض، والتي يمكن صبغها لتناسب مع أي طقم من الأثواب القصيرة والسراويل. وهناك تلك الخاصة

بالعرائس.. بألوانها الحمراء والوردية والنبذية؛ وتلك الناصعة البياض ذات التطريز الخفيف الدقيق المخصصة لأرامل العائلات العريقة. وتلك المملوثة، المطرزة برسومات تقليدية، والتي تشتريها الأمهات، ويحتفظن بها لترتيديها بناتهن عقب الزواج. والعديد من الأنواع الأخرى..

يتميز "جوكل" بقدرته على التعامل مع جميع الزبونات اللاتي يترددن على الدكان. ورغم قدرته تلك ومعرفته الواسعة بالمنسوجات المتعددة، فإنه أبعد ما يكون عن الغرور. والحقيقة أنه في حالة رعب دائم من "مهاجان"، ولا يكُلُّ من تنبيه "هاري" بأن يتوخى الحذر في كلامه وتصرفاته، حتى لا يُغضبه. نظر إلى "هاري" وقال:

- اصمت يا "هاري"! كيف تتكلم عن "مهاجان" هكذا؟ وبأعلى صوتك أيضًا؟! لقد أصبحت كثير الثثرة.. سيسمعونك يومًا ولن يتوانوا عن طردك. لسانك الطويل هذا لن يجلب لك إلا المصائب يا بني.

كان "جوكل" يبتسم وهو يقول ذلك.

له وجهٌ مريح، ورأسٌ مقبَّب، تغطيه خصلات قليلة من الشعر الخفيف.

ابتسم "رامتشان" ابتسامة خفيفة.

في تلك الأثناء، كان "تشاندر" يفتح دولابًا وراءه. كلُّ جدران الدكان إمَّا مغطاة بأرفف عديدة أو ببعض الدواليب التي يتمُّ إقفالها بالمفاتيح، والتي يحفظون بداخلها الأثواب الباهظة الثمن، أو تلك فائقة النعومة.

وفيما كان الثلاثة يتكلمون، ظل "تشاندر" صامتًا تمامًا، ولا يعيرهم أدنى انتباه. كان رجلًا هادئًا، مفرط الطول، وله "تفاحة آدم" بارزة جدًا. كثير التغيب عن العمل. لا تفارقه الكآبة أبدًا. كثيرًا ما يوبّخه "مهاجان" لقلّة حضوره إلى الدكان، أو لأيّ سبب آخر. في كل الأحوال، يتلقّى إهانات "مهاجان" بهدوء بالغ، وهو ينظر أمامه إلى شيء غير محدّد، ويعصّب شفته السفلى، ويلزم الصمت إزاء أسئلة "مهاجان" الحانقة.

أما أكبر اثنين في المكان، فهما "شيام" و"راجيش"، اللذان يعملان في "سيفاك" منذ زمن طويل. لـ"شيام" شعرٌ أشيب ووجهٌ نحيل، وأسنان أمامية مفلوجة. أمّا "راجيش" فرجلٌ ممتلئ الجسد، له عينان دامعتان تعانيان من احمرار دائم.

يحرص الرجلان على عدم التّدخّل في شؤون أحد. يتبادلان الحديث بصوت خفيض عن ارتفاع الأسعار، والنسب المئوية للفوائد المرتبطة بقروض البنوك، وأماكن بيع الأجهزة الكهربائية بأفضل الأسعار.

يحصلان على أجر أعلى بقليل من أجور الآخرين في الدكان. الكلّ يعلم ذلك، لكن أحدًا لم يتطرق للموضوع قط؛ ولا حتى الرجلان ذاتهما.

لـ"شيام" ابنةٌ شابةٌ يتمنى تزويجها لابن "راجيش". يعيش الرجلان في عالم خاصّ بهما، أقرب للطبقة المتوسطة. يخرجان معًا لشرب الشاي أو تناول الطعام، وعند كلامهما عن بقية العاملين في الدكان، يشيران إليهم بـ"الأولاد"، بمن في ذلك "جوكل"، الذي يصغرهما بأعوام قليلة فقط.

أمضى "رامتشاندر" الصباح بأكمله في ترتيب البضاعة الجديدة.

حضر "بيمسن ست"، صاحب الدكان، في حوالي الساعة الحادية عشرة. كان جدّه "سيفاك رام" هو مؤسس الدكان. ورثه "بيمسن" عند بلوغه العشرين. في تلك الفترة، جاءه "مهاجان" باحثاً عن عمل. كان فتى في الخامسة عشرة تقريباً. منحه "بيمسن" وظيفة، وترقى حتى وصل إلى منصبه الحالي مديراً للدكان.

أثبت جدارته خلال الأعوام الثلاثين التي أمضاها في المكان. برهن على أمانته، وأنه يمكن الاعتماد عليه، ويستطيع إنجاز أي مهمة مهما بلغت صعوبتها.

لم يكن "بيمسن"، في معظم الأحيان يحضر للدكان يومياً، فوقته المزدهم بإدارة أعماله الأخرى لا يسمح له بذلك أصلاً.

لم يكن "رامتشانند" متأكدًا مما إذا كان "ست" هو لقب عائلة "بيمسن"، بالفعل، أم إنها صيغة احترام.

سأل "جوكل" عن الأمر، لكنه أيضًا لم يكن يعرف الإجابة، ولم يجرؤ "رامتشانند" على أن يسأل أي شخص آخر.

في المرّات القليلة التي يحضر فيها "بيمسن" إلى الدكان، كان يجلس بعظمة في أحد أركان الطابق العلوي، محاطاً بصور مختلفة لعدد من الآلهة، وأعواد بخور مشتعلة. يمكس ميثات الروبيات، ويعدّها بأصابعه الغليظة.

كان "رامتشانند" يراقبه بطرفي عينيه أحياناً. عادةً، يكون "بيمسن" منشغلاً بعدّ وتقليب أطراف الأوراق المالية، وإذا رفع عينيه وصادف نظرات "رامتشانند" المتلصّصة، كان يمنحه ابتسامة بطيئة بشفتيه الممتلئتين. ابتسامة تكاد تجمد الدم في عروق "رامتشانند".

كان يجد في سلوك "بيمسن" المتعطف شيئاً غير قليل من الشرّ.



في الجانب الآخر من "آمر يتسار"، بعيدًا عن المدينة القديمة، تقع منطقة تضم منازل العديد من كبار الموظفين الحكوميين، والأطباء، وبضعة رجال أعمال. منازل جديدة، حديثة، رحة.. بحدائق أمامية وأخرى خلفية وراء المطابخ.

في أحد تلك المطابخ، وقفت مسز "ساندو" تراقب الحليب وهو يغلي على موقد الغاز. امرأة سمينه، بيضاء، بتقاطيع صافية وشعر طويل لامع، مصفف بعناية على شكل كعكة. المطبخ الذي تقف فيه شديد النظافة، ومزوّد بأحدث الأجهزة. أسطحه الرخامية لامعة وبراقة. أواني الطهي، ماركة "هوكينز"، مرتبة في صفوف مستقيمة فوق الأرفف. ليس هناك أي بقعة على فرن ال"مايكروويف"، ولا أثر لأيّ قذارة على الأرض.

زوجها هو كبير المهندسين في مجلس كهرباء ولاية "البنجاب". الكثير من صغار العاملين في المجلس يترددون على منزله للعمل طهارة وخدم، ويحرصون على إبقاء البيت في أعلى درجات النظافة.

كانت الأسرة تعيش قبل ذلك في منزل حكومي داخل ما يُعرف بـ"مستعمرة الكهرباء"، ثم قاموا ببناء هذا البيت والانتقال إليه قبل فترة وجيزة.

اهتمَّ "مستر ساندو" بالمسكن الجديد اهتماماً بالغاً، فتولَّى تصميمه بنفسه وقام بفرشه بأفضل وأحسن قطع الأثاث؛ فالفكرة من ورائه هي أن يعرف الناس جميعاً، حتى بعد أن يتقاعد، أنه كان يشغل منصباً مهماً؛ ولذلك فإن المنزل الكبير مصمَّم وفق أحدث الطرز المعمارية. أراضيات الحمامات من الجرانيت الفاخر. فتحة مقوَّسة تؤدِّي إلى غرفة الجلوس، التي تنزل إليها بسُلَّمٍ صغير.. مجرد خطوتين أو ثلاث. الأرضيات مغطاة بالسجاد الفاخر الذي تمَّ جلبه خصيصاً من "كشمير". الأبواب كلها مصنوعة من خشب "التيك". جميع قطع الأثاث والأقمشة التي تكسوها، اختارها "مستر ساندو" شخصياً.

علَّق الكثيرون بأنه من الغريب أن يستطيع موظف حكومي، مهما علت مكانته، تحمّل تكاليف مثل هذا المنزل الفخم؛ صحيح أن العائلة تمتلك بعض العقارات، إضافة إلى قطعة أرض في قريتهم، ولكن.. مع ذلك... (هنا كانوا يتبادلون نظرات ذات مغزى) ويضيفون: "في هذه الأيام.. أيُّ موظف حكومي لا يأخذ شيئاً كـ"هدية محترمة" مثلاً؟".

هناك كبير مهندسين آخر، قام ببناء منزله على مقربة من عائلة "ساندو". لكنه فعل ذلك خطوة خطوة. في البداية، ادَّخر ما يكفي لشراء قطعة الأرض. ثم قام بوضع سنوات بادِّخار مبلغ آخر، ليتمكن من البدء في عملية البناء.

بعد خمس سنوات، أحضر بعض النجارين ليصنعوا عددًا من الخزانات والأرفف، واستطاع أخيراً أن يتخلَّص من الدواليب القديمة، المصنوعة من المعدن الرخيص، لكنه لم يستطع تغيير سيارته الـ"فيات" بالغة القِدَم بأخرى أحدث.

كما أن البيت - بأكمله - لا يحتوي إلا على سجادة واحدة، ليس بها أي شيء مميز، وُضعت في غرفة الجلوس؛ أما الأثاث فلا يزال يتكون من القطع القديمة نفسها التي رفضت زوجته الاستغناء عنها لتعلقها بها. كما أنه لا يملك من المال سوى مبلغ صغير يحتفظ به في أحد البنوك.

يقول من حوله عنه إنه رجل غير عملي، وأنه أقل الناس حكمة، وأكثرهم حماقة.

تعتقد مسز "ساندو" أنها تحتل مكانة متميزة.

صحيح أنها بدينة، لكن ذلك يجعلها بلا شك أفضل من النساء الأخريات العجفاوات، ذوات البشرات السمراء الغامقة، خشنة الملمس؛ أو أولئك ذوات الشعر الخفيف الضعيف. تمتلك بيتًا أنيقًا ومكانة اجتماعية رفيعة، تقاطيع جميلة، وزوج مُحِبّ يوليها كل الاهتمام والرعاية.. ما الذي تريده أيّ امرأة أكثر من ذلك؟ ترغب فقط في أن يحقق الولدان مستوى التفوق العلمي الذي تتمناه لهما.

أطفأت الموقد، فهبط مستوى الحليب في الإناء. صبّته بحرص في كوب معدنيّ طويل، وملأته حتى الحافة.

ترجرت طبقات الشحم في جسدها، وهي تسير متمهلة باتجاه غرفة ابنها، حاملَةً الكوب الساخن بين يديها. كان الباب مفتوحًا قليلًا. دفعته ومشت على أطراف أصابعها إلى المكتب الذي يجلس وراءه، مستذكراً دروسه.

قالت مشجّعة:

- "مانو".. اشرب الحليب يا صغيري.

نظر "مانو" إليها. كان مرافقاً طويل القامة، بركبتين بارزتين، بدأ شاربه في الظهور. يستعد للتقدم لامتحانات القبول في كلية الطب. كل العيون مسلطة عليه، تحيط به دعوات ومحبة أبويه الفخورين والقلقين.

تناول الكوب من يدها، وأخذ رشفة.

وقفت مسر "ساندو" منتظرة. طبقات الشحم رابضة في مكانها بترقب، وفمها مفتوح.

- يع!!

صاح الفتى باشمئزاز، وهو يعيد الكوب إلى يدها.

- أحضرتِ الحليب دون أن تقومي بتصفيته، أليس كذلك؟ أنتِ تعرفين جيِّداً أنني لا أحب

قشدة الحليب. خذيه.

عاود القراءة، دون أن ينظر إليها.

رجعت من فورها إلى المطبخ وأخرجت المصفاة الحديدية الصغيرة، التي أهدتها إياها أمها

عندما تزوجت. فكَّرت برضا بأنها لا تزال بحالة جيِّدة.

قامت بتصفية الحليب في كوب آخر. بقيت القشدة المزعجة في المصفاة. حملت الكوب

الجديد إلى حجرته. كان منكباً على أوراقه وكتبه يقرأ ما فيها بتركيز. تتحرك شفتاه دون

صوت. أخذ الكوب منها، دون أن يرفع عينيه. ارتشف الحليب ببطء، ولم يعلّق. انسحبت

بهدوء من أمامه.

رنّ التليفون في غرفة الجلوس. هرعت إليه وهي تدعو ألا يكون صوته قد أزعج

"مانو".

كان زوجها على الطرف الآخر. يتصل من مكتبه. بدا حسن المزاج فقد تلقى للتو رشوة مقنعة على هيئة "هدية محترمة". سأل زوجته بلطف عما يفعله ابنيهما الأكبر. أجابت بفخر:

- يدرس.



على بعد منزلين، جلست مسر "جوبتا" في حجرة نومها، على سرير كبير مغطى بلحاف من "الساتان" الناعم، بلون الخوخ الفاتح.

امرأة في أواخر الخمسينيات من العمر، إلا أنها تبدو أصغر من ذلك بكثير بفضل النظام الغذائي المدروس الذي تتبعه، والتمارين الرياضية التي تمارسها بانتظام. بشرتها فاتحة جداً، حتى توشك أن تكون شفافة. تحاول أن تداري عيوب شعرها الخفيف بعدم إطالته. يلامس كتفيها بالكاد، وتربطه إلى الخلف باستخدام مشبك شعر. لو أن امرأة أخرى في مثل عمرها صفت شعرها بتلك الطريقة، لبدت سخيفة ومتصايبة. لكن التسريحة - في الحقيقة - تتماشى مع شخصيتها القوية وثقتها العالية بنفسها، ومع خطواتها الخفيفة وخصرها النحيل.

عيناها صغيرتان، وأنفها معقوف بعض الشيء. تكره هذين العيبين في وجهها، لكنها تدرك جيداً أنها، بصورة عامة، تتمتع بمظهر جيد... رشيقة، أنيقة، محترمة، وتنتمي لعائلة ثرية.

نظرت إلى الرفّ المثبت على الحائط. تأملت تماثيل الكريستال الموزعة عليه.. مزهريّة صغيرة رشقت فيها بعض الورود البيضاء المستوردة، وآلة كمان دقيقة الحجم والتفاصيل، وامرأة تؤدّي حركات راقصة.. وتحف أخرى لطيفة

وبديعة. الكريستال هو أحدث صيحة في عالم الزينة المنزلية. وهي حريصة على إضافة المزيد إلى مجموعتها كل فترة.

فكرت قليلاً.. ربما كان من الأنسب أن تنقل هذه القطع الفنيّة إلى غرفة الجلوس، فلا أحد يراها هنا.

عكست المرأة الكبيرة، أعلى التسيريحة، منظر الغرفة ومحتوياتها. الفراش الكبير، الذي تعلوه خلفية من المخمل الأحمر. تماثيل الكريستال.. الطاولتان الصغيرتان على جانبي السرير، السجادة ذات اللون النحاسي.. الستائر المنقوشة بالمربعات الملونة.

عكست المرأة أيضاً مسز "جوبتا"، وهي تجلس بزهو على فراشها، مستغرقة في تفكير عميق.

على سطح التسيريحة، أسفل المرأة مباشرة، علبة من كريم "لوريال" المقاوم للتجاعيد، ومنظف البشرة "لاكيمي"، والعديد من دوائر الـ"بيندي"⁽¹⁾ الحمراء، التي تحرص على تزيين جبينها بها، وزجاجة عطر كبيرة. كما يصطف عليها عدد من أحمر شفاه "ريفلون"، بالعبوات الملساء المتميزة ذات اللون الأحمر.. تبدو كجنود من الأقسام الواقفين بانتباه، متدثرين بمعاطفهم الحمراء.

تلك هي الأشياء التي تستخدمها يوميًا. أما بقية مستحضرات التجميل التي تمتلكها، فمرتبّة بعناية داخل الأدراج.

(1) "بيندي": كلمة هندية تعني نقطة أو قطرة، وتطلق على الدائرة الحمراء التي توضع منتصف جبهة السيدات، وبخاصة الهندوسيات.

سمعت مسز "جوبتا" مؤخرًا عن فلسفة الـ"فينج شوي"⁽²⁾ الصينية في إحدى الحفلات، أعجبتها فكرة ترتيب الأشياء وفق نظام معين يعمل على تدفق الطاقة الإيجابية حول الإنسان، وتخليصه من التوتر. أخبرت زوجها عن الأمر:

- إنه الصورة الأحدث من الـ"فاستو شاسترا" في ثقافتنا، وهناك كتب عنه بالإنجليزية. لقد طبقت مسز "بنداري" الـ"فينج شوي" في بيتها. أعدت حديقة صخرية في الموقع الذي حدده الكتاب لها.

لم تكن مسز "جوبتا" تملك الوقت الكافي لقراءة الكتب، لكنها راحت تسأل الآخرين عن هذه الفلسفة وكيفية تطبيقها، ثم أدخلت الكثير من التغييرات والإضافات على مسكنها، وعلقت أجراسًا صغيرة على مدخل حجرتها، ترتطم ببعضها وتصدر رنينًا جذابًا مع كل هبة هواء.

مرّت بأصابعها، في شرود، على اللحاف الناعم. ارتسمت ابتسامة سعيدة على شفتيها المصبوغتين. لقد تمّ الاتفاق مؤخرًا على زواج ابنها الأكبر "تارون"، وهي راضية تمام الرضا عن هذه الزيجة.

العروس تُدعى "شيلبا". فتاةٌ خجول وجادة. ليست جميلة بالمعنى المتعارف عليه، لكنها بيضاء ولها جسمٌ رشيق. قالت مسز "جوبتا" لنفسها إن هاتين الصفتين هما الأهمّ، أما الباقي فيمكن التغلّب عليه بوسيلةٍ أو بأخرى. البنت هادئة الطباع، ولديها استعداد دائم لخدمة وإسعاد الآخرين. تتمتع بالحياء والخجل، عكس فتيات هذه الأيام اللاتي يتّسمن بالتهوّر والفضاظة.

(2) "فينج شوي": فلسفة صينية قديمة تتعلق بترتيب الأشياء وفق نظام معين، يحقق الانسجام في البيئة المحيطة بالإنسان، ويعمل على تدفق الطاقة الإيجابية حوله، ليخلصه من التوتر.

يمكن تطويعها بسهولة، إلا أن أهمّ ما يميزها على الإطلاق هو ثراء والدها وسُمعته المحترمة في دنيا الصناعة.

الأوضاع في العائلتين متطابقة تمامًا، ولذلك فلن يكون هناك مشكلات بين العروسين أو بين أفراد الأسرتين. وربما - في فترة لاحقة - يمكن لـ"تارون" أن يدخل شريكًا في أعمال إخوة زوجته. لدى مسز "جوبتا" الكثير من الأمور التي تشغل بالها، كالتخطيط الكامل لحفل الزفاف. ابنها الأصغر "بونيت"، والذي يعمل مهندس كمبيوتر في "أمريكا"، سيأتي خصيصًا لحضور العرس. سيساعدها في إتمام التفاصيل التي ترغب بها، بالطبع.

كما أن لـ"مستر جوبتا" العديد من الصلات والعلاقات بمختلف الناس، كونه رجل أعمال ناجحًا، يعرف كيف يدير الأمور. سيتولى الأمور العملية، كتوجيه الدعوات للمعارف، والحصول على خصم كبير في محلات المجوهرات وشركة توريد الأطعمة وتأجير الخيام. لكن مسؤولية التسوّق تقع على عاتقها وحدها.

كانت عائلة "جوبتا" قد ناقشت تفاصيل العرس بشكل مفصّل وصريح مع والديّ "شيلبا". واتفق الجميع على أن يكون عدد الحفلات ثلاثًا. سيتمّ دمج حفل النساء مع حفل الحناء في ليلة واحدة. تتبعها ليلة الزفاف، ويعقب ذلك حفل استقبال؛ ولذلك، عليها أن تجهّز لنفسها ثلاثة أزياء، مع ما يناسب كل منها من مجوهرات. عليها أيضًا أن تقرّر ما ستبناعه من ملابس ومجوهرات لـ"شيلبا"، لتحضر بها الحفل الأخير. فوفقًا للتقاليد فإن كل ما تلبسه العروس بعد زفافها مباشرةً يجب أن يكون هدية من والدي زوجها. يلزمها أن تفكر كذلك في الثياب التي سيرتديها "تارون".

قررت مسز "جوبتا" أيّ مجوهرات ستزين بها ليلة زفاف ابنها. كانت تمتلك طاقماً من الذهب المرصع بحبات الزمرد. ستشتري "ساري" من الحريري يتماشى معه. لا يمكنها أن تترك شعرها منسدلاً، رغم أن ذلك يجعلها عادةً تبدو أصغر عُمرًا. لكن أم العريس لا تصفف شعرها بتلك الطريقة أبدًا.

تهدت وعاودت التفكير بعملية التسوق. بدايةً، عليها أن تطلب من الخياطين تفصيل عشرين طاقماً من الأثواب القصيرة والسراويل لـ"شيلبا"، وأن تشتري لها عشرين "ساري" أيضًا. ثم هناك إن قطع "الساري" المختلفة التي ينبغي أن تهديها لأقربائها هي، وبعض الأقمشة لرجال العائلة، بالإضافة لعدّة أنواع رخيصة للخادِمات.

فكرت بحماس:

- الكثير من التسوق والتبضع والشراء!

منذ يومين، تحدّثت إلى والدة "شيلبا" على التلفون، واتفقتا على أن تقوما بشراء كل ما تحتاجان إليه من "سيفاك بيت الساري". تمّنت ألا تقابل أحدًا من عائلة العروس وهي هناك، إذ سيكون موقفًا محرّجًا أن تضطر إلى الفصال في الأسعار أمامهم.

ليس من الممتع أن تفكر في هذه المسائل بمفردها. رغم أن الكثير من أهلها موجودون معها في "أمريتسار"، فإن العائلة بأكملها تستعد لعرس ابنة أختها التي ستزوج بعد عشرة أيّام. سيتهمونها بالأنانية إن هي بدأت بالحديث عن حفلات ابنها قبل انقضاء الأيام العشرة القادمة.

مدّت مسز "جوبتا" يدها إلى التليفون اللاسلكي الذي أحضره "بونيت" في أول زيارة له من "أمريكا". اتصلت بمسز "ساندو". أجابت الأخيرة بعد أول رنة. قالت فور أن تعرّفت إلى الصوت:

- آلو.. كيف حالك؟

- أنا بخير.

- هل بدأت في إتمام تجهيزات العرس؟

كانت أم العريس قد أنبأتها بالخبر السارّ، عقب الاتفاق على الأمر مباشرة.

- كلاً.. الوقت ضيق، بسبب زفاف ابنة أختي الذي سيُعقد بعد عشرة أيام. العائلة كلها

مشغولة بعض الشيء، لكنني انتهيت من تجهيز أموري منذ مدّة. لحسن الحظ تخلصت من

عبء التفكير في زفاف واحد على الأقل!

علقت مسز "ساندو" بانبهار حقيقي:

- هذا أكثر ما يعجبني فيكِ يا مسز "جوبتا"! عليّ أن أعترف بأنك منظمة جدًّا.

أجابتها مسز "جوبتا" باستنكار:

- أنا؟! كلاً.. غير صحيح.

ثم أضافت:

- في الواقع.. لقد كنت أفكر في الذهاب للتسوّق. هلأ أتيتِ معي؟ هناك الكثير من

السواري والأقمشة التي ينبغي عليّ شراؤها.

تذكّرت مسز "ساندو" بأنه يتوجب عليها أن تشتري "ساري" قيمًا تهديه لعروس "تارون"؛
فحين تزوجت "ميني" ابنة شقيقتها، تمّت دعوة مسز "جوبتا" التي أهدت العروس قطعة
جميلة من "الساري" البنفسجي، المطرّز بكثافة.

اقتربت "ميني" بطبيب أسنان مثلها، وفتحا عيادة معًا. كرسي المرضى وحده، كلفهما ما
يزيد على عشرة آلاف وخمسمائة رويّة.

لم تلبس "ميني" ذلك "الساري" البنفسجي الأنيق قط. قالت إنها طبيبة، وصحيح أنها
مجرّد طبيبة أسنان، لكن مظهرها يجب أن يكون بسيطًا وعمليًا، وأن ارتداء الأثواب القصيرة
والسراويل هو الأنسب لمهنتها.

عمومًا، عليها الآن أن تهدي زوجة ابن مسز "جوبتا" "ساري" بالقيمة نفسها تقريبًا، إن لم
يكن أعلى بعض الشيء؛ فتلك المرأة تهتم بمثل هذه الأمور، وتخبر الأخريات عنها.

قالت أخيرًا:

- نعم، بالطبع. سأذهب معك.

- أوه.. شكرًا. أنتِ تعرفين بالطبع استحالة أن تشتري السواري بمفردك، دون أحدٍ
تستشيرينه.

- ليس عليك أن تشكريني أبدًا، فابنك في معرّة أولادي تمامًا.

كانت لا تزال مستغرقة في التفكير بسعر "الساري" الذي أهدته المرأة لابنة أختها.

أضافت:

- على كل حال، "مانو" المسكين ذهب لتلقي دروس في الفيزياء والكيمياء ولن يعود قبل ثلاث ساعات. والولد الصغير لديه اليوم الرياضي المفتوح في المدرسة هذا النهار، وسيتأخر في العودة، رغم أنه...

قاطعتها مسز "جوبتا"، دون اهتمام:

- حسناً، تعالي إلى منزلي عقب نصف ساعة لنذهب للسوق معاً.

- حاضر.

قالتها، وهي لا تزال تحاول أن تقرّر ثمن "الساري" الذي يتوجب عليها إهداؤه لتلك الفتاة في عرسها. المشكلة أن أسرة "جوبتا" هي الوحيدة التي تعمل في مجال الـ"بيزنس" في الحيّ، وذلك هو ما يجعل تلك المرأة تعتقد أنها الوحيدة التي تمتلك الأموال. لكنها هي بدورها حريصة، بأساليبها الخاصة، على أن تبرهن أنها ليست أقلّ من أيّ أحد آخر.

قالت مسز "جوبتا":

- سأطلب من السائق إذاً أن يستعدّ.

ثم أغلقت التليفون على الفور.



قال "هاري" مستعظماً:

- أخي "رامتشاند".. يغالبني شعور مفاجئ ورغبة ملحة في تناول حبة "ساموسا"

ساخنة.

أضاف متفكرًا، بعد برهة:

- رَجِّمًا حَبَّانٍ مِنْ "الساموسا" ..

ارْبُدَّ وَجْهَ "رامتشاند"، وقال:

- اسمعني جيّدًا.. لقد ذهب "جوكل" لتسليم طلبية كبيرة، وإن خرجت أنت أيضًا الآن...

قاطعهُ "هاري" بسرعة:

- كلاً!.. لن أخرج. أعني.. ليس بالضبط..

قال بعد قليل وهو يغمض عينيه:

- فكّر في الأمر.. تخيّل حَبَّةَ "ساموسا" كبيرة وممتلئة وساخنة كما النار. عجينة لذيذة

ومقرمشة، محشّية بكمية وفيرة من البطاطس المهروسة، المتبّلة بقطع الفلفل الحارّ والكزبرة

والبصل، ولا تنسى الصلصات المصاحبة.. الصلصة الحمراء الحامضة، وصلصة النعناع الأخضر.

"ساموسا" ساخنة وطازجة، تمّ انتشالها من الزيت حالًا.. آه.. آه.. آآآه!

أسالت كلماته لعاب "رامتشاند"، لكنه حاول أن يتحدّث بشكل عقلائي، كما يفعل

"جوكل" عادةً:

- اسمعني يا "هاري" .. عليك ألا تقوم بكل ما يمر على بالك..

لكن "هاري" أجابه بنفاد صبر:

- أخي "رامتشاند"! أنا جائع جدًّا!

أضاف مستعظفًا:

- سأجري سريعًا.. آكل.. ثم أجري عائداً إلى الدكان. صدّقني. ثم إن هؤلاء الناس القابعين في الدور السفلي لن يهتمهم إن أنا متّ جوعًا.. ألا يكفي أنهم يعاملوننا كالعييد؟ ولا تنس أنني سأحضر لك معي حبة "ساموسا".

قال "رامتشاند" بتردد:

- نعم.. ولكن...

لكن "هاري" كان قد قام واقفًا. غمز بعينه لصديقه، وأخذ يمثّل مبالغة أنه يمشي على أطراف أصابعه. لم يكن هناك أيّ داعٍ لهذا الأداء المضحك، إذ لم يكن في الدكان، حينها، سواهما. تنهّد "رامتشاند"، وغمره شعور هائل بالتوتر، أخذ معه يقطع أصابع يديه بلا توقف.

أحس برغبة شديدة في شرب كوب من الشاي، علّه يمنحه شيئًا من الهدوء. تمنى أن يعود "هاري" أو "جوكل" قبل وصول الزبائن الذين سيتوافدون عمّا قريب. "شيام" و"راجيش" خرجا لتناول الطعام. كان بمفرده تمامًا. لو جاءت الآن زبونة واشترت شيئًا، فسوف يتوجب عليه أن يذهب إلى الدور السفلي، ويكتب لها فاتورة في الدفتر الصغير المزود بورق الكربون. لم يفعل ذلك إلا مرة واحدة فقط، حين كان "مهاجان" خارج الدكان. يومها، حمل الفاتورة وأراها له فور عودته، وأوماً "مهاجان" برضا.

إلا أن الفكرة تشعره بقلق بالغ، ولم يكن يرغب في تكرار الأمر مرّة أخرى أبدًا.

في معظم الدكاكين، لا يتعامل البائعون مع النقود. فهذا الأمر تحديداً موكل لأصحابها ومديريها. لكن "مهاجان" كان متيقنًا من أنه لا يمكن لأحد أن يغشّ

أو يسرق في دكان هو مديره. ويردد دائماً أنه لو اختفى أيّ "ساري"، فسوف يكون أول من يلاحظ ذلك، وأول من سيتصل بالشرطة. وهم جميعاً يصدّقونه، لأنهم يعلمون جيداً أن نظراته الحادّة لا يفوتها شيء بتاتاً. لم يفكر أحدهم مرّة في أن يبيع "ساري" في غياب "مهاجان"، دون أن يسجّل ذلك، وعلى كل حال، فعند غياب الرجل لأيّ سبب من الأسباب.. كانت مهمة تدوين الفواتير توكل عادةً لـ"شيام" أو "راجيش".

"هاري" هو الوحيد الذي لا يُسمح له بكتابتها؛ ليس لأن "مهاجان" لا يثق في أمانته، بل لأنه لا يثق في عقله، كما يردّد دائماً، وعادةً ما يضيف:

- هذا إذا كان يملك واحداً بالطبع!

كثيراً ما قال محدّراً:

- يُمنع على هذا القرد الاقتراب من درج الفلوس، لعشر سنوات على الأقلّ. ليس قبل أن

يصبح ذلك القرد رجلاً حقيقيّاً.

ويردّ "هاري" عادةً:

- ولكن سيّدي.. ماذا لو ظللتُ قرداً إلى الأبد؟

يصيح "مهاجان" بغیظ:

- لو كنت مكانك يا "هاري"، لأحسست بالعار من أن يطلق الناس عليّ لقباً مثل هذا..

وأنا شابّ كبير في الثانية والعشرين. لكن الأمر بالنسبة لك مجرد نكتة.. أنت بالفعل قرد

عديم الحياء!

بعد أن يتعد "مهاجان"، يستسلم "هاري" لنوبة ضحك طويلة:

- الواقع أنني قد أتحوّل من قرد إلى رجل، في يومٍ من الأيام.. لكن المشكلة هي أن "مهاجان" سيظلّ "مهاجان"! هاهاها.. آه.. نسيت أن أسأل مديرنا العزيز عن الطريقة التي يفرّق بها بين القرد عديم الحياء.. والقرد المؤدّب!



بعد أن غادر "هاري"، استند "رامتشاند" إلى الحائط. ضغط بكفّيه على عينيه المتعبتين. لا يعرف لماذا أصبحت نوبات الصداع تهاجمه الآن على فترات متقاربة. هناك أيام يصحو فيها من نومه حوالي الرابعة أو الخامسة صباحًا، ويظلّ مستلقيًا على سريريه، محدقًا في السقف.. يفكر في أشياء غير محدّدة. حين يفيق من شروده، يكتشف أن الساعة قد أصبحت الثامنة. مَنْ يكون خلال تلك الساعات الثلاث أو الأربع؟ ولماذا أصبح الدكان يشعره بالاختناق؟ لماذا يحسّ أن هناك أمرًا خاطئًا يحدث؟ إحساس بأن كل ما يسمعه كذب. أكاذيب كبيرة.. أكاذيب صغيرة.. من الجميع.. طوال الوقت.. يومًا بعد يوم.

يتملّكه دائمًا هذا الشعور الفظيع.. هناك فراغ ما.. شيء ناقص.. شيء لا يعرفه.. ولا يملك القدرة على رؤيته.. لكنه على قدر عظيم من الأهمية.

ذلك الشيء هو الذي يجعله يشعر بهذا التغيير في الدكان.. وفي كلّ مَنْ حوله.. بل وفي نفسه هو شخصيًا، وبخاصّة حين يكون بمفرده.

في أحيان أخرى، يشعر أنه إنسان ثالث، لا علاقة له بالشخصيتين السابقتين.. يتنابه هذا الإحساس حين يصحو من نومه في منتصف الليل، في الظلام، يتأرجح بين اليقظة والنوم لعدّة لحظات، قبل أن يستسلم للنعاس.

سمع "رامتشانند" طقطقة السُّلم الخشبي، وصوت خطوات تصعد عليه. لا تُسمَع هذه الأصوات إلا في الصباح؛ أمّا بقية ساعات اليوم.. فتختفي تمامًا وسط أمواج السيّدات المتدافعة داخل الدكان، وصياح زملائه حين يطلبون من بعضهم إحضار "ساري" معيّن، وقطع الأقمشة المتطايّرة من يد بائع إلى آخر. في تلك الأثناء، لا يمكن للمرء أن يسمع أفكاره، فما بالك بالسلام الخشبية؟

فُتِح الباب الزجاجي، وظهرت مسز "جوبتا"، ومن خلفها مسز "ساندو" وهي تلهث. تأوّه "رامتشانند": "هل كان عليهما الحضور وأنا بمفردي هنا؟ هاتان الاثنتان لا تتوقفان عن الكلام والثرثرة".

وبالفعل، كانتا تتكلمان معًا وهما تدخلان من الباب وتجلسان أمامه.

قالت مسز "جوبتا":

- أم أقل لك؟ النهار المبكّر هو الوقت المثالي للتسوّق.. بعدها تزدهم المحلّات بشكل غير معقول.. ولا تجدين شيئًا تشتريه.

أجابتها مسز "ساندو":

- صحيح.. ثم إن اختيار الأقمشة، تحديدًا، يحتاج لبال رائق ومكان هادئ.

ابتسم لهما "رامتشانند" ابتسامة مختصة، وسألها عمّا توذّان رؤيته.

قالت مسز "جوبتا" بسعادة:

- بشرى سارة! ابني سيتزوّج قريبًا.. ولذلك أريدك أن تحضر لي أفضل وأجمل ما

عندكم.

تنهّد "رامتشانند". كان هذا الصباح في أوّله هادئاً لدرجة الرتابة، لكنه أخذُ الآن في التحوّل بشكل مزعج. تمّنى لو يتوقّف الناس عن الزواج وإقامة الأعراس كل يوم في جميع أنحاء المدينة. أحسّ بشيء من الغضب.

انتشل نفسه من أفكاره، وبدأ في انتقاء السواري التي سيعرضها على المرأتين. أثناء ذلك، واصلت السيّدتان حديثهما الذي قطعه صعودهما السُّلم. قالت مسز "جوبتا" مبتسمة:

- إنّه الوقت المناسب لزواجه. لقد صار له مصنعه الخاصّ مؤخراً.. وأعماله تسير من نجاح لنجاح.. نمسك الخشب.

أطبقت مسز "ساندو" كفيها على بعضهما وقالت في خشوع:

- الفضل كلّهُ للرّب. علينا أن نحمده على نجاح أولادنا.

أجابتها صديقتها على الفور:

- طبعاً.. طبعاً. أفعل ذلك على الدوام. كما أحرص على إطعام الفقراء الموجودين حول معبد "شيفالايا"، يوم الإثنين من كل أسبوع.

انتبه "رامتشانند" ورفع رأسه فجأة. معبد "شيفالايا".. حيث كانت أمّه تأخذه وهو طفل صغير. تسلّلت إلى أنفه رائحة زهور الأفحوان الصفراء، التي يقدّمها الناس للآلهة في المعابد.

واصل انتقاء السواري، فيما راحت مسز "جوبتا" تكمل ثرثرتها:

- أنا أدرك أنني امرأة محظوظة للغاية، ومقتنعة تماماً بأنه يتوجّب عليّ القيام بخدمات ملموسة وذات فائدة أكبر للفقراء. تحدّثت مع مسز "بنداري"

في الأمر، وقامت بتشجيعي. في الحقيقة لديها العديد من الأفكار النموذجية الموجهة لخدمة المجتمع؛ لكنها.. أعني.. لا بد أنك أنت أيضًا قد لاحظت ذلك.. مغرورة بعض الشيء، ومتكبرة. ربّما لأنها تتحدّث الإنجليزية بطلاقة. لا يوجد سبب آخر لأسلوبها هذا، فهُم ليسوا أغنياء بالمعنى المتعارف عليه.

قالت مسز "ساندو" وهي تتفحص "ساري" أصفر فاتحًا:

- ومن يهتمّ؟

أومأت مسز "جوبتا" بابتسامة ذات مغزى:

- ربّما تشعر بالنقص.. فهي لم تنجب ذكورًا، مجرد بنت واحدة. وفوق ذلك فإن تلك الابنة لم تتزوج حتى الآن!

حمل "رامتشاند" إليهما مجموعة أخرى من السواري. مدّت مسز "جوبتا" يدها، بسرعة، واختطفت واحدًا أخضر اللون زُين بطواويس راقصة. رفعته أمام صديققتها التي قالت على الفور إنه جميل. سألته مسز "جوبتا" عن ثمنه، ثم احتفظت به جانبًا لنفسها. واصلت المرأتان تفحص المزيد من الأقمشة.

عاد "هاري" من مشواره أخيرًا، واستقبل النظرة اللائمة التي رمقه بها "رامتشاند" بشيء من البهجة. رفع عاليًا كيسًا ورقّيًا مبقع بالزيت، ليفهمه أنه قد أحضر له الـ"ساموسا" كما وعده.

عاد "شيام" و"راجيش" أيضًا. استمرت السيدتان، لساعتين أخريين، في اختيار المزيد من الأقمشة. وخلال ذلك، عاد "مهاجان" أيضًا. بادرت مسز "جوبتا" بخبر العرس، فهتأها بحرارة. غادرت المرأتان بثلاثة "سوارٍ". وقبيل

انصرافها، التفتت مسز "جوبتا" لـ"رامتشاند" ومنحته ابتسامة ووعدًا بزيارة أخرى قريبة، لشراء كمّية أخرى إضافية.

أحسّ براحة عظيمة، بمجرد أن اختفتا من أمام ناظره، وهما تهبطان السُّلم بخطوات حَذرة. فكّر بانزعاج في صوت مسز "جوبتا" المرتفع ونبراته الحادّة. أكل الـ"ساموسا"، رغم أنها كانت قد أصبحت باردةً كالثلج.

كان ذلك مجرد بداية اليوم.

بعد الساعة الحادية عشرة، تتابعت أفواج السيّدات. لا يعرف "رامتشاند" ما إذا كان إحساسه صادقًا بالفعل، أم أنّ الصداق هو السبب.. لكن جميع الزبونات كُنَّ مُتعبات هذا اليوم، وطلباتهن لا تنتهي. هذه تريد درجة معيّنة ومحدّدة من اللون الأخضر.. وتلك ترغب في "ساري" بحوافّ غير عريضة على الإطلاق. و"لا.. ليس كلّ هذه الكمّية من التطريز". ليس هناك مجال للشروود أو عدم الانتباه.

مع تتابع ساعات الصباح، أحسّ "رامتشاند" بأن حوائط الدكان تضغط عليه وتعتصره. بدأ يشعر بصعوبة في التنفّس.

خرج لتناول الغداء الساعة الثانية ظهرًا، بمفرده. من قوانين الدكان ألا يخرجوا جميعًا في الوقت نفسه. اشترى بضعة أرغفة "بوري" مليئة بالزيت من كشك قريب، وجلس يأكلها على مقعد خشبي أمامه.. يهتزّ لأقلّ حركة، أخذ يمضغ الطعام بقوة!

ابتلع الأرغفة بصعوبة، ثم طلب كوبًا من الشاي.

عادةً، يشربون جميعًا - ومعهم "مهاجان" - الشاي من الكشك المواجه للدكان، مرتين يوميًا. مرة في الصباح وأخرى في المساء. شاي بالحبان صيفًا، وبالزنجبيل شتاءً. يخرج أحدهم رأسه من النافذة، ويصيح طالبًا الشاي. سرعان ما يحضره ولدٌ صغير، بيده صينية معدنية تتسع لثمانية أكواب. يأتيهم بسبعة. يرسل لهم الكشك فاتورة بثمن طلباتهم، نهاية كل شهر. يقسم المبلغ على سبعة، ويدفع كل منهم نصيبه. في بعض الأحيان، يتناول "مهاجان" كوبًا إضافيًا، بمفرده أو بمعية ضيف أو صديق. حينها، يحاسب الصبي بمجرد أن ينتهي.

يتردّد "رامتشاند" على أكشاك الشاي الأخرى المتناثرة في أرجاء السوق. بعضها في أزقة قريبة من الدكان، لكنها خارج مجال رؤية "مهاجان"، وخارج نطاق الأصوات المرتفعة المتداخلة في الدكان. هناك يشرب الشاي بمفرده، وهو يشعر بالاسترخاء والراحة.. يرتشفه على مهل.

بعد الأرقعة كثيرة الزيت، وبعد أن أمسك بكوب الشاي الساخن بين يديه، بدأ يشعر أخيرًا بشيء من الهدوء. ارتشف الشاي العطر، وهو يفكر في الأمر الذي يسبب له كل هذا التوتر. يلازمه هذا الإحساس منذ زمن.. لكنه أخذ في الازدياد.

يشعر بأنه يكاد يلمح شيئًا من الحقيقة. ما هي بالضبط؟ لا يعرف. لو أنه فقط يستطيع أن يفكر بعمق وتركيز وجدية.. لتوصل لمعرفة ما يؤرقه. المشكلة أنه لا يستطيع أبدًا التعبير عن نفسه بوضوح ودقة. يدرك ذلك جيّدًا. انظر إلى الآخرين.. انظر كيف يتكلمون بعبارات مفهومة ومترابطة.. كما يفعل "هارى" حين يسرد عليهم تفاصيل "مباراة كريكيت"، أو حين يصف "جوكل" الطريق

لشخص تائه.. أو كيف شرحت له مسز "جوبتا" نوعية السواري التي تريد. كلهم لا يجدون أي صعوبة في الحديث مع غيرهم. أمّا هو، فأفكاره غير مرتّبة. تتطاير داخل رأسه، وتلفّ كدوائر متشابكة، ثم تهبط ثانيةً دون أن يتوصل لأيّ نتيجة.

"بلغتُ السادسة والعشرين.. ولكن يا للطريقة التي لا يزال يعمل بها عقلي!".

أنهى "رامتشان" كوب الشاي، وحمل قليلًا في زجاج الكوب المبقع، ما هذه السخافة؟ ما هذا الذي يفكر فيه أصلًا؟ أيّ حقيقة؟.

دفع ثمن الـ"بوري" والشاي، وهو يشعر بالاضطراب.

توجّه إلى الدكان، وقد انعكس على وجهه كل التوتر الذي يعتمل بداخله. عاد في الوقت المناسب لخدمة السيّدتين اللتين دخلتا الدكان للتوّ. إنه يعرفهما. الأولى هي مسز "ساتشديفا" رئيسة قسم اللغة الإنجليزية في إحدى الكليات؛ امرأة قصيرة ذات جسم ممتلئ، ولها صوت أجش. تجمع شعرها في كعكة مشدودة بقوة. من المعروف أنها تكتب بعض المقالات - بين الحين والآخر - في ملحق يوم الأحد لصحيفة الـ"تريبيون". والأخرى هي مسز "بنداري"، زوجة نائب المفتش العامّ للشرطة. امرأة جميلة، متعجرفة، في بداية الأربعينيات. تصفّ شعرها بطريقة متكلفة.. تكومه في خصلات مجعّدة أعلى رأسها. كانت قد انْتُخبت ملكة جمال، عندما كانت لا تزال طالبة في الجامعة. حين تتعرّف إلى أناس جدد، تصف نفسها بالناشطة الاجتماعية، وكثيرًا ما تتولّى تنظيم برامج خيرية لصالح نوادي الروتاري.

الأمر الذي يتفق عليه كل من يعرفها هو مهاراتها المتعددة ومواهبها الكثيرة. حتّى الأخريات اللاتي لا يُحببنها، لا يستطعن إنكار تلك الحقيقة. فبإمكانها عمل أحلى وأشهى الكعكات. أفضل بكثير من تلك التي تُباع في أشهر

مخابز "دهلي". كما أنّها تجيد التطريز، وتعرف جميع أنواع العزّز الدقيقة. أمّا أصناف الحساء التي تعدّها.. فلا أطيب منها. بل إن بإمكانها عمل أنواع غير مألوفة من الأطعمة، مثل الـ"سوفليه".. وهذا تحديداً ما لا تستطيع أيّ امرأة أخرى في "أمريتسار" القيام به.

مسز "بنداري" تتحدّث الإنجليزية بطلاقة، وتمتلك ذوقاً رائعاً في اختيار وتنسيق الملابس الأنيقة. وهي - فوق ذلك كلّ - صاحبة أنجح حفلات وأفضل سهرات.

المرأتان زبونتان دائمتان للدكان، إلا أن "رامتشانند" لم يقم بخدمتهما من قبل. حيّاهما بأدب: "ناماستيه". أومأتا برأسيهما رداً عليه.

أحسّ "رامتشانند" بقلقه يتزايد. لا شك أن رئيسة قسم اللغة الإنجليزية امرأة واسعة المعرفة وعميقة الثقافة. أمّا هو، فلم يقرأ إلا بضعة كتب معدودة اشتراها من بائع الكتب المستعملة الذي يقف خلف سينما "سانجام"، قرب موقف الأتوبيس. وحتى تلك الكتب القليلة، لم تكن بالإنجليزية، وإنما بالهندية.. قصص عن مخبرين سرّيين، تزيّن أغلفتها رسوم لمسدّسات وفتيات شبه عاريات. قرأ ثلاثة منها، وظنّ حينها أنها ممتازة ومشوّقة جداً ومبتكرة. ولكن حين بدأ قراءة الرواية الرابعة، أدرك أنها جميعاً مكرّرة بطريقةٍ ما؛ ففي الكتب الأربعة يحاول الشّرير إجبار البطلة على ممارسة أعمال غير أخلاقية معه. ينجح في ذلك في قصة واحدة، فتتقدم البطلة على الانتحار غرقاً، على اعتبار أن الموت سيخلصها من العار. أمّا في الكتب الثلاثة الباقية، فيأتي البطل حاملاً مسدّسه في اللحظة الحاسمة، وينجح في إنقاذ البطلة والحفاظ على شرفها.

أحسّ "رامتشانند" بالخديعة، حين أدرك أنها كلّها متشابهة. وتوقف، منذ ذلك الوقت، عن شراء الكتب.

في أحد الأيام، مرَّ ببقالة تنبعث منها رائحة خيش.. ورائحة دقيق الحمص الأصفر. ذكرته الروائح بأبيه.. وصار يتساءل إن كان لا يزال يتذكر شيئاً من الإنجليزية التي تعلّمها في صغره. عاد إلى بائع الكتب نفسه، واشترى منه قصّة أطفال إنجليزية، كتب على غلافها "شجرة الليمون السحرية". الكتاب الذي لم تتجاوز صفحاته الثلاثين، كان مليئاً بكلمات معقدة. وجده "رامتشانند" صعباً للغاية. استسلم في نهاية الأمر، وتوقّف عن قراءته. أعطاه لابنة صاحب البيت، التي جلست في الحوش تلوّن أوراق الشجرة المرسومة بداخله بقلم تلوين بنفسجي.

كان ذلك قبل عامين تقريباً، ومنذ ذلك الوقت لم يقرأ كلمة واحدة أو يلمس أيّ كتاب. تنحنحت مسز "بنداري"، فأدرك "رامتشانند" أنه كان يحدّق بها. ابتسم بتردّد، وسألها عن النوع الذي توّد رؤيته. يعرف أنها - هي أيضاً - امرأة ذكية؛ سمع الكثيرات يذكرن اسمها. بعضهن ينطقنه مقروناً بالإعجاب، وأخريات يلفظنه بحقد وحسد. فكّر "رامتشانند": "لكنّ النساء هن النساء". في الحقيقة، لم يكن يعرف معنى تلك الجملة، لكن "جوكل" يردها دائماً. قال لنفسه بأن وجود هاتين المرأتين هنا اليوم، يعدّ تغييراً لطيفاً.. فالدكان يمتلئ أغلب الوقت بنوعية أخرى من الزبونات، هن زوجات رجال الأعمال.

جلستا أمامه وطلبتا منه أن يعرض عليهما بعض السواري الحريرية. أحسّ "رامتشانند" بالأمل. سيّدتان متعلّمتان وموهوبتان، مختلفتان تماماً عن بقية المتردّدات على الدكان. أخرج بضعة قطع بحماس بالغ، وفردها لهما.

- سيّدتي.. هذه أحدث مجموعة وصلتنا. انظري لجمال هذا البرتقالي.. لاحظي النقوش الذهبية اللون التي تزيّن أطرافه. ما رأيك في هذا الأصفر إذًا؟ ما

أحلى التطريز الذي....

قاطعته مسز "ساتشديفا"، وهي تحدجه بنظرات باردة:

- أريد ألوانًا محترمة.. لا برتقالي وذهبي، وما شابه! أريد شيئًا أرتديه في الكلية، لا في

مهرجان القرية!

فكر "رامتشانند" قليلاً.. لم يكن يعرف شيئًا عن الكليات، ولا عن مهرجانات القرى.. ولا

حتى عن ذوق السيدات في اختيار ثيابهن.

سحب "ساري" آخر، وقال:

- حاضر يا سيدي. ما رأيك إحدًا في هذا الأحمر؟ انظري كيف يتداخل معه اللون الأسود

بشكل جميل! هذا التصميم يحظى بإعجاب الجميع.

عقب الجمود الذي علا وجه المرأتين، أحسّ "رامتشانند" بأن قلبه على وشك أن يقع بين

قدميه.

أخيرًا، حكّت مسز "بنداري" طرف أنفها بظفر مصبوغ باللون الوردي الفاتح، وقالت:

- قماش غير لامع، من فضلك.

بدأ "رامتشانند" يشعر ببعض الكآبة..

أخرج "ساري" أخضرَ فاقعًا، كلون الببغاوات، تزيّنه حوافّ مذهبة. تبادلتا، بدهشة،

نظرات جانبية. تمتت مسز "ساتشديفا" بغيظ:

- هؤلاء البشر!! الفهم لديهم عملية مستحيلة!

أحسّ "رامتشانند" بالسخونة في أطراف أذنيه. قالت مسز "بنداري" بتهذيب فائق:

- شيء مختلف عن هذا تمامًا.. أعني.. ألوان أكثر هدوءًا.. أقل صخبًا.

لم يفهم المطلوب بالضبط. لم يكن متأكدًا مما تعنيه. غمره إحساس فظيح.

قالت مسز "ساتشديفا" باستعلاء:

- لون كئيب بعض الشيء.. بُني مثلًا، أو رمادي.

تحبّ أن يبدو مظهرها غير مبهرج. عملي تمامًا. لم تكن واحدة من ربّات البيوت

التافهات، المزهوات بأنفسهن، اللاتي يملأن المدينة. هي امرأة متعلّمة. رئيسة قسم اللغة

الإنجليزية.

وقف "رامتشانند" لإحضار المزيد من السواري من الرقّ العلوي. أحسّ بنظراتهما تكاد

تخرقّه، وقد نفذ صبرهما. ألقتا نظرة واحدة على الأقمشة التي أنزلها ووضعها أمامهما. رفعت

مسز "ساتشديفا" حاجبيها وتنهّدت في ضيق.

أنزل المزيد وقد احمرّ وجهه من فرط الخزي الذي يشعر به.

تبادلتا نظرات غاضبة، وبدأتا في تقليب المعروض أمامهما في ضيق، فيما راح يجلب لهما

المزيد والمزيد..

أخيرًا.. اختارتا "ساري" لونه "بيج"، تتخلّله خيوط من الحرير البُنّي؛ ثم غادرتا الدكان.

جلس "رامتشانند" واضعًا رأسه بين يديه.



حين أغلق الدكان أبوابه أخيراً، في الثامنة مساءً، اقترب "جوكل" من "رامتشان" الذي كان يعيد "السواري" إلى أماكنها، وقال:

- هيتا يا صاحبي.. تعالَ لنأكل عند "لاكان سينج".

حاول "رامتشان" أن يبتسم وهو يمازحه:

- أخي "جوكل".. يبدو أنك صرتَ غنياً!

أجابه على الفور، باستنكار بالغ:

- أنا؟! غني؟؟ حياتي أصبحت جحيماً هذه الأيام.. "لاكشمي" ذهبت لعرس شقيق زوجة

عمّها. ومثل كل مرة تحضر فيها أيّ حفل، عادت من هناك برأس مملوء بالتفاهات.. وطلبات

لا تنتهي.. أريد هذا.. وأريد ذاك.. ليس لدينا الشيء الفلاني.. ونحتاج الشيء العلّاني. والله إن

هذا هو ما يحدث دائماً عقب كل عرس. وفي كل مرة أقول لها يا "لاكشمي".. يا عزيزتي.. حين

ترين ما يملكه غيرك، لا تحرقى قلبك من القهر والحسرة. ارض بما قُسم لك. تعلّمي أن تسعدي

بما لديك. لكنك تعرف كيف تفكر هي وغيرها من النسوة. هذه المرة، ترفض الحديث معي! علمًا بأنها اشترت "ساري" جديدًا وبلوزة وبعض الأساور، لتحضر بها الحفل. ومع ذلك، ها هي تعود إليّ بوجهٍ منتفخٍ من شدة الغيظ. أوتعرف ماذا قالت؟ تقول إن الولد الصغير يطلب حذاءً جديدًا، كذلك الذي يلبسه ابن "جاجو". وليس أيّ حذاء يا عزيزي! تريده "باتا" وبرباط! تخيل!! حتى ابننا الكبير الذي يذهب للمدرسة، لم يلبس يومًا "باتا"! ولا يهتم الأمر أصلًا. ولو كان الأمر بيده، لسار حافيًا! دعني أسألك.. ما أهمية ماركة الأحذية التي ينتعلها الأطفال؟ ألا تكفيها الثياب والزينة التي اشترتها قبل زفاف أقربائها؟ هؤلاء النسوة لا يرتحن إلا إذا دفعنك للجنون. أنا أفهم جيدًا سرّ هذا الغضب. واجهتها بذلك. قلت لها: "لاكشمي".. الولد الصغير لا يتجاوز الأعوام الثلاثة. إنه لا يعرف حتى كيف ينظف أنفه دون مساعدة منّا. ليس هو من يريد الحذاء الجديد. إنها رغبتك أنت. لماذا؟ لأن نار الغيرة أكلت قلبك حين رأيت زوجة "جاجو" تتباهى بحذاء ابنها الجديد أمام جميع الأقارب. ما المطلوب مني؟ أنا لست غنيًا مثل "جاجو".. إنه يمتلك محلًا صغيرًا لبيع الأجهزة الكهربائية.. والحقيقة أن هذا الرجل أبعد ما يكون عن الأمانة. أنا متأكد من أنه يغش زبائنه، وينصب عليهم في روبية هنا وروبيتين هناك. قلت لها ذلك. ولكن هل تسمع شيئًا مما أقول؟ إطلاقًا! لا تسمع سوى نفسها وثرثرتها التي لا تنتهي. وفي النهاية.. كما في كل مرة، ينتهي الأمر بأن تصب لعناتها على المحرومة أمي. لماذا تجرر أمي المسكينة في الموضوع؟ المرأة ماتت منذ أكثر من ستّة أعوام.

تنهد عميقًا ثم أضاف:

- لن أعود للمنزل قبل انتصاف الليل. ما رأيك أن نتعشى معًا الليلة؟

كان "رامتشاندر" على وشك الرفض.. الصداق يشعره بالضيق، كما أنه بدأ يحسّ بطعم حموضة في فمه عقب مغادرة مسز "ساتشديفا" ومسز "بنداري" للدكان. والأهمّ أنه لم يكن يرغب بتأتًا في الإنصات لشكاوى "جوكل" طوال الليل.

لكنه ذكّر نفسه بأن "جوكل" لا يستسلم طويلًا لحالة التذمّر هذه.. ثم تخيّل نفسه عائداً لحجرته، يطبخ أكلاً عديم الطعم على موقد الكيروسين، الذي تلقى شعلته بظلالها على الجدران المتقشرة فتزيدها قبحًا، فقال:

- حسنًا. هيا بنا.

التفت "جوكل" إلى "هاري" وسأله:

- هل تأتي معنا إلى مطعم "لاكان"؟

لم يسمعه. كان يجلس على ركبتيه، يمّسح بخزقة قدميّة بعض الشاي الذي انسكب من كوبه قبل قليل، وهو يغني بأعلى صوته وقد أغمض عينيه في اندماج مع الكلمات. تنهد "جوكل" في استياء ونفاد صبر، وضربه على ظهره بقوة وهو يصيح:

- هاري! قم وتعال معنا لنأكل.

كان "تشاندر" أيضًا يستعد للخروج من الدكان. وقف يلفّ الكوفية الصوفية حول رأسه بإحكام.

همس "هاري":

- ألن ندعوه ليأتي معنا؟

أجاب "جوكل" بسرعة:

- كلاً.. كلاً.

بدا منزعجًا، سأله "هاري" بفضول:

- ولمّ لا؟

قال "جوكل"، بصوت هامس، وهو يحاول كبت غضبه:

- لأنه يخرج كل ليلة مع أصدقائه؛ زملائه القدامى في المصنع الذي كان يعمل به قبل أن

يأتي للدّكان هنا. إنهم يشربون ويسكرون.. وهكذا..

أمضى "هاري" وقتًا طويلاً في الاستعداد للخروج. أخيرًا، غادر الثلاثة الدّكان وساروا باتجاه المطعم وهم يرتجفون من شدة البرد، مخترقين الضباب الآخذ في التكاثر. في منتصف الطريق، قابلوا "سوباش"، ابن عمّ "هاري"، الذي انضمّ إليهم لتناول العشاء. شابّ ذو وجه ذكيّ، وضحكة خشنة عالية. يعمل في متجر "ليديز فانسى ستور" القريب، الذي يبيع الإكسسوارات النسائية والأساور الرخيصة والـ"أباجورات" ومستحضرات التجميل، إلى جانب التحف المصنوعة من الزجاج والنحاس والخشب اللامع، وكل شيء تقريبًا.. طالما أنه ملوّن ومبهرج وبرّاق.

للمحلّ منظر لا يختلف كثيرًا عن البضاعة الموجودة بداخله. يمتلئ بالمناضد والواجهات الزجاجية الفاتحة اللمعان، وأركانها مُنارة بأضواء كثيرة.. أكثر مما يجب. يحقق المتجر أرباحًا عالية، لدرجة أن "سوباش" في الشهر الماضي حصل على خمسين روبية إضافية، زيادة على راتبه الأصلي.

حيّا "سوباش" الرجال الثلاث بمرح، وبدأ من فوره في سرد قصّة الزبونة التي جاءت ذلك الصباح لتتشاجر معه، لأنها اشترت منه قبل يوم خيوطًا

حمراء من النوع الذي يضفر في الشعر. مساءً، فكّتها من ضفيرتها وتركنتها في الحمام. حين استيقظت، اكتشفت أنها قد تبلّلت وفقدت لونها تمامًا. تملّكها غضبٌ شديد، وذهبت للمحلّ لتصيح وتتشاجر وتطالب باستبدال بتلك الخيوط أخرى جديدة، أو إعادة ثمنها لها.

- لا أستطيع أن أصف لكم، مهما حاولت، كيف راحت تسبّ وتلعن! وعلامَ كلّ ذلك؟ على بضعة خيوط تافهة تحبّ النساء تزيين جدائلهن بها! أيّ عقل هذا؟ أصلًا لو تركت آدميًا منقوعًا في الماء طوال الليل.. لانتهى! فكيف بمجموعة خيوط!؟

أومًا "هاري" برأسه موافقًا.

وصلوا إلى المطعم. المكان أكثر دفتًا بالداخل، بسبب الفرن الذي تبعث منه رائحة خبز شهية. يكتظ بأناس يرتجفون بردًا، يجلسون على دكك منخفضة ومقاعد بلاستيكية، يتدفؤون بشرب الشاي الساخن الذي تنشر رائحته الممزوجة بالحبّان إحساسًا بالراحة في أرجاء المكان. في إحدى الزوايا، طاولة بكرسيين خاليين من جهة.. وسرير قديم بحبال مشدودة على هيكله، من الجهة الأخرى. أسرع الرجال الأربعة بالجلوس حولها. تعود شهرة المطعم الذي يديره صاحبه منذ ثلاثين عامًا إلى استخدامه السمن الطبيعي الصافي في إعداد كل الأطعمة.

بعد أن اتخذوا مجلسهم، اقترب منهم "لاكان سينج" ليدوّن طلباتهم. رجل سيخي طويل القامة، لا تفارق الكتابة وجهه أبدًا. له شامة كبيرة أعلى حاجبه الأيسر، ويدان معروفتان.. ترتجفان أحيانًا.

كان قد فقد ابنه خلال عملية "النجم الأزرق" التي دارت في المعبد الذهبي عام 1984. بعد تلك الحادثة، توقف عن تقديم طبق الـ"بانير ماسالا" لرواد المطعم. وكثيرًا ما اعتذر لهم بالقول إن تلك الأكلة كانت المفضّلة لولده الأصغر.

وفي كل مرة، لا بد أن يضيف أن الولد الكبير لم يكن له طبق مفضل.. لأنه كان بسيطاً في جميع طلباته.

يتناول "رامتشاند" طعامه هنا في أحيان كثيرة، لكنه يشعر دوماً بقدر من الارتباك في وجود الرجل العجوز.

طلبوا جميعاً عدساً وخبزاً، وجلسوا ينتظرون. واصل "سوباش" حديثه عن الضفائر الصناعية والنسوة ذوات الطباع السيئة.

تزايد صداع "رامتشاند". ورغم أنه بدأ يشعر بالدفء، فإن أصابعه كانت لا تزال متجمدة من البرد، وكذلك "هاري" الذي أخذ يفرك كفيهما ببعضهما، وينفخ فيهما بأنفاسه الدافئة. لمح عيني "رامتشاند"، فسأله باهتمام:

- ما بك يا أخي؟ هل مزاجك سيئ؟

أجابه "رامتشاند":

- لا يا صديقي.. مجرد صداع.

علّق "جوكل" ضاحكاً:

- أيّ صداع؟ ما بالك تتحدّث كامرأة عجوز؟

ابتسم "رامتشاند"، وبدأوا في تبادل الحديث. وصل الطعام، ساخناً وطازجاً، مما أسعدهم جميعاً. أحضر لهم صبي صغير، من العاملين في المطعم، صحنًا معدنيًا به شرائح بصل وبعض المخللات.

في الخارج، ازداد الظلام حلقة، وانخفضت درجات الحرارة أكثر، وتكاثف الضباب. أغلقت المتاجر أبوابها، وأنزلت واجهاتها الحديدية، وتمّ تثبيت الأقفال بها. بدأ الناس في العودة لمسكنهم. ارتفعت أصوات عربات الـ"توك توك"، وتعالى الضجيج حول إشارات المرور. ارتفعت أيضاً أصوات الرجال الأربعة المجتمعين بالداخل. تناولوا الكثير من الشاي. كوب يلو الآخر. ازدادت الأجواء حميمية.. الكثير من الضربات اللطيفة على الظهر، والمزاح الصاخب، وقصّ الحكايات والنوادر.

بدأ "رامتشاند" يشعر بالتحسّن.

قام "هاري" بتقليد "بيمن سنّ" بإتقان بالغ. أرخى جسمه في كسل على الكرسي، وتظاهر بأنه يلبس نظارة طبية، يوزع من فوق حافتها نظرات متفحصة. صاح طالباً الشاي، مثله تماماً، بصوت غليظ. ثم راح يتظاهر بعدّ نقود وهمية، وهو يحرك أصابعه بسرعة.

استغرق "سوباش" في الضحك، حتى كاد يسقط من على المقعد.

تحدّث "جوكل" عن "لاكشمي" ثانيةً. ولكن بشكل هزلي هذه المرة، كما لو كانت أظرف نساء الدنيا. قال إنها امرأة غير منطقية، وإنها تستدعي خلافاتهما القديمة حين تغضب لأي سبب. تتشاجر بلا مبرر، ثم تبادل مصالحته دون تفسير. لديها هوس باستخدام بودرة التلك، بشكل مفرط. تعشق تطريز أغطية الوسائد، وتتملّكها رغبات عديدة، غريبة.

ضحك طويلاً، كأنه شخص آخر.. غير ذلك الذي كان يغلي من الغضب منذ ساعات

قليلة.

ثم قصّ عليهم "رامتشانند" ما حدث صباحًا مع "مهاجان". أخبرهم عن الأصوات الناجمة عن قفزاته وهو يحاول خلخ الحذاء؛ وكيف راح "مهاجان" يصيح به من الطابق السفلي. أخذ يضحك بقوة وهو يحكي تفاصيل الموقف.. كأنه لم يكن مرعوبًا حينها. في النهاية، وسط القهقهات المتواصلة، استطاع "سوباش" أن ينتزع من كل واحد منهم وعدًا بالذهاب إلى سينما "سانجام" الأحد المقبل، لمشاهدة إعادة عرض فيلم "هيو مبر وان". طلب الجميع المزيد من الشاي، وظلوا يتسامرون حتى اقتربت الساعة من الحادية عشرة. وأخيرًا، وقف "جوكل" وأعلن:

- أظن أنه يتوجب عليّ أن أغادر الآن، وإلا ستبدأ "لاكشمي" في سبّ جميع أفراد عائلتي، لا المرحومة أمي فقط!

تعالت قهقهاتهم من جديد، وهم يرونه يخرج متعجلًا. غادر "هاري" و"سوباش" بعده بقليل، وهما يتبادلان الضحك على شيء لم يتبينه "رامتشانند". بدأ يفقد شيئًا من المرح الذي انتابه الليلة. تابعهما وهما يتعدان، ويغلفهما ضباب الليل البارد. ثم سار بمفرده، عائداً إلى مسكنه.



بمجرد أن صار بمفرده، فقد كل المرح والخفة اللذين أحسّ بهما الليلة. الضباب الخفيف الذي كان يلفّ المكان في أول الليل، صار ثقيلاً وغليظًا. بدت الشوارع مهجورة. سار "رامتشانند" ببطء متجهًا إلى حجرته. بدأ يشعر بالاضطراب. الإحساس القديم نفسه الذي يختبئ في ثنايا روحه وجسده على الدوام؛ يتمدد بين رثتيه.. يسبح في دمه.. يهاجمه الآن بقوة أكبر، أكثر من أيّ

وقت مضى. احتقر نفسه للسهرة التافهة، العقيمة، التي أنفق وقته فيها. راجع أسلوبه وتصرفاته خلالها.. سلوك رخيص ومبتذل. الطريقة التي كان يضرب بها "سوباش" مازحًا! والطريقة التي كان يضحك بها على نكات ودعابات "هاري"! ما هذا؟ لمَ فعل كل ذلك؟ تذكّر مسز "ساتشديفا" ومسز "بنداري". شعر بالتقرّز الغثيان. منهما.. ومن نفسه. فكّر في كل ما مرّ به خلال ذلك اليوم. بدت الأحداث غير مترابطة.. وبدا الأشخاص في صورة كاريكاتورية، والأصوات جوفاء وبعيدة. بعيدة جدًا. رأى نفسه شخصية غير مؤثرة.. كائنًا غير مكتمل.. محبوبًا داخل فيلم سينمائي رديء.

قال "رامتشانند" لنفسه أنه قد آن الأوان لوضع حدّ لهذا كلّه.

ما هذا الجنون؟ وأين سينتهي به؟

كلّاء.. هذا غير مجدٍ. عليه أن يمسك بزمام الأمور. غدًا يومٌ جديد. سيغيّر كل شيء. لن يظّل مستلقيًا على سريره كأنه في غيبوبة. سيبدأ في ممارسة التمارين الرياضية، ليكتسب صحة ولياقة. لن يسمح لأحد بأن يخيفه. ولن يذهب لمشاهدة تلك الأفلام التافهة أيام الأحاد مع "هاري" أو غيره.

تسارعت خطواته وهو يواصل التفكير في قراراته الجديدة. كان قد سمع عن مذكرات الـ"مهاتما غاندي".. نعم.. سيكون هذا الكتاب هو مدخله الحقيقي إلى عالم القراءة. وعليه أيضًا أن يقرر بحسم - هذه المرة - ما إذا كان يؤمن بوجود ربّ حقًا أم لا.

وصل إلى البيت أسرع من المعتاد. وقف تحت الضوء المنبعث من عمود الإنارة في الشارع، وأخرج المفتاح الحديدي الكبير من جيبه. تلاشى الضوء شيئًا فشيئًا مع صعوده درجات السلم الضيق المؤدّي إلى حجّرته، حتى استحال لظلام دامس. فتح

الباب الخشبي القديم بالمفتاح، وخطا داخل الغرفة. تخبطت أصابعه وهو يبحث عن مفتاح الإنارة الكهربائي. أرسل المصباح العاري المعلق في منتصف السقف نورًا شحيحًا، وألقى بظلال كثيبة على الجدران. استنشقت "رامتشاندا" الهواء بعمق.

سوف يقوم أيضًا بطلاء هذه الحوائط. وسيستخدم مصباحًا ذا قوة أعلى. خمسمائة وات مثلًا! سيمنح ذلك للغرفة شيئًا من البهجة والنور، بدلًا من مصباح الأربعين وات هذا، الذي تستحيل معه القراءة.

نعم.. ضوء قوي وجدران نظيفة مطلية.

سوف يتمكن كذلك على التحدث بالإنجليزية أمام المرأة، كل يوم، لعشرين دقيقة على الأقل. من يدري؟ ربما استطاع أيضًا أن يحصل على وظيفة أفضل، في يوم من الأيام.

ذُكر نفسه مجددًا: "غداً يومٌ جديد".

وفيما كانت هذه الأفكار تتوالى في رأسه، قام بخلع ثيابه ولبس قميصًا طويلًا وسروالًا فضفاضًا استعدادًا للنوم. خلع جوربيه الصوفيين، ودس قدميه في فردتيّ الجورب الأزرق العتيق، الممتلئ بالثقوب، الذي يلبسه كل ليلة. استلقى تحت كومة من الأغذية الثقيلة، واستسلم لسبات عميق.

صحى من نومه متأخرًا بعض الشيء صباح اليوم التالي. كانت مدينة "أمريتسار" القديمة قد سبقته في الاستيقاظ. ارتفع صوت مذياع ينقل الصلاة من المعبد الذهبي. قرعت الأجراس في معبد قريب. توالى صياح بائع خضراوات في الطريق، معلنًا أنه يبيع الطماطم الطازجة بست روبيات للكيلو، فيما راح

بائع آخر يناول ربات البيوت، اللاتي انتهين منذ قليل من أخذ حَمَاهن اليومي، عقوداً من الأزهار الصفراء، ليقدمنها للآلهة في صلواتهن الصباحية.

في الطابق الأرضي، فتح أبناء صاحب البيت جهاز التلفزيون. "رامتشاند"، الذي استيقظ شاعرًا بصداع خفيف، أحسَّ بأن كل هذا الضجيج غير محتمل. قام من استلقائه، مزيحًا الأغطية الكثيرة عن جسده.

امتدت أشعة الشمس الشتوية الضعيفة عبر القضبان الحديدية لنافذته، وتساقطت على الأرضية الكالحة للحجرة في مستطيلات ذهبية. حاول "رامتشاند" استعادة الأفكار والقرارات التي توصل إليها الليلة السابقة. لكنه لم يستطع أن يتذكر سوى بعض الكلمات الباردة. ولا شيء آخر. أحسَّ بأن عقله فارغ وأجوف. استمرَّ في الجلوس على فراشه المتهالك، مدَّة طويلة، راح خلالها يعبث في أصابع قدميه، ويزيل ما تحت أظافرهما من قاذورات وجلد ميّت. وبعد فترة من الشرود المتواصل، أدرك فجأة أنه سوف يصل للدكان متأخرًا.. اليوم أيضًا.





وُلِدَ "رامتشانَد" قَبْلَ سِتَّةِ وَعَشْرِينَ عَامًا. فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، كَانَ وَالِدُهُ يَمْتَلِكُ دُكَّانَ بِقَالَةِ صَغِيرٍ جَدًّا فِي "أَمْرِيْتَسَار". يَبِيعُ فِيهِ - ضَمْنِ الْعَدِيدِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى - الْأُرْزَ وَالْبِقُولِيَّاتِ وَالشَّمُوعَ وَالْمَكَانِسَ وَالسُّكَّرَ وَدَقِيقَ الْحَمِّصِ وَالْمَكْسَّرَاتِ الْمَقْشُورَةَ وَالْبَسْكَوْتِ الْمَصْنُوعَ مِنْزِلِيًّا. كَانَ "رامتشانَد" يَحِبُّ رَائِحَةَ الْأَجُولَةِ الْمَصْنُوعَةِ مِنَ الْخَيْشِ، الَّتِي تَطْغَى عَلَى الْمَكَانِ. عَاشَتِ الْأُسْرَةُ الصَّغِيرَةُ فِي غُرْفَةٍ ضَيْقَةٍ خَلْفَ الدُّكَانِ، مَلْحَقٌ بِهَا حَمَّامٌ مَتْنَاهِي الصَّغْرِ. جَانِبٌ مِنْ تِلْكَ الْغُرْفَةِ خَصَّ لِلِاسْتِحْمَامِ، بَعْدَ تَغْطِيْتِهِ بِسِتَارَةٍ مَصْنُوعَةٍ مِنْ "سَارِي" أَحْمَرَ قَدِيمٍ، مَزِينٌ بِرُودٍ صَفْرَاءٍ. فِي مَنْتَصَفِ ذَلِكَ الرُّكْنِ، وَضَعْتَ بِالْوَعَةِ صَغِيرَةٍ، وَدَلُوً وَكُوزٌ بِبِلَاسْتِيكِي لَصَبِ الْمَاءِ.

الزَاوِيَةُ الْأُخْرَى مِنَ الْحِجْرَةِ، بِهَا مَوْقِدٌ صَغِيرٌ، وَتَمَّ اسْتِغْلَالُهَا كَمَطْبَخٍ. هُنَاكَ، كَانَتْ أُمَّهُ تَصْنَعُ مِنَ الْعَجِينِ دَوَائِرَ مَتَمَاثِلَةً مِنَ الْخَبْزِ، وَتَقَطِّعُ الْبَصَلَ وَالطَّمَاظِمَ لِلْمَكْعَبَاتِ مَتَسَاوِيَةٍ، وَتَرْتَّبُ الْمَلَاعِقَ وَالسَّكَائِينَ فِي صَفُوفٍ مُسْتَقِيمَةٍ. كَانَتْ دَائِمَةً

التحذير لـ"رامتشانند" من الاقتراب من الموقد. كانت لها عينان جادّتان ووجه باسم، وأنف دقيق.. مستقيم، تزيّنه حلية من الذهب على شكل ورقة شجر.

في أحد الأيام، انتهت من صنع عجينة خبز الـ"تشاباتي"، واستعدت لإشعال موقد الكيروسين. قالت لولدها، ابن الأعوام الخمسة، الذي كان يحوم حولها:

- الأولاد الصغار لا يقتربون أبداً أبداً من النار. فهمت؟ تذكر دائماً ما حدث لـ"تشوهو".. وإيّاك أن تنسى ذلك.

ظهر التمرد على وجهه، وظلّ ملتصقاً بها، إذ لم يكن لديه ما هو أحبّ من ذلك.

أخذت قطعة من العجين وناولته إيّاها. قالت مبتسمة:

- خذ هذه، واجلس هناك بعيداً عني. أريدك أن تصنع لي منها أجمل شيء في العالم.

فهم جيداً ما تطلبه منه، لأنها كانت تصنع له دائماً أشكالاً من عجين الخبز، طيوراً وأرانب. تحرّك أصابعها النحيلة بمهارة.. تجذب قطعة العجين، وتطويها، وتكوّرها وتبطّطها.. إلى أن تتحول في يدها إلى عصفورة ذات منقار حادّ وجناحين وذيل صغير. تتبع ذلك بقصّ بعض الحكايات عن العصفورة التي تستخدم منقارها هذا في الشجار مع زوجها، كما تستعمله في إطعام صغارها. تضحك حين ترى الدهشة مرسومة على وجهه وهو ينصت إليها بانتباه.

حين تصنع له أرنباً، تكتفي بعمل دائرة تثبت فوقها ذيلًا كروياً صغيراً. ولا شيء آخر.

مجرد دائرة وكرة. يتساءل الطفل باستغراب، في كل مرة:

- أين وجهه؟

تجيب ضاحكة:

- لقد خاف منك! إنه يهرب مبتعدًا. حين يخاف الأرنب، لا نرى منه إلا ذيله.

في إحدى المرات، شكّلت العجين في صورة فأرة، وقالت:

- اسمها "تشوهو".

ردّ "رامتشانند" متشككًا:

- فأرة بنت، وليست ذكرًا؟

أجابت:

- نعم. بنتٌ جميلة جدًا.

كانت قد صنعتها باهتمام بالغ. جعلت لها ذيلًا طويلًا، وعينين، وفمًا.

- انظر! ليس لها شارب!

أضافت:

- أمّها طلبت منها عدم الاقتراب من موقد الكيروسين. لكنها عنيدة، ولم تطعها، فأحرقت

النار شاربها..

تأثّر "رامتشانند" كثيرًا بهذه القصة. "تشوهو" بنت، ولا يهم إن لم يكن لها شارب؛

لكن ماذا عنه هو؟ ماذا لو اقترب من النار، فكبر ولم يظهر له شارب كالذي يزيّن وجه

أبيه؟

في بعض الأحيان، تشكّل أمّه العجين على هيئة وجوه. وباستخدام عود

كبريت، تصنع لها ثقبًا مكان العيون والأنوف والأفواه. بل وتجعل لكل منها

ابتسامه، تكشف عن أسنان من الثقوب المتراصة.

حين منحته العجين، وطلبت منه أن يصنع لها أجمل شيء في العالم، راح يدير القطعة اللدنة بين أصابعه الصغيرة الممتلئة، مستغرقاً في تفكير عميق. ما هو أجمل شيء في العالم؟ أمه طبعاً... أو ربّما أبوه. لكنه يعجز عن جعل هذه القطعة على هيئتهما. ثم إنهما ليسا "أشياء" بمعنى الكلمة..

استمر يلهو بها في شroud، دون أن يعرف كيف يتصرّف.

ثم جاءهما صوت أبيه، من الدكان، منادياً زوجته بتهذيب:

- تعالي من فضلك.

اعتاد والداه أن يخاطبا بعضهما بأدب واحترام، حتى إنه لم يكن أحدهما ينادي الآخر باسمه.

أطفأت الموقد، ورفعت عبوة الكيروسين وعلبة الثقاب إلى الرفّ العلوي، وهي ترمق ابنها بنظرات قلقة. تخاف عليه من الموقد، وترتعب حين تسمع عن الأطفال الذين تعرضوا لحوادث بسبب النار والحرائق؛ لكنها منذ أن قصّت عليه حكاية "تشوهو" لاحظت أنه لم يعد يقترب من الموقد أبداً. والحقيقة أنها لم تخطط لهذه القصة أصلاً.. وإنما جاءت الفكرة حين انتهت من تشكيل الفأر، إذ أدركت أنها لن تستطيع أن تصنع له شوارب دقيقة من العجين.

ابتسمت، وحلّت طرف "السايري" الذي كان مثبتاً حول خصرها. أحاطت به كتفيها،

ودلفت إلى الدكان بعد أن وجّهت نظرة أخرى نحو صغيرها.

كان زوجها يبحث عن صفيحة فلفل أسود جديدة، لا يتذكر أين وضعها بالضبط. عثرا عليها بعد بحث استمرّ لنحو عشر دقائق. عادت بعدها الأمّ للحجرة، لتواصل إعداد الطعام.

وجدت "رامتشاندا" جالسًا حيث تركته، وقد أمسك العجينة بين يديه بقوة. لكنه كان يبكي. لم يكن يصيح أو يصرخ بغضب، كما يفعل الصغار عادةً. كان يبكي في صمت، بأسى حقيقي، وحزن واضح.. انفطر له قلبها. رأت عينيه وقد امتلأتا بالهمّ، فاندفعت نحوه وحملته بين ذراعيها. احتضنته بقوة، ثم راحت تتفحص جسده لترى إن كان قد جرح نفسه.

لم يكن قد أذى نفسه بأيّة طريقة، وكانت متيقنة من ذلك.. من قبل حتى أن تدنو منه. عيناه تقولان ذلك. راحت تهمس له وتحذّثه برقة ولطف. حين هدأ بعض الشيء، سألته بجديّة شديدة.. كما لو كان رجلاً كبيراً:

- قل لي.. لماذا تبكي؟

لم يجبها في البداية. أخذ ينظر إلى قطعة العجين في كفه الصغيرة. فاضت عيناه بالحيرة وعدم الفهم. تملى في وجهها الحبيب المألوف. نظرت إليه بعينين صافيتين متفهمتين. إنه يصدّقها ويثق بها، ويمكنه حتّمًا مصارحتها..

- أمي.. أمي.. أنتِ قلتِ.. لقد قلتِ لي.. طلبتِ مني أن أصنع أجمل.. أجمل..

بدأ ينتحب بأسى. انتظرت بصبر إلى أن هدأ تمامًا.

- طلبتِ مني أن أصنع أجمل شيء في العالم.

سألته بجديّة:

- وما الذي حدث بعد ذلك؟

انفجر في البكاء، وصاح:

- ولكنني لا أعرف.. لا أعرف ما هو أجمل شيء في العالم.

لم تبتسم أو تضحك، ولم تسخر منه. ولم يتسنَّ لها أبدًا أن تعرف مدى التقدير الذي حمله لها ابنها بقية عُمره، لأنها لم تضحك في هذا الموقف. بل ولم تتكلم، أو تتحرَّك للحظات، احتضنته بعدها بخفَّة، ومسَّدت شعره براحة يدها في هدوء.

في تلك اللحظة، دخل والده ورأى وجهه الغارق في الدموع. ورأى أيضًا دموعًا أخرى حبيسة في عيني زوجته اللامعتين. سألتها عمَّا حدث. لم تقل شيئًا: "لا شيء.. لقد سقط على الأرض". لكنها سردت عليه، بهدوء، ما دار بينها وابنها.

نظر "رامتشاندا" إلى أبيه بخوف ووجل. كانت دموعه قد جفَّت، وبيست قطعة العجين بين أصابعه، وبدأ سطحها يتشقق. نظر له والده طويلًا، ثم قال:

- وأنا أيضًا لا أعرف.

صمتُ أمه، والصدق الذي غلَّف إجابة أبيه.. من الأمور التي لن ينساها "رامتشاندا" أبدًا. بعد ذلك، ساد الغرفة جوٌّ من الأمان والطمأنينة. لا يعرف "رامتشاندا" أين ذهبَت قطعة العجين. نسيها الجميع.

غسلت أمه وجهه ويديه، وجفَّفته بقطعة من القماش القطني الناعم، وأعطته كوبًا من الحليب الدافئ. أحضر له والده حبةً من البسكوت المغطَّى بالسكر من داخل الدكان. يعرف "رامتشاندا" أنها من النوع الغالي الثمن.

مساءً، أغلق والده الدكان، وتناولوا العشاء وخلدوا للنوم.. كما كل يوم.
لم يتحدث أحد منهم عما دار ذلك اليوم مرة أخرى، لكنه منذ ذلك النهار تحديداً أصبح
يشعر بأنه يحبهما أكثر من أي وقت مضى.



في طفولته، كان "رامتشاند" يهوى قضاء أطول وقت ممكن داخل دكان أبيه. يطوف بين
الصفائح والأجولة.. يفتحها.. يشم ما بداخلها. ويجد ذلك مسلياً وممتعاً جداً. يسمح له والده
بذلك، طالما أن الدكان يخلو من الزبائن. لكن بمجرد دخول أحد، كان عليه أن يغادر على
الفور.

حين يخلو المكان من الناس، تدخل أمه أيضاً لتجلس جوار أبيه، وينغمسان في
أحاديث طويلة. خلال ذلك، كان "رامتشاند" يفتح هذا.. ويلمس ذاك.. ويمرر الأرز عبر
أصابعه.. يجلس فوق الأجولة ويعلن أنه الملك. يدخل في صندوق ضخم من الورق
المقوى.. تمّت تفرغته من قطع الصابون. يتوسل لأمه بأن تدخل فيه معه. ترفض،
فيضحك أبوه.

حين ينتهي من اللعب، أخيراً، تنبعث منه روائح الصابون النفاذة.
يدغدغ ذقنه بأطراف المكانس، ويضحك من قلبه. تشاركه أمه الضحك، ويمتلئ المكان
بالسعادة، والروائح المتداخلة، والقهقهات.
كان والده يضحك أحياناً، لكنه - في معظم الأحيان - كان يكتفي بابتسامة هادئة وهو
يراقب ابنه.

من النادر أن يكون أبوه في مزاج سيئ. لم يكن ذلك يحدث إلا حين تتوافد على الدكان أعداد كبيرة من الزبائن، أو عندما تعرف الفئران طريقها إلى الأجوالة. في مثل تلك الأيام، كان يصرخ بنفاد صبر في وجهه:

- اخرج من هنا.. هيا! اخرج.

يضيف بمرارة:

- اذهب لتتعلم.. لعلك تصبح شخصاً له قيمة.. إلا إذا كنت ترغب في أن تواصل حياتك وأنت تزن الطحين والسكر.. وتحمّل مساومة ربّات البيوت على روبيات قليلة.. وتصبر على وقاحة الذين يظنون أنك تغشّهم عند البيع.. وإصرارهم على مراقبتك وأنت تزن لهم البضاعة.

لم يكن "رامتشان" يفهم شيئاً من هذه العبارات. كان يكتفي بابتسامة ينظر بها إلى أبيه.. أفضل رجل في العالم. بعدها، يهدأ والده، فيجلسه على ركبتيه ويطعمه بعض المكسرات المملحة ويقول:

- ستدخل المدرسة، وستتعلم هناك باللغة الإنجليزية.. ما رأيك؟ ستدرس بجدّ واجتهاد.

أليس كذلك يا عزيزي؟

يومئ الصغير برأسه موافقاً.. دون أن يعرف - أساساً - ما المدرسة ولا تلك اللغة المسماة بالإنجليزية.

كان يحبّ أن يرافق أمه عند زيارة معبد "شيفالايا" صباح كل إثنين، وهو يحمل زهور "الأفحوان" الصفراء، براونحتها الرقيقة، بين كفيّيه الصغيرتين.. ليقدمها للآلهة داخل المعبد.

قبل زواجها، كانت أمّ "رامتشانند" تصوم بانتظام كل يوم الإثنين، لإرضاء الإله "شيفا"، حتى يمنحها زوجًا طيبًا. وقد حصلت عليه بالفعل، رجل صادق، حريص على إسعادها.. لا يصيح ولا يغضب ولا يضر بها أبدًا.. على عكس الكثيرين ممن يؤذون زوجاتهم بدنيًا. وبحصولها عليه، مباركة الإله "شيفا"، كان عليها أن تستمر في صومها الأسبوعي.. حتى لا يغضب عليها، فينقلب حالها.

كان "رامتشانند" ينتظر زيارة المعبد بفارغ الصبر.. لأنها بالنسبة له زهرة مسلية، تصعبه فيها ألطف امرأة في الدنيا بأسرها.. أمه. كانت تتغاضى أحيانًا عن تأنيبه، إذا بدر منه سلوك سيئ، وهو ما لم يكن يجرؤ على فعله حين يكون مع أبيه. تغضب والدته بسرعة، لكنها - أيضًا - تهدأ بسرعة، وتستعيد طبيعتها اللطيفة، فتحمله بين ذراعيها وتحضنه وتقبله، وتناديه بـ"النجم الغالي"؛ وهي اللحظات التي يجيد استغلال مزاج أمه الحسن فيها. بمجرد دخوله المعبد، يشعر بإثارة شديدة.. جموع المصلين المحيطة به، بترانيمهم العذبة.. رنين الأجراس النحاسية.. الروائح المختلطة للزهور والبخور وخشب الصندل. كل ذلك يمنحه طاقة أكبر.. فيبدأ بالركض بطريقة دائرية سريعة، ولا يتوانى عن دفع أي شخص يمر أمامه. كانت أمه تحذره من التهادي في هذا السلوك، بعصبية واضحة سببها الجوع.. ويزيد عناده من إحساسها بالتوتر.

وعادةً.. لم يكن يلتفت لتحذيراتها المتوالية، وهو ما لم تكن تفهمه أبدًا، لأنه - بطبيعته - طفل هادئ ومطيع. لكن هذه الحالة لا تتنابه إلا أيام الإثنين، حين يجد نفسه وسط زحمة المعبد. بعد عدّة تهديدات توجهها له، تشعر برغبة حقيقية في البكاء. لماذا يصبح مجنونًا هكذا كل أسبوع؟ حينها تصفعه بضع

مرّات، فيهدأ على الفور. وفي كل مرة، يعدّها بأنّه سيلتزم الأدب في الزيارة القادمة. لكنّه كان يخلف وعده في الأسبوع الذي يليه، فيتلقى صفعات أخرى. استحال الأمر بأكمله إلى روتين يمارسه الطرفان.

فيما عدا عصبية يوم الإثنين، كانت الأسرة تعيش بهدوء تامّ، وتتمتع بقدر معقول من السعادة. حين بلغ "رامتشاند" السادسة والتحق بالمدرسة الإنجليزية التي كان أبوه يدخّر رسومها ومصروفاتها.. اختفت رائحة الخيش، وشذى الأزهار الصفراء، وتوقفت نزهة المعبد الأسبوعية. توفي والداه في حادث، وهما يستقلان حافلة في طريقهما لزيارة معبد مدينة "هاريدوار". انقلبت الحافلة الممتلئة بالركّاب، فجأة.

تمّ إيداع "رامتشاند" لدى جدّته في قريتهم القريبة من "أمريتسار". أوّل شعور انتابه عقب الحادث هو الدهشة البالغة. كيف تتهاوى الأمور بهذه السهولة، أخذة معها كلّ الروائح المألوفة إلى الأبد؟

لم يشعر بالرعب إلا بعد ذلك بفترة.

توقع الجميع أن يبكي الطفل، وأن يستيقظ من نومه مذعورًا.. منادياً أمه. أن يسأل عن سرّ اختفاء أبيه. أن يلجّ عليهم لإعادته إلى منزله ووالديه.. شعرت جدّته بالقلق عليه، وأعدّت له إجابات مقنعة لكل سؤال قد يطرحه، ولكل طلب قد يتمسك به.

لكنه لم يسأل أبدًا. أصبح دائم الصمت، شديد الهدوء. يرفض تمامًا أن يلمسه أحد من الكبار الموجودين حوله.

كان يبكي أحياناً. ليس بكاءً كذاك الذي يصدر عن الأطفال في سنّه.. وإنما تصبح عيناه غامّتين فجأة، وتبدأ دموعه الغزيرة في الانسكاب ببطء على خديّه. وإذا حاول أحد أن يحمله أو يمسح دموعه، كان يزوم في غضب، ويركله بقدميه الصغيرتين.

في نهاية الأمر، قاموا بإعادته إلى "أمريتسار"، ليتمكن من مواصلة دروسه. عُهد به إلى شخص يمتّ لهم بصلة قرابة، بعيدة بعض الشيء في الواقع. لم يكن قد رأى هذا الـ"عمّ" من قبل. يعمل الرجل كحرفي في محلّ مجوهرات. يقيم وأسرته في مسكن من غرفة واحدة، أيضاً؛ إلا أنهم يمتلكون بداخلها أشياء عديدة، أكثر بكثير مما كان لدى والدي "رامتشانند".

تحتوي الغرفة على تسريحة، تعلوها بعض أدوات التجميل، ودولاب خشبي لوضع الصحون والأكواب بداخلها، وآخر معدني للثياب، بها بعض الشمّاعات لتعليق الملابس.

لم يكن "رامتشانند" قد رأى شماعةً من قبل، فأبواه كانا يحتفظان بثيابهما مطوية داخل صندوق خشبي. بدا كل ما في هذه الحجرة غريباً وغير مأوف.

زوجة العمّ السمينة، ضيقة الصدر. تقضي أغلب وقتها مستلقية على السرير، وقد ربطت منديلاً مشدوداً بقوة حول رأسها، ليخفف من الصداع الدائم الذي تعاني منه. كان لها ولدان يصغران "رامتشانند". إذا اشتكت من آلام رأسها، وتمددت على فراشها.. فالويل لمن يقترّب منها، أو يصدر صوتاً، مهما كان خافتاً؛ فحينها.. تهبّ من مكانها وتهجم على الصغار الثلاثة لتضربهم. صفعة واحدة على وجه كل منهم. ثم تعود للسرير، وتتغطى بملاءة.

ولداها، المعتادان على تصرفاتها، كانا يضحكان بصوت مرتفع، مما يفاقم من غضبها. لكن "رامتشانند" الذي لم يعرف الضرب - عدا صفعات يوم

الإثنين - فكان يصاب بالذهول في كل مرة، ويشعر وقتها بحنين جارف إلى أبيه اللطيف وأمه المحبّة.

حين ينام ليلاً، يحلم بالساري الأحمر ذي الورود الصفراء، الذي كان يغطي ركن الاستحمام في مسكن أسرته.

تمّ إلحاقه بمدرسة جديدة. المدرسة نفسها التي يذهب إليها أبناء العمّ.

منزلٌ جديد.. مدرسة جديدة.. روائح جديدة..

"رامتشاند" لا يشمّ رائحة الخيش.. ولا الأزهار الصفراء..

"رامتشاند" بدأ يكبر.



كل صيف، يصطحب العم ولديه وزوجته لقضاء الإجازة في منزل أبيهما، بـ"دهلي" القديمة.

في هذا الوقت من كل عام، تُرسم خطوط واضحة، فاصلة.. بين من ينتمي للأسرة فعلاً، ومن هو دخيلاً عليها؛ إذ يقومون بإرساله لبيت جدّته، ليمضي العطلة هناك.

سنةً تلو أخرى، أمضى "رامتشاند" نهارات الصيف الطويلة بالجلوس على ضفة النهر. هناك عرف، لأول مرة، معنى العزلة والوحدة. في ساعات الظهيرة الحارة، الهادئة، تحت الأشجار.. التي كانت أوراقها الكثيفة تحجب أشعة الشمس، ولا تسمح بمرور إلا القليل من الأشعة الضعيفة.. ومع مياه النهر الباردة، المتدافعة، تتحول كل الأفكار إلى مادة سريّة تجمع بين اللونين الأزرق والأخضر.. شيء يصدر خشخشةً وحفيفاً.. ويتلاحق بداخله في أمواج صغيرة متوالية.

هنا.. تعرّف "رامتشانند" للمرة الأولى إلى الشخص الآخر الكامن بداخله.. "رامتشانند" الثاني.. ذو الظل الأزرق والأخضر، الذي إمّا أن يفكر في أشياء غير منطقية بالمرّة.. أو في أمور تقترب جدًّا من المنطق السليم.. بحيث تدفعه للهروب منها سريعًا، كما يفرّ المرء من أمام كلب مجنون.

"رامتشانند" الذي يراه الناس.. كان يضحك، ويتبادل أخبار الآخرين، ويحضر الصلوات، ويشترى قمصانًا جديدة من الـ"بوليستر" اللامع، ليلبسها في الأعياد ببهجة عظيمة.

لكن إحساسه بوجود الكائن الآخر، الأزرق والأخضر، قابعًا بداخله.. جعله يفقد صفات "رامتشانند" الظاهر للناس. شيئًا فشيئًا، أصبح أكثر صمّتًا وهدوءًا وانعزاليًا. لا يفعل شيئًا سوى الانتظار.. كما ينتظر الإنسان المصاب بورم سرطاني في المخ.. أو بثقب في القلب.

حين بلغ الخامسة عشرة، أعلن العمّ أن ولدًا مثله لا يحتاج للمزيد من التعليم. وقرر أنه من الأنسب أن يلتحق بمهنة ما. أخرج "رامتشانند" من المدرسة، وأرسله إلى "مهاجان"، الذي كان يعرفه عبر صديق مشترك.

ورغم أن "رامتشانند" كان يمقت المدرسة، فإنه كان في غاية الحزن في آخر يوم له فيها. حين دقّ الجرس معلنًا انتهاء اليوم الدراسي، وانطلق التلاميذ إلى بيوتهم وهم يثرثرون ويضحكون، بينما تهتزّ زمزميات الماء الصغيرة المعلقة على أكتافهم، كان "رامتشانند" يسير بتمهل وقد أثقل الأسى قلبه. ها هو يغادر الحياة التي ألفها لأعوام، كتلميذ يذهب للمدرسة يوميًا.

تذكّر أباه، بصورة مبهمّة، وهو يعبّئ السكر في أكياس، ويخاطب زوجته قائلاً إنه سيلحق صغيرهما بمدرسة إنجليزية. تذكّر الأوقات التي كان فيها والده يجلسه

على ركبتيه ويقول له: "عدني أنك ستكون شخصاً له قيمة. لا تكن بقلاً مثل أبيك".

بدأ "رامتشان" عمله في دكان "الساري"، وترك شهادة الصف الثامن بغلافها البلاستيكي الأخضر، داخل صندوق حاجاته.

بعد أربع سنوات، تُوفي العم بسكتة قلبية مفاجئة. كان في الورشة، يصنع عقداً من الذهب واللؤلؤ.. ثم سقط فجأة ومات.

بعد انقضاء أيام العزاء الرسمية بمدة طويلة، ومغادرة المعزين؛ وتحديداً.. بعد عشرين يوماً.. تحدّثت معه زوجة العم. بدا شكلها غريباً وغير مألوف، بعينها الحمراء، وساري الحداد الأبيض، وجبينها الخالي من علامة الـ"بيندي" الحمراء المستديرة، وذراعيها اللتين لا تزيئهما الأساور. بدت كشجرة عارية، تساقطت كل أوراقها.

طلبت منه، بطريقة مهذّبة، أن يرحل عن المسكن.. وأن يشقّ لنفسه طريقاً في الحياة، حتى لا يزيد من حجم المسؤوليات التي تراكمت عليها فجأة. أخرجته من حجرتهم بعد أن جمعت كل متعلقاته في صندوق معدني وودّعته بدعواتها الطيبة.

بمساعدة "مهاجان"، تمكّن "رامتشان" من استئجار هذه الغرفة الصغيرة.. بشباكها المتقابلين، وجدرانها المتقشرة ذات اللون الحائل، ورائحتها العفنة العتيقة.

بعد مرور عدّة أيام، بدأ "رامتشان" يدرك أموراً عديدة.

أدرك أن والده، في زمن ما، كان يمتلك دكان بقالة. صغير، صحيح، ولكنه متجر على أية حال. وأنه كان ينبغي أن يؤول إليه. لكنه صار الآن ملكاً لولدي العم.

أدرك أيضًا أن الحلية الذهبية التي تحمل شكل ورقة شجر، والتي تلبسها زوجة العم في أنفها، كانت - في الأصل - ملكًا لأمه.

أدرك أنه بعد وفاة جدته، قام العم ببيع منزلها. وأدرك أنه لم يُحرّم فقط من الحصول على المال الذي دفعه المشتري، وإنما حرّم أيضًا من دار يملكها في القرية.. ومن النهارات الهادئة على ضفة النهر. فهم "رامتشاند" الآن، بعد مرور الأعوام الطويلة، لماذا لم يرَ هذا العم قبل وفاة والديه. ولماذا لم يكن يزورهم، رغم أنهم جميعًا كانوا يعيشون في مدينة واحدة. حين أدرك كل ذلك.. كان الوقت قد فات. أو ربما لم يعد "رامتشاند" مهتمًا بالدفاع عن حقوقه.



تكاثرت السُحُب في سماء المدينة، وحبست أشعة الشمس خلفها. هبّت ريحٌ باردة، اشتاق معها الناس للشمس. بحلول الظهر، بدأت السماء تمطر مطرًا خفيفًا. الشتاء هذا العام في "أمريتسار" شديد البرودة. مع هطول المطر، ارتجفت الأبدان، وأحكم الناس لُفّ أوشحتهم الصوفية وشالاتهم حولها، ودسّوا أقدامهم في جواربهم الصوفية الثقيلة. ذلك اليوم، سار الناس في المدينة الباردة بمفاصل متيبسة، وشفاه متشققة، وأيدي متجمدة؛ يعاني أكثرهم من الزكام، وقد احمرّت أنوفهم ودمعت عيونهم. راحت الكلاب تبحث عن أيّ ركن دافئ، لم يبelle المطر، وهي تمشي بذلة ومسكنة.

اشتدَّ هبوب الريح وازدادت برودتها، فتطايرت قطرات المطر في كل اتجاه، كما لو كانت ترقص رقصة مجنونة في الهواء. راحت تجلد وجوه الناس وأجسامهم بوحشية، وتتخبط على البيوت والبنائيات.. بدلاً من أن تنزل على الأرض مباشرة، كما ينبغي على المطر المحترم! أما داخل الدكان، فالجميع يشعرون بكآبة هذا النهار الشتوي، الرماديّ اللون. الجميع، عدا "رامتشانند"، الذي لم يَرِ في المطر - طوال حياته - أمراً يبعث على الحزن أو الضيق، مهما كان قوياً ومزعجاً. لم يلقِ بالاً، أبداً، للبرد أو الرطوبة أو الطين أو البرك الصغيرة التي يخلفها؛ لأن المطر يملأ روحه بالبهجة والانتعاش، منذ أن كان طفلاً صغيراً.

لا يزال يمنحه البهجة ذاتها، حتى وإن كان يهطل ظهيرة يوم شتوي كثيب.

ظلّ "هاري" يئن ويتأوه ويتذمّر، حتى فاقم من شعور الجميع بالضيق والأسى:

- آه.. هذا البرد غير طبيعي.. قاسي جداً.. آه إنه يؤلم جسمي. كل جزء من مفاصلي

متيبّس.. ياه.. أشعر كما لو أنني شخّْتُ فجأة. لا أستطيع الحركة.

قال "جوكل" بحدّة:

- أنتَ يا "هاري".. اسمعني جيداً.. كل هذه الآلام التي صدّعت رؤوسنا بها منذ الصباح،

ليست نتيجة البرد. سببها الوحيد هو الكسل.. سببها عدم العمل.. سببها عدم تحريكك

لمفاصلك بتاتاً، إلا حين يجبرك أحد على القيام بعمل ما. هيّا.. قم وتحرك ورتّب هذه

المجموعة الجديدة من أقمشة "الساتان".. بدلاً من هذا الأئين المزعج.

أجابه هاري "برود وهو يتمطى في كسل:

- ما هذا؟ لماذا يضطهدني الجميع في هذا المكان؟ ألم تلحظ أنني عملت طوال العام

المنصرم بنشاط غير مسبوق؟

قال "جوكل" بغيظ:

- هناك الكثير من الأعمال التي ينبغي إنجازها اليوم يا "هاري"، لذلك أرجوك.. انس

مفاصلك وعظامك وأوجاعك.. وقم من مكانك حالاً لترتب تلك الأقمشة الجديدة.

تنهد "هاري" وقام واقفاً مسكناً، كأنه يضحى بنفسه من أجلهم جميعاً. تابعه "جوكل"

بوجه مكفهر.

غاص "تشاندر" في صمت كئيب، لا ينطق إلا حين يسأله أحدهم عن شيء؛ فيما جلس

"شيام" بعيداً عن الآخرين، مستغرقاً في تفكير عميق.

كان "راجيش" يتبادل الحديث مع "مهاجان" في أحد الأركان. كانا يتبادلان نظرات

نارية غاضبة، ومن الواضح أنهما، ولمرة واحدة نادرة، فشلا في الاتفاق على وجهة نظر

متماثلة.

"رامتشانند" هو الوحيد الذي لم يكن متكرر المزاج.

مدّ بصره إلى خارج النافذة. ورّع نظراته الحاملة على الدنيا المبلّلة. بدت كل الأشياء في غير

صورتها الحقيقية، عبر حبات المطر المتطايرة. بدت أجمل بكثير مما هي عليه حقيقةً.

أخذ يرتب البضاعة الجديدة، وهو يدندن بخفة.

علقت بضع قطرات من المطر على النافذة. تشبّنت بالزجاج، وارتعشت قليلاً. كانت تلمع كما اللؤلؤ. ابتسم وهو يراقبها.

انهمكت أصابعه في طيّ "السواري" وإعادة ترتيبها، وحرص على أن يتأكد من أنها جميعاً مسعرة.

ظّل يدندن الأغنية نفسها مرة تلو الأخرى، بمنتهى السعادة. توقف فجأة حين رأى "بيمنسن ستّ" يتهادى باتجاه "مهاجان". فكّر بمرارة أنه لا يمكنك أبداً أن تستمتع في هذا الدكان، حتى لو كان ذلك عن طريق الغناء بصوت خافت.

صار من النادر أن يصعد "بيمنسن ستّ" إلى الطابق العلوي، بسبب بدائته المتزايدة التي لم تعد تسمح له بارتقاء السلم الخشبي الضعيف.

انتبه الجميع على الفور. رفع "تشاندر" رأسه، وتوقف "رامتشانند" عن الدندنة.. رغم أنها ظلّت دائرة في رأسه. انهمك "هاري" في توزيع الأقمشة "الساتان" الوردية، حسب درجة لون كل منها. حاول "جوكل" أن يزيل الكفهرار عن وجهه، وأن يبدو أكثر سعادة، وانشغالاً بالعمل.

وسط لهائه المتتابع، قال "بيمنسن":

- "مهاجان"! خبرٌ مهمّ.. ابنة "رافيندر كابور" ستتزوج قريباً.

ومضت عينا "مهاجان" عند سماعه للنبأ. فرك كفيه بحماس وسأل بحماس:

- متى بالضبط؟

طقق "رامتشانند" أحد أصابعه، دون انتباه، وهو يتابع حديثهما.

التفت "مهاجان" تجاهه، ورمقه بنظرة غاضبة. احمرَّ وجه "رامتشانده"، وسارع بمواصلة عمله.

التفت "مهاجان" ثانيةً، باتجاه "بيمسن ست" هذه المرّة، وقد عادت ابتسامته لمكانها. أجابه:

- في يناير، وسيتمّ تحديد التاريخ خلال يومين.

أوماً "مهاجان" وهو يزمّ شفّتيه في تركيز. قال "بيمسن":

- بطبيعة الحال، لن يأتوا للدكان. مقامهم أكبر من هذا بكثير. لذلك أريدك أن ترسل لهم أفضل ما لدينا من الأقمشة بكل أنواعها.

توقّف عن الكلام لبرهة، وقد ظهر القلق على وجهه.

نظر إليه "رامتشانده" بطرف عينه، بشيء من الدهشة، فمن النادر أن يبدو "بيمسن" قلقاً ومتوتراً. واصل "بيمسن" حديثه:

- أرسل لهم "السواري" كل يوم. كل ما يأمرّون به. أيّ شيء يريدونه. جميع أنواع الأقمشة والمنسوجات. نريد أن نسعدهم ونشعرهم بالراحة، وبخاصّة سيدات العائلة. لديهم أيضاً بنتٌ ثانية، أصغر من العروس، كما تدري. سنة أو اثنتين وتزوج هي الأخرى. وأنت تعلم الكميات الهائلة التي تشتريها هذه الأسرة.

قاطعته "مهاجان" بهدوء:

- اطمئن يا سيّدي. سأهتمّ بنفسك بجميع التفاصيل.

سارا معًا في اتجاه إحدى الزوايا الهادئة للدكان، واستغرقت في نقاش عميق بصوت منخفض. وسرعان ما غادرا الطابق العلوي وقد ظهرت عليهما الجدّية وانشغال البال. بعد قليل، أبلغهم "هاري" أنهما ليسا في الطابق السفلي.. وأنهما - كما يبدو - قد غادرا المتجر.

شعر الجميع بالارتياح، وخصوصًا "جوكل"، الذي همس لـ"رامتشاندا":
- لقد نسيت إحضار غدائي اليوم. وليس معي نقود كافية لأتناول الطعام في السوق. وكنت أتمنى، منذ الصباح، أن يغيب "مهاجان" عن المكان لبعض الوقت.. لأذهب للمنزل لأكل هناك وأعود سريعًا.

غادر مسرعًا، معلنًا أنه سيعود خلال نصف ساعة.
مرّت ساعة كاملة ولم يظهر "جوكل". من الغريب أن يصدر هذا التصرف عنه هو، على وجه الخصوص، بما عرف عنه من جدّية والتزام تامّ بمواعيد العمل وقواعده.

بعد انقضاء ساعتين آخرين، دخل الدكان وهو يعرج. سأله "هاري" على الفور:
- ما الذي حدث؟ لم تأخرت هكذا؟ هل تشاجرت مع أحد في الشارع؟
أجابه بانزعاج بالغ:

- لا تكن سخيًّا يا "هاري". لم أتشاجر بالطبع. وأرجوك.. اخرس! لسْتُ في مزاج يسمح لي بتقبّل ثرثرتك وتفاهاتك.

تأوّه بألم وهو يحاول الجلوس.

تساءل "رامتشانند" في سرّه إن كانت "لاكشمي" قد جئت تمامًا وانهاالت على زوجها

بالضرب، لكنه قال بصوت مرتفع:

- أخبرنا ما الذي حدث بالضبط.

أجاب "جوكل":

- عربة خضراوات اصطدمت بدراجتي، في طريق عودتي للدكان.

قال "هاري" ضاحكًا:

- أو ربّما.. دراجتك هي التي اصطدمت بعربة الخضار! هاهاها.

حين رأى النظرات الغاضبة من "جوكل"، قال على الفور:

- أعني.. من وجهة نظر بائع الخضراوات.. ربّما.

تأوه "جوكل" وقال متأملاً:

- قدمي.

رفع ساقى بنطلونه ليريهم قدمه اليمنى المتورمة.

ظهر الاهتمام على وجه "هاري"، وقال:

- لا بأس. لا تتحرك. اجلس في مكانك، وسوف نقوم بالعمل كلّ اليوم.

ثم أضاف، يغمره شعور بكرم عظيم:

- ليس اليوم فقط، وإنما طوال المدّة التي تحتاج إليها قدمك لتشفى.

قال "جوكل" ساخراً:

- فعلاً؟! أشكرك يا سيدي ووليّ نعمتي. كم أنا محظوظ برّب عمل مثل سيادتك.. يعاملني بهذا الكرم والأريحية.

غمغم "هاري" بغیظ ودهشة:

- ما هذا؟ ألا يقدر أحد روح التعاون هذه الأيام!

فُتح الباب الزجاجي، وظهر "مهاجان" فجأة، دون تنبيه؛ كعادته دوماً.

لطالما ردّد "هاري" بأن هناك لغز في الكيفية التي يطأ بها "مهاجان" درجات السلم الخشبي، دون أن يصدر عنها أدنى صوت.

قال فور دخوله:

- "جوكل" .. دع أي عمل تقوم به الآن، لديّ ما أكلفك به. ستذهب إلى منزل "رافيندر كابور" وستأخذ..

توقف عن الكلام، حين انتبه لوجه "جوكل" المتألم، وقدمه المنتفخة.

- ماذا حدث في غيابي؟

أجاب "جوكل" بحرج شديد:

- لا شيء يا سيّدي. أصيبت قدمي فقط.

سأله "مهاجان" بريية:

- كيف؟

أطرق "جوكل" ولم يجب.

قال "مهاجان":

- ما الأمر؟ ألا تستطيع الإجابة عن سؤال بسيط؟

في لحظة صدق، اعترف "جوكل" بجريمته. استمع له "مهاجان"، ثم ألقى عليه محاضرة

عن تحمّل المسؤولية، وأخيراً سأله:

- هل أفهم إذًا أنك غير قادر على قيادة الدراجة بقدمك المتورمة هذه؟

ظلّ "جوكل" صامتًا.

قال "مهاجان" بغضب:

- ومن منكم إذًا يمكنني إرساله لبيت "رافيندر كابور" غدًا؟

نظر متشككًا إلى "رامتشاندا" أولاً، ثم إلى "تشاندر". قال "هاري" بحماس:

- سيّدي.. يمكنني أنا أن أذهب.

كانت أعصاب "مهاجان" متوترة. صبّ غضبه على "هاري":

- نعم.. نعم.. أستطيع أن أرى ذلك. أنت شخص محبّ للعمل، وتحمل المسؤولية، لذلك

سأضع بين يديك "سواري" تتجاوز قيمتها مئات الآلاف من الروبيات، وأنا في غاية الاطمئنان.

يمكنك أن تذهب يا عزيزي، وتكسر دراجة هذا المسكين، وتكسر معها رقبتك! وستتوقف في

الأغلب لدى أيّ بائع مثلجات.. وتشتري منه آيس كريم الفستق كالأطفال الصغار، وتتناوله في

شروود، بينما تلوك أيّ بقرة في الشارع بضاعتنا الثمينة.

قال "هاري" بدهشة عظيمة:

- ولكنني لا أكل الآيس كريم شتاءً، يا سيدي. كما أنني أعتقد أن الأبقار لا تأكل الأقمشة..

لا صيفاً ولا شتاءً. أظن أن الماعز فقط هي التي تفعل ذلك.

احمرّ وجه "مهاجان" بشدة، من فرط الغيظ. فقال "هاري" بأدب وهو يسارع

بالانسحاب من أمامه:

- سأذهب لأحضر لك الشاي بنفسي يا سيدي.

نظر "مهاجان" لظهر "هاري" وهو يبتعد، بغضب بالغ، وقال بشيء من الأسى:

- وظيفتي متعبة.

التفت إلى "رامتشاند"، الذي كان يشعر بالخجل ممّا تفوّه به "هاري"، وخاطبه قائلاً:

- ستستعير في الغد دراجة "جوكل"، وستحمل لعائلة "كابور" مجموعة من أفضل بضاعتنا.

أحسّ "رامتشاند" بالصدمة. هو من سيقوم بتلك المهمة؟! يا لها من مسؤولية ضخمة! يا

لها من أقمشة ثمينة!

كان يعرف أن "رافيندر كابور" هو أكبر رجل صناعة في "أمريتسار" بأسرها. يسمع أنه

يعيش في منزل ضخم، بالغ الفخامة، فرشت حجراته بأنواع السجاد، وزوّدت جميعها

بمكيفات هواء؛ وتصطف أمامه أربع سيارات.

والآن، سيذهب هو، وليس شخص آخر، إلى هناك. أحسّ بمعدته وهي تتقلب من القلق.

واصل "مهاجان" كلامه، مخاطباً "جوكل" هذه المرة:

- ستتولى أنت اختيار "السواري" والأقمشة. قم بانتقاء الأفضل والأجمل. لا تنس أن تضع لهم أحدث ما وصلنا من الحرير الطبيعي بكل أشكاله. وتذكر أيضاً أن ترسل لهم الأقمشة المطرزة بخيوط فضية. وبالطبع، ستعرض عليّ ذلك كله قبل أن يغادر "رامتشان" إلى بيتهم صباح الغد.

لم يسمع "رامتشان" شيئاً من ذلك. كان ذهنه مشغولاً بالتفكير في أمور أخرى..

مهمة كهذه ستستغرق أياماً عديدة. يعرف جيداً كيف تسير مثل هذه الأمور. سيحمل تشكيلة من "السواري" في صرة كبيرة لمنزل أسرة "كابور". ستمرّ ساعات طويلة، تختار خلالها العروس وسيدات العائلة عدداً قليلاً من "السواري"، ويطلبن منه إحضار مجموعة أخرى مختلفة. ستكون العروس في مزاج سيئ، وتلقي بغضبها في وجوه الجميع. ثم سيغيرن رأيهن بشأن "ساري" أو اثنتين، فيتصلن بـ"مهاجان" لإخباره. بعدها، سيعود لمنزلهن بتشكيلات جديدة، ليخترن من بينها بديلاً.. وهكذا...

سنوات من الأسر في هذا الدكان.. أسبوع وراء أسبوع.. وشهر بعد شهر؛ فيما عدا أيام الآحاد، وتلك الأيام الثلاثة في العام الماضي، حين أصيب بالتواء في الكاحل. ها قد سنحت له الفرصة ليخرج في الهواء الطلق، ويركب دراجة تحت أشعة الشمس، وربما استطاع أن يتسلل لبعض الوقت ليشتري لنفسه بعض الكتب القديمة.. ربما أيضاً تمكن من الذهاب لمحلّ عصائر "آناند".. ليشرّب عصير البرتقال الأخضر الحلو.

قطع "مهاجان" خيالاته، إذ قال:

- وأنت يا "رامتشانند" .. تأكد من أن يكون مظهرك أنيقًا ومرتبًا وأنت ذاهب إليهم. إنهم أرقى زبائننا. لا نريدهم أن يظنوا أن العاملين في متجرنا يلبسون ثيابًا رثة وهلهيل. عليك أن ترتدي ملابس محترمة، وأن تستحم بعناية فائقة.

على الفور، ضمَّ "رامتشانند" أصابع قدميه إلى بعضها، حتى لا يشمَّ "مهاجان" - بفتحتي أنفه المتسعيتين - الرائحة المنبعثة منها.

هل كان "مهاجان" يشير بطريقة ملتوية إلى قميصه ذي الياقة المهترئة، وبنطلونه القديم؟ حسنًا! سرّيه. لقد اكتفى من ذلك الأسلوب. من يظن "مهاجان" نفسه؟ سيلبس ثيابًا جديدة، وسيستمتع بوقته أيضًا.

ظلَّ "رامتشانند" شارد البال بقية ساعات اليوم، وتعرّض لمشكلة مع "مهاجان" حين لم يستطع أن يتذكّر المكان الذي وضع فيه "ساري" أصفر اللون، طلبته إحدى الزبونات بشكل محدد. ثم سكب بعض الماء على إحدى الملاءات البيضاء التي تغطي الأرض.

أهانته "مهاجان" قائلاً أنه لا يختلف عن "هاري" في شيء. ابتسم الأخير لهذا التعليق، فيما أحسَّ "رامتشانند" بأنه محي كل البهجة التي أنعشها المطر في روحه. تمنى لو لم يأت للعمل اليوم، ولو أنه أمضى نهاره جالسًا بمحاذاة شبّاك حجرته، يرتشف الشاي، ويراقب المطر الرقيق وهو يداعب شجرة الجوافة المزروعة في حوش البيت.

مساءً، تظاهر بأنه يعاني من صداع شديد، وغادر الدكان مبكراً. ذهب إلى محل ملابس قريب، واشترى بنطلوناً أسوداً، وقميصاً أبيضاً.. ناصح البياض.
أحس بأنه مسرف، وأنه متهور وطائش. لكنه عاد فذكر نفسه بأنه لم يشتري ثياباً جديدة منذ أكثر من عامين. "هلاهيل"؟! صحيح! فليات "مهاجان" ويراہ الآن!
ثم اشترى صابونة "لايف بوي"، وزوج جديد من الجوارب. وأخيراً، توقف أمام عربة خضراوات، وطلب من البائع أن يشتري ليمونة.

سأله البائع بدهشة:

- واحدة؟! فقط؟

أجاب بحزم:

- نعم. ليمونة واحدة فقط.

ناولته إيّاها البائع، وهو ينظر إليه بازدراء. وضعها "رامتشانند" في جيبه بحرص، ونقد البائع ثمنها.

تحرص زوجة صاحب البيت على قراءة مجلتيّ "سارتيا" و"جريها شوبها" بانتظام. في بعض الأحيان، يطلب "رامتشانند" من ابنها الأكبر "مانوج" أن يستأذنها في إعارته بعض الأعداد القديمة. يتذكر أنه قرأ مرة في إحداهما بأن فرك الجلد بالليمون كفيل بإزالة أيّ روائح عالقة في الجسم. قرر الآن أن يجرب هذه النصيحة.

حمل الأغراض التي ابتاعها في كيس ورقي كبير، تحت إبطه. توجه إلى الحلاق وطلب منه أن يهدّب خصلات شعره. امتعض الرجل وتأفف، وأعلن أنه

كان على وشك إغلاق محله. توسل له "رامتشانند" طويلاً، حتى قبل وقص له شعره بطريقة مرتبة.

بعد ذلك، عاد إلى مسكنه. دخل إلى فراشه لينام، وهو يشعر بالحماس والإثارة لأحداث الغد. كان العام يوشك على الانتهاء، ولم يتبق منه الكثير منذ أن بدأ شهر ديسمبر؛ إلا أنه كان يشعر بأن الغد هو أول أيام السنة الجديدة، لأنه سيشهد تغييراً في حياته الروتينية المعتادة. آخر ما أحس به قبل أن يستسلم للنوم، قدر من الإثارة داخل قلبه، وإحساس بالوخز في قفاه لأنه لم يستحم عقب عودته من الحلاق، وقد علقت بعض الشعيرات القصيرة الحادة على جلده.

استيقظ صباحاً، وغادر سريره مترنحاً.. ثم تذكّر أنه اليوم الموعود.. لن يمضي نهاره داخل الدكان. سيتأق، ويطوف المدينة راكباً دراجة، وسيذهب إلى بيت "كابور". شعر بأنه مقبل على مغامرة مثيرة خلال الساعات المقبلة.

تمطى وسار باتجاه الطاولة. أمسك بالليمونة وقطعها إلى نصفين، وبدأ في فرك قدميه بهمة. عليه أن يتأكد من عدم انبعاث أي روائح منهما.. اليوم بالذات على الأقل. علقت بذرة صغيرة بين الإصبع الكبيرة والذي يليه.

دلف إلى الحمام الصغير، وحين خرج كان حماسه قد تزايد. راح يتحرك بسرعة.. أمسك بهذا الشيء، ويلتقط ذاك، ويسقط غيره. ولم تختفِ ابتسامته خلال ذلك كله.

كل العاملين في الدكان يأخذون إجازة أحياناً. "رامتشانند" هو الاستثناء الوحيد. لم يكن "مهاجان" يمنح أيّاً منهم إجازة - مهما قصرت مدتها - بسهولة. لكنه كان يضطر لذلك في بعض الأوقات، إذ أن لكل واحد منهم التزامات معينة تجبره على ذلك.

أماكن يذهبون إليها.. مناسبات يحضرونها.. أقارب يموتون.. ناس يتزوجون.. زوجات يجب مرافقتهن حين يسافرن لزيارة أهاليهن في مدن أخرى.. أبناء يمرضون..

أما هو، فلم يكن لديه أسرة أو أقارب، أو مكان يسافر إليه. ولذلك لم يكن بمقدوره أن يطالب بإجازة، كما يفعل الباقون. إنه حتى لم يصب بمرض يستلزم بقاءه في الفراش، مثلاً مرة واحدة فقط، حين التوى كاحله العام الماضي. أرسله "مهاجان" إلى البيت، بعد أن تفحص ساقه وقدمه بدقة، ثم قال: "ستكون بحالة ممتازة بعد ثلاثة أيام، لا أكثر. عد بعد انقضاء الأيام الثلاثة". وهو ما فعله بالضبط. كما أنه لم يكن يستطيع أن يمارس، لأن "مهاجان" يعرف عنوان مسكن كل واحد فيهم، ومن عاداته الخبيثة أن يرسل أحدهم لبيت المتغيب ليتأكد من أنه مريض فعلاً!

ولطالما فكر "رامتشاند" بأسى بأنه حتى لو نجح في التغيب عن العمل.. فما الذي سيفعله؟ وأين سيذهب؟ ولهذا السبب، واطب على الذهاب لعمله كل صباح.. إلا أن اليوم سيكون مختلفاً تماماً. انتابته رغبة ملحة في الرقص. لم يعد يستطيع السيطرة على انفعالاته أكثر من ذلك، فبدأ بدنونة خافتة لإحدى الأغنيات الشهيرة، ثم انطلق صوته في وضوح، وسرعان ما صار مجلجلاً.. وراح يغني بأعلى صوته. أخذ يرقص بسعادة، مرتدياً "فانلته" البيضاء القديمة وسروالاً عتيقاً، دون أن يشعر بالبرد. صاح صاحب البيت من الطابق السفلي: "رامتشاند! اسكت!".

تظاهر بأنه لم يسمعه، واستمر في الغناء بصوت يقترب من الصراخ: "يا قلبي.. يا قلبيبيبيبيبي!!".

صاح الرجل مرة أخرى: "رامتشاند!..".

واصل "رامتشاند" غناؤه وهو يهرول بحماس، ثم قفز فوق الكرسي ذي القوائم القصيرة، ونزل على الأرض محدثاً صوتاً قوياً مكتوماً.. ولولت



قال "جوكل" وهو يضيف آخر قطعة "ساري" إلى المجموعة الضخمة:

- ها. لقد انتهيت. توخّ الحذر. أثمانهم باهظة، كما تعرف.

أضاف مذكراً:

- كن بالغ التهذيب وأنت هناك.

أوماً "رامتشانند" بطاعة.

اقترب منه "هاري"، وأحاطه بذراعه بودّ شديد:

- يا سلام! تبدو اليوم كنجوم السينما بالضبط!

احمّر وجه "رامتشانند" لهذا الإطراء. حمل مجموعة الأقمشة على كتفه،

وهبط السُّلم إلى حيث وضع "جوكل" دراجته. وضع الصرة الكبيرة أمامه،

وربطها بحبل على المقدّمة. ألقى بإحدى ساقيه حول الدراجة، وجلس على

مقعدها الصغير، ثم وضع ساقه الأخرى، وانطلق بحماس وهو يشعر بأن

الحرية تنبعث من كل مسام جلده النظيف.

تساقطت عليه أشعة الشمس الحانية، تمدّه بدفء محبّب. شقّ طريقه بين الأعداد الضخمة من الدراجات والمشاة وعربات الخضراوات. توجه إلى خارج المدينة القديمة. على أطراف السوق الكبير، توقف بجوار "أناند للعصائر". ظل بجوار الدراجة، دون أن يدخل المحل، إلى أن خرج إليه أحد الصبية العاملين هناك ليسأله عمّا يريد أن يشرب. طلب منه كأساً من عصير البرتقال الحلو. ظلّ يحيط "السواري" بذراعه في حرص. أحضر له الولد العصير. انساب الشراب البرتقالي داخل فمه بنعومة. أطاح برأسه للوراء، وهو يعبّ القطرات الأخيرة. طارت حماماتٌ رمادية فوق رأسه. قطرة وحيدة علقت بطرف شفثيه. لمعت مع انعكاس أشعة الشمس عليها. مسحها "رامتشاند"، ثم دفع ثمن العصير، وانطلق بالدراجة ثانية، وهو يشعر بالحرية والسعادة، كما لم يعرفهما منذ سنوات.

بعد نصف ساعة، وصل إلى "جرين آفينيو"، حيث يعيش "رافيندر كابور". كان "جوكل" قد وصف له كيفية الوصول إلى هناك، وزوّده بورقة دوّن عليها شرح مفصّل للطريق. تبع الخطوات المكتوبة. انعطف يساراً، حين لمح التلفون العمومي. وجد نفسه في شارع فسيح تظلّله أشجار كثيفة الأوراق والأغصان، وتحيط بجانبه أرصفة منتظمة. على يمينه، امتدّ صفّ من البيوت الكبيرة المحاطة بأسوار عالية؛ أمّا على يساره، فالمساحة الشاسعة بأكملها عبارة عن حديقة عامّة لسكان الحيّ.. مكان فسيح لم يعرف "رامتشاند" أبداً أنه موجود في "أمريتسار".

قال لنفسه، وهو يرتجف قليلاً: "ثالث منزل في الجهة اليمنى..".

تخطى أول بيتين، ووقف أمام السور الخارجي للثالث.

البوابة الحديدية العالية في واجهة البيت، لها فتحات ونقوش معقّدة

ومتداخلة، تتناثر على سطحها أشكال كروية من النحاس، وينتهي طرفها العلوي بقطع حادة من المعدن المدبَّب.

تتوسط الواجهة لوحة من الجرانيت، حُفرت عليها كلمتان. تأمَّل "رامتشاند" الحروف وحاول قراءتها. لسعادته، اكتشف أنه يستطيع ذلك. الكلمتان هما: "منزل كابور".

شيء ما في اللوحة يوحي بالعظمة.

عبر فتحات البوابة، شاهد "رامتشاند" ممرًا تحفُّه قصاري نباتات، من الجانبين. وسائق يمسح سيارة زرقاء طويلة، بفوطة نظيفة. ورأى أيضًا حديقة منسقة، وبستاني ينحني متمعَّنًا في بعض الأزهار المزروعة في طرف منها.

ضرب "رامتشاند" الجرس، وهو يشعر بتوتر شديد. جاء السائق ليفتح البوابة. كان رجلًا ضخم البنيان، ويشمَّر كمَّيه الصوفيين عن ساعدين قوين. سأله بارتياح:

- نعم؟

- لقد.. لقد.. أحضرتها معي..

- ما الذي أحضرتَه؟

- الأقمشة و"السواري"..

- أيُّ أقمشة؟

- لعرس الآنسة. من "سيفاك". أعني.. دكَّان "سيفاك بيت الساري".

- آه.. فهمت.

قيمه بنظرة طويلة متمعنة، ثم تنحى جانبًا، مفسحًا له الطريق، وقال:

- ادخل.

سار "رامتشانند" في الحديقة الفسيحة، وهو يجرّ الدراجة بجواره.

زَيْن باب البيت بكلمة "أوم"⁽³⁾ كبيرة، من الخشب المحفور.

وقف منتظرًا، وهو يقطع أصابعه الواحد يلو الآخر. من مكانه، شاهد سيارة حمراء تقف خلف السيارة الزرقاء الطويلة، ورأى باب الجراج المغلق. ربما هناك سيارة أخرى لا يستطيع رؤيتها من هنا. للجراج بوابة متسعة، تسمح بخروج ودخول السيارات بحرية، دون الاضطرار لتحريك الزرقاء الطويلة من مكانها.

بعد دقيقة أو اثنتين، فتحت له خادمة تلبس "ساري" من اللون البنفسجي الفاتح، وقادته إلى غرفة كبيرة تمتد على أطرافها أرائك فخمة، تتوسطها منضدة مغطاة بالزجاج. الأرضية بأكملها مغطاة بسجادة سميكة زرقاء. زينت الجدران بلوحات فنية ومشغولات نحاسية. وضع "رامتشانند" الصرة الكبيرة بجانبه على الأرض، وجلس متوترًا على طرف إحدى الأرائك اللينة.. كسمكة تمّ إخراجها من الماء.

الهدوء يعم المكان. ليس هناك أي صوت، عدا تكتكة ساعة الحائط بالغة الجمال. ظلّ منتظرًا لربع ساعة تقريبًا، ثم دخل صبي صغير حاملًا صينية يتوسطها كأس من الكولا المثلّجة.

(3) أوم: لفظ مقدّس تبدأ وتنتهي به أغلب النصوص الدينية في الهندوسية؛ وكذلك في البوذية المنتمية لمنطقة التبت.

كان وجه الولد محمرًا من الخجل والارتباك. أحسّ "رامتشاند" بالشعور ذاته. تناول الكأس ببساطة متعمدة، حتى يُشعر الولد بأنه معتاد على الجلوس في حجرات فخمة كهذه، وتناول كؤوس المشروبات المثلجة الغالية، التي يقدمها إليه الخدم. حين همّ برفع الكأس، لاحظ أن الصينية مصنوعة من زجاج خشن الملمس، حفر عليه رسمٌ يمثل طواويس. تذكّر على الفور "الساري" الذي ابتاعته مسز "جوبتا" مؤخرًا. للحظات، انشغل بالنظر إلى تفاصيل الرسمة.

وقف الصبي مترددًا، متلملماً. سأله "رامتشاند" فجأة:

- هل أنت جديدٌ هنا؟

حملق فيه الصبي بصمت.

كّر "رامتشاند" السؤال بالهندية، بدلًا من البنجابية التي استخدمها المرة الأولى.

أجاب الصبي بإيماءة من رأسه، فسأله:

- من "هيماشال"؟

ومضت عينا الصغير، وقال بحماس:

- نعم.. من قرية "لاكاندي". بالقرب من "سيملا". هل أنت أيضًا من هناك؟

لاحظ "رامتشاند" أن للولد صوتًا جميلًا وعذبًا.

هزّ رأسه نافيًا.

خبا وجه الصبي. نظر إليه لبرهة، ثم غادر الحجرة فجأة.

انتظر "رامتشانند" لربع ساعة أخرى. أخيراً، دخلت امرأة متوسطة العمر، مرتدية ثوباً قصيراً وسروالاً من الحرير الأزرق، وقد أحاطت كتفيها بشال من الصوف الفاخر. تلمع المجوهرات الثمينة، من ذهب وماس، على يديها وأذنيها.

وقف، وضَمَّ كَفِيه إلى بعضهما، وحيَّاهما باحترام وتهذيب:

- سيّدتي.. ناماستيه.

صرخت فجأة:

- "ريناااااااه!"

انتفض مذهولاً.

صاحت ثانية:

- بائع "السواري" هنا.

حين تفتح فمها لتصرخ، تستطيع أن تلمح حنجرتها، وأن ترى أسنانها الكبيرة المنتظمة.

ردّت تحيته أخيراً:

- "ناماستيه".

جلست على الأريكة المقابلة.

دخلت فتاة شابة ذات شعر تلتفّ خصلاته في تجعيدات مرتّبة. غاص كعبا

حذاءيها العاليان في وبر السجادة الوثيرة. كانت تلبس بنطلون جينز، وسترة

صوفية سوداء، يظهر من تحتها قميص ناعم مطبوع بورود زرقاء وبنفسجية. وتزيّن معصمها بأساور من الفضة.

- نعم ماما؟

- اجلسي. لنلقِ نظرة على هذه "السواري".

نظر "رامتشانند" إليهما. هاتان المرأتان هما زوجة "رافيندر كابور" وابنته إدا.. سمع مرّة أن الزوجة اشترت شالات صوفية بما يقترّب من المئة ألف روبية، في زيارة واحدة. تمعن فيها بفضول.

قالت بحدّة، وبصوت قاسٍ:

- ماذا تنتظر؟ هيّا.. ابدأ في عرض ما لديك.

قالت الابنة بصوت عميق، متمهل:

- ماما.. فليوجد معنا أحد الخدم.

فغرت المرأة فمها باتساع، حتى ظهرت حوافه الداخلية الحمراء، وصاحت بقوة:

- "راجووووو!"

فُتح الباب على الفور، ودخل منه بهدوء شاب طويل. وقف باحترام بالغ، يتابع ما يجري.

من مكانه على الأريكة، انحنى "رامتشانند" ليحلّل الأطراف المعقودة للصرة الرابضة عند قدميه. لم يكن الوضع مريحًا. أخذ يحاول فكّ العقّد المحكّمة بأطراف أصابعه، دون جدوى. بعد لحظات، استأذن بأدب، وسار إلى طرف

السجادة، حيث خلع حذاءه، ثم عاد لمكانه. رفع قليلاً ساقَي البنطلون الجديد، ثم ترَبَّع على الأرض الوثيرة، شابكاً ساقيه ببعضهما، وبدأ يشعر - أخيراً - أنه يمارس طقساً مألوفاً. نظرت "رينا" إلى أمها، وهي تحاول ألا تفلت ضحكتها المكتومة. لكنه لم يبالِ بردَ فعلها. فتح الأطراف المعقودة، بسرعة، وبدأ في إخراج "السواري" بثقة، واحداً وراء الآخر. لكنَّ ما أعقب ذلك، كان شيئاً لم يره أبداً طوال حياته العملية.

كان قد مضى عليه أحد عشر عاماً في الدكان. راقب خلالها أعداداً هائلة - لا يمكن حصرها - من السيدات، وهن يخترن أقمشة جديدة. كل النساء في نظره كائنات غريبة.. بعيدة كل البعد عن عالمه، إلا أن جانباً واحداً فيها جميعاً مألوفاً لديه، ويعرفه تمام المعرفة: الطريقة التي ينتقن بها "السواري".

مَرور الوقت، تعلَّم كيف يقرأ التعبيرات المرتسمة على وجوههن، وكيف يفهم أمزجتهن بدقة. بل إن بإمكانه أن يخمَّن - على نحو صائب تماماً - ما إذا كنَّ سيشتري "ساري" معيَّناً، أم لا. إنه يعرف متى يَكُنَّ مترددات في الاختيار بين أكثر من قطعة، وكيف يمكن دفعهن للاستقرار على رأيه. باستطاعته أن يفهم، منذ أول لحظة لدخول الزبونة، إن كانت ترغب حقيقةً في الشراء.. أو إن كانت تودُّ فقط مشاهدة الجديد من المعروضات، عبر إبداء الاهتمام المصطنع.

يدرك جيداً النظرة التي تطلُّ من عيني العرائس الشابَّات حين يحضرن للدكان بصحبة أمهاتهن وخالاتهن وشقيقاتهن. يميز وجوههن المتألقة وأعينهن اللامعة والتشوق الصامت الخجول. كانت كل عروس منهن، تلقي

بطرف "الساري" على كتفها، وتتنظر لنفسها في المرآة بتمعن. تبدأ النسوة المصاحبات لها في تأكيد جمال "الساري"، ومدى ملاءمته لها. لكن كل عروس تنظر لنفسها عبر عيني الخطيب وزوج المستقبل فقط.. تنفرج شفاههن بابتسامات حاملة.. وفي كل مرة.. يفشلن في اتخاذ قرار حازم. وحين تسألهن المرافقات لهن ما إذا كنَّ يرغبن في ابتياع هذا أو ذاك.. يكتفين بإيماءة، متبوعة بهزّة رأس، محدثات المزيد من الارتباك.

في بعض الأحيان، يلاحظ "رامتشانند" أن العروس غير مبتهجة.. وأن لا شيء يظهر في عينيها سوى الأسى. لا يتكرر هذا الموقف كثيرًا، لكنه حين يحدث، يثقل قلبه بالحزن. وفي كل مرة، يؤكّد لنفسه بعدها أن خياله فقط هو الذي صوّر له ذلك.

كان قد رأى الكثير خلال عمله. رأى الخيلاء.. والحسد.. واليأس.. والقنوط. ويعلم المرارة التي تشعر بها غير الجميلات، حين ينظرن في المرآة، ويدركن أن "الساري" - مهما بلغت روعته - يعجز عن إضافة الحُسن إليهن. كما يعرف ملامح الانتصار الصامتة التي تعلق وجوه الفاتنات من الزبائن.

كان "رامتشانند" قد لاحظ أيضًا أنه من النادر أن تأتي امرأة بمفردها لابتياع "ساري". كل زبونة تصطحب معها امرأة أو اثنتين لمساعدتها في اتخاذ القرار، ومشاركتها بهجة الحصول على قماش جديد. فالأمر برمته ليس مجرد عملية شراء عادية.. بل أمرٌ باعث على التسلية والمتعة.. ومهمة لطيفة تفيض بالذوق والجمال. إن لم تأتِ الزبونات في مجموعات، فإنهن يأتين بصحبة امرأة واحدة على الأقل. يتبادلن الحديث عن "الساري" المعروف أمامهن، ويناقشن مزاياه وعيوبه. كل واحدة منهن تمطّ شفيتها في استيائه إن لم يعجبها ما تراه؛ وتتبادل نظرات ذات مغزى مع الأخريات، اللاتي يقمن بهزّ رؤوسهن في رفض

تأم.. ويبدأ في تحليل نقاط ضعفه.. كان سيبدو أجمل لو كانت حواؤه مختلفة بعض الشيء.. أو من طراز آخر.. أو لو كان لونه من درجة أغمق أو أفتح قليلاً.

تعلم "رامتشان" أن يكون صبوراً، حين تبدأ الزبونات في الحديث مع بعضهم البعض، والتمعن في "الساري" لفترة طويلة وبدقة بالغة، وحين يمررن أصابعهن على سطحه بخفة ويقيمن تصميمه ونقوشه.. وكأنهن يحاولن فك شيفرة سرية معقدة!

كما تعلم كيف يميز تلك النظرة التي تفيض بالاشتهاء، عند رؤية قماش بديع، وما يتبعها دائماً من حزم وتصميم وقرار لا يقبل التغيير بالحصول عليه، أيًا كانت الظروف أو التبعات.

في بعض الأحيان تلعب سيدات الأسرة، الأكبر سنًا، دورًا في المسرحية المعروضة. يصاحبن الفتيات ونساء الأسرة اللاتي يصغرن في العمر، ويقمن باتخاذ القرار النهائي، دون مناقشة؛ وبخاصة إن كانت عملية الشراء تتم بمناسبة حضورهن لحفل زفاف.

الجذات والحموات كن يرافقن الأخريات ليتأكدن من أن واحدة منهن لن تحضر الحفل بـ"ساري" رخيص أو غير لائق. وذلك بالطبع حتى لا تكون عائلتهن هي الطرف المهزوم في حرب "السواري" الضارية، الدائرة على الدوام.

حين تكون الزبونات من أسرة واحدة، يبدون أكثر راحةً وانطلاقًا. وتساءل إحداهن الأخرى عمّا إذا كان لديها هذا اللون أو ذاك، لأنها لا تتذكر جيدًا. يلقين بأطراف "السواري" على أكتافهن، أو يضعنها على رؤوسهن، ويسألن بعضهم كيف يبدون. ربّما كان ذلك هو أكثر وقت تكون فيه النساء في قمة الصدق والصراحة والأمانة والإخلاص.. تجاه بعضهم البعض.

وفي كل الأحوال، فلا بد أن تنتهي عملية الشراء بخطوة لا تتغير أبداً.. الفصل.
والفصال أنواع؛ هناك القائم على نقاش لطيف، والذي تمارسه الزبونات الدائمات بثقة،
لتأكدهن من أنهن سيحصلن على خصم يرضيهن تماماً.
وهناك النوع الممتلئ بالصياح والصراخ، الذي يصدر عن النسوة العدوانيات، بحكم
العادة لا أكثر، وينتهي الأمر بصداق للطرفين.

وهناك الفصل الناعم الرقيق، التي تتبعها غير المتمرسات.. المفترقات الخبرة.
وهناك بالطبع الطريقة الأرستقراطية، لسيدات العائلات الثرية، حين يقلن بأسلوب أمر،
وهن يشرن بأصابعهن في عجرفة: "فليكن الحساب معقولاً من فضلك".
يتم الفصل عبر أساليب مختلفة ومتباينة، ولكن لا تخلو أيّ عملية شراء من طريقة منها.
ولكن اليوم، في حجرة استقبال عائلة "كابور"، لم يكن هناك فصال من أيّ نوع. مجرد
أسئلة قليلة. ليس بينها استفسار عن الأسعار. حتى حين أخرج أعلى الأصناف التي حملها
معه.

تبادلت المرأتان كلمات قليلة، وهما منهنمكتان في اختيار ما تريدهن. تجاهلتهن تماماً. قامتتا
بانتهاء سوارى باهظة الثمن، وبعض الأوشحة الغالية، دون أن يطرف لهما جفن. تضعان ما
تودّان شراءه في جهة، وتلقيان ما لا يعجبهما في كومة أخرى، بإهمال ولا مبالاة.
اختارت "رينا" "سارين" شقّافين. أحدهما بلون وردي ناعم تتخلل حوافه خيوط فضّية،
والآخر أزرق فاتح جداً.. يقترب من الأبيض.. بتطريز كثيف باللون الفضيّ.

ودون تردّد، اختارت أمها "ساري" أزرق من قماش رقيق مكرمش، بحوافّ ثقيلة ذات نقوش بارزة. أعقبته بأخر من اللون الأخضر الزيتي. ووراءهما "ساري" من الحرير الخشن باللونين البني والذهبي.

واصلتا الشراء بهذه الطريقة، في حين جلس "رامتشاند" يتابعهما وقد غمره إحساس بالحرج والارتباك وانعدام الفائدة. الأسئلة القليلة التي وُجّهت له، كانت من قبل مسز "كابور"، وكشفت عن خبرتها الكبيرة في عالم المنسوجات. حاول أن يخفي اضطرابه وهو يجيئها.

أسلوب المرأتين في الالتقاء كان به شيء غير قليل من القسوة. كل منهما تمسك بـ"الساري" بين يديها، تمرّ عليه بنظرات حادّة من عينيها.. تشمل طرفه وحوافه.. تتحسسه بين إبهامها وأطراف أصابعها، ثم تقرر بسرعة.. بنظرة صارمة لا تردد فيها.

خلال ذلك كلّه، دخلت الغرفة فتاة في حوالي التاسعة عشرة. تلبس بنطلون جينز أسود، ولها شعر قصير جدًّا. حين تكلمت، بدا صوتها أكثر عمقًا من صوت أختها. بدت في منتهى الحيوية والثقة بالنفس.

قالت بالإنجليزية:

- "رينا".. سأذهب لأسبح. حين أنتهي، سألقاك في مركز التجميل.

- حسناً. باي باي "تينا".

كانت "تينا" على وشك المغادرة، حين انتبهت لـ"السواري" الملقاة في كل مكان. توقفت

وسألت:

- ما الذي يحدث هنا؟ ظننت أننا سنكتفي بـ"السواري" التي اشتريناها من مصممي

الأزياء في بومباي. ماذا ستفعلان بهذه أيضًا؟

- كل ما في الأمر أنني قررت، بعد تفكير، أنني لا أريد أن تكون ثيابي ومجوهراتي تقليدية..

كما أنني لا أريدها على نمط واحد. أرغب حقًا في تكوين مجموعة تعبر عني وعن شخصيتي

تمامًا. أعني أن يكون بها ثياب تراثية مثلًا وأخرى عصرية وفق أحدث صيحات الموضة..

وهكذا لن يملّ الناس مظهري.. وأستمتع أنا بتجربة أنماط مختلفة من الملابس.

قالت "تينا" بعد قليل من التفكير:

- يا لها من فكرة رائعة! أنتِ محقة. أفكارك دائمًا مبتكرة يا "رينا".

ابتسمت الشقيقة الكبرى، ورفعت "ساري" أصفرَ مائلًا للذهبي، كانت قد اختارته تَوًّا:

- انظري لهذا مثلًا.. إنه من الحرير الطبيعي وعليه تطريز فلكلوري قديم. هذا المتجر

يبيع منسوجات من كل الأماكن في "الهند"، ولذلك قررت أن أضيف للملابس التي اشتريتها

من "مومباي"، مجموعة أخرى من بضاعتهم المتميزة.

تأملت "تينا" "الساري" بإعجاب:

- واو!.. منتج خلّاب. أرغب حقًا في مشاهدة بقية ما اخترتماه.

أردفت بضيق:

- لمّ لم تخبراني عن الأمر؟

ضحكت "رينا" وهي ترمقها بمحبة واضحة:

- شكلك رائع وأنتِ غاضبة! ثم إنك استيقظت متأخرة اليوم.. على أي حال، أعدكِ بأني

سأريك إياها، قطعةً قطعةً، هذه الليلة. ما رأيكِ؟

- لا بأس.. سأذهب للسباحة الآن، وبعدها لمركز التجميل. أراك هناك كما اتفقنا؟

- نعم.

قالتها وهي تعاود مشاهدة "السواري" المختلفة..

لوحت "تينا" لأمها، التي اكتفت بإيماءة ردًا عليها. غادرت الحجرة بخطوات خفيفة

ورشيقة.

تابعها "رامتشانند" عبر النافذة، وهي تركب السيارة الحمراء الصغيرة، وتغلق بابها بقوة،

ثم تنطلق بها بسرعة فائقة.

انتهت المرأتان من تفحص كل "السواري"، واختارتا ما أعجبهما. بدأ "رامتشانند" عملية

حسابية في رأسه، يحسب بها قيمة ما اشتراه. وجد أنها تقترب من ثمانين ألف روبية.

قالت مسز "كابور" بعدم اكتراث، وهي تشير إليه بيدها:

- أحضر لنا الفاتورة المرة القادمة، حين تحمل إلينا المجموعة الثانية من "السواري".

ظل "رامتشانند" محملاً بها. "مهاجان" سيقتله حتمًا. ولكن، إن أغضبها، فإن "مهاجان"

سيقتله أيضًا. لذلك قرر أن يلزم الصمت. أحس بحيرة شديدة.. وتساءل في انزعاج لماذا لم

ينبئه أحد في الدكان لكيفية التصرف في موضوع الفاتورة.

للحظات، انتابه رعب قاتل. ماذا لو لم تدفع المرأتان؟ ماذا لو أنكرتا، وقالتا إنهما لا تعرفان شيئاً عن هذه "السواري"؟ هل سيطلب منه دفع ثمانين ألف روبية؟ كل النقود التي يدّخرها لا تتجاوز ثلاثة آلاف وأربعمئة وثلاثين روبية.

حاول أن يتماسك. أصحاب هذا البيت يمتلكون عدّة مصانع. لا شك أن الثمانين ألفاً تعدّ مبلغًا تافهًا بالنسبة لهم.

كانت المرأتان قد غادرتا الحجرة، وهما تتحدثان بحماس عن الجواهرجي الذي سيحضر لهما قطعًا من أحدث التصميمات، بعد عشر دقائق.

ملمم "رامتشاندي" "السواري" وهو ذاهل، فيما انتظره "راجو" ليصطحبه إلى خارج المنزل. الفاتورة المرتفعة.. غرفة الاستقبال المترفة.. سيارة "تينا كابور" الحمراء.. النساء الواثقات من أنفسهن.. الروائح غير المألوفة في هذا المنزل.. كل هذا تركه مذهولاً ومضطرباً.

ركب الدراجة وقادها بتمهل. دارت عجلاتها ببطء منتظم. تابعت الصور الجديدة في رأسه، مرة تلو مرة.

حين وصل الدكان، هرول باتجاه "جوكل". قال بضيق وهو يقبض على ذراعه بقوة:

- أخي "جوكل".

صمت بعدها ولم يعرف ماذا يقول. قفز "جوكل" من مكانه وقال:

- تذكرتُ الآن! لقد نسيت أن أخبرك عن الفواتير!

كاد "رامتشانند" أن يموت من الصدمة، عاجله بسرعة:

- أخي "جوكل" هي التي طلبت مني أن أخذها لهم غدًا.. وأنا لم أعرف كيف أتصرف. ثم

إنني لم أحسب مجموع ما اشتروه بدقة.. أما بالنسبة للفلوس...".

قاطعته "جوكل" بارتياح:

- الحمد لله.. الحمد لله. لقد تصرفت كما ينبغي. لقد نسيْتُ تمامًا أن أنبّهك لهذا الموقف.

كّرر مرة أخرى:

- لقد تصرفت كما ينبغي.

أضاف:

- لقد خشيت أن تطالبهم بالمبلغ وأن تصرّ على تسلّم النقود.. يا لها من فضيحة للدكّان!

و"مهاجان" كان سيعاقبك على حماقتك.. ويعاقبني أنا أيضًا لإهمالي في تذكّر هذه النقطة

المهمة. والآن.. اذهب إليه. إنه بانتظارك ليسمع منك التفاصيل. إن لديه قائمة بكل

"السواري" والأقمشة التي أخذتها معك. سيرسل الفاتورة لـ"رافيندر كابور"، وسيُرسل لنا الرجل

بدوره شيكًا. هكذا تتم الأمور حين نتعامل مع الزبائن المهمّين.

أوشك "رامتشانند" أن ينفجر في البكاء، من فرط الارتياح.

لم يستغرق وقتًا يذكر في الحديث مع "مهاجان"، وفي إعادة "السواري" التي

رفضتها العروس وأمّها إلى أماكنها الصحيحة. بدا "مهاجان" سعيدًا به؛ قال له إن

بإمكانه أن يعود إلى البيت، وأن يعتبر بقية اليوم إجازة، لأن قيادة دراجة محمّلة ببضاعة ثقيلة من وإلى "جرين أفينيو"، ليس بالأمر الهين أبداً. شكره "رامتشاند" بحرارة.

قال "مهاجان":

- ولكن لا تتوقع مني أن أدلّك هكذا يا ولد كلّما أرسلتك إليهم. سأتصل بهم، وأتوقع أن يطلبوا مني دفعة أخرى من الأقمشة. ربما ستذهب هناك غدًا أيضًا.

غادر "رامتشاند" الدكان.

كان جوّ المساء باردًا. أحاط نفسه بذراعيه. أحداث اليوم جعلته مضطربًا بعض الشيء، لكن تغيير روتينه المعتاد حرّكه من الداخل بطريقة غير مألوفة له.

ركوب الدراجة لمدة طويلة.. الشمس.. النسيم.. المتاجر.. منزل "كابور"... جميعها أمور خارج نطاق حياته اليومية، التي لم يجرب غيرها لأحد عشر عامًا؛ وكلّها تركت في نفسه قدرًا غير قليل من الإثارة والحماس. اكتشف أن العالم كبيرٌ حقًا. وأن حياته باهتة جدًّا، وأنها تمضي بصورة متكررة في مكانين فقط: الدكان، الحجر، الدكان، الحجر، الدكان، الحجر... وأنك حين تخرج من ذلك المضمار، تكتشف أن الدنيا مليئة باحتمالات لا نهائية.. هناك الجبال الخضراء الشاهقة الارتفاع التي يأتي منها خادم أسرة "كابور".. هناك الجداول الرقراقة المنسابة عبر الأودية.. مياه صافية.. صفاء صوت ذلك الخادم الصغير. هناك المسيح الذي ترتاده "تيننا".. ربما كان مثل حمام السباحة الذي يظهر في فيلم "بازيجار".. برمر أزرق ولوح قفز مرتفع، كذلك الذي وقفت على حافته "شيلبا شيتي" وهي تغني، مرتدية بلوزة سوداء عارية الظهر، و"ساري" خفيفًا من "الشفون" الأصفر. هناك الكلية التي تدرّس بها مسز "ساتشديفا".. والكتب التي يقرؤها ملايين الناس يوميًا.. والسيارات.. والأزهار المزروعة في قصاري.. وصواني التقديم

المزينة بطوايس.. هناك الكثير جدًا في هذا العالم المتسع.. المترامي الأطراف.
بدأ يشعر بالابتهاج. صارت خطواته خفيفة. غيّر من اتجاه سيره، فجأة، ومشى في الاتجاه
المعاكس. سار بسرعة، متناسيًا برودة الجوّ الشديدة، إلى أن بلغ مجموعة من الدكاكين
الخشبية الصغيرة التي تباع كنبًا مستعملة. يعتمد أصحابها في تجارتهم على باعة
الـ"روبايكيّا". يأخذون منهم الكتب القديمة، ثم يعيدون بيعها بسعر أعلى قليلًا. أغلب ما
يحصلون عليه - عادةً - هو الكتب المدرسية. يبيعون بعض المطبوعات المختلفة، ولكن
بشكل قليل جدًا.

توقف "رامتشاند" أمام الدكان الأول. الكتب مرصوفة في أكوام بالداخل.. على الأرض،
وعلى كل سطح. كما امتدت الكتب المكدسة إلى الخارج، بجوار المدخل.
طاف "رامتشاند" ببصره في المكان. اتخذ قرارًا بأن يشتري بضعة كتب اليوم. تذكر أن عليه
أن يفكر بروية، لأن ميزانيتها لا تسمح له بإنفاق أكثر من مئة روبية.
فيما كان يقرأ العناوين الإنجليزية، تذكر شهادة إنهاء الصف الثامن التي لا تزال قابضة في
الصندوق المعدني القديم، بغلافها البلاستيكي الأخضر.

الشهادة التي لم يطلب أحد رؤيتها أبدًا.
لقد نسي معظم ما تعلمه في المدرسة. أدرك ذلك الآن فقط، وهو ينظر للعناوين المختلفة.
لم يعد يستطيع أن يقرأ جيدًا.
حين كان تلميذًا، كان يقرأ بشكل معقول. لم يكن رائعًا أو عبقرية، لكنه أيضًا لم يكن
سيئًا.

يحاول دائماً أن يتناسى الصف الثامن، واليوم الأخير له في المدرسة.. ليته ينسى أيّ جزء من طفولته..

لن يتذكر شيئاً من ذلك، اليوم تحديداً. لن يجعل أيّ شيء يمنعه من اقتناء بعض الكتب هذا المساء.

رفع رأسه قليلاً، وضيّق عينيه، وحاول قراءة العناوين.. "فن كتابة الرسائل".. قرأ ذلك بصوت مسموع. شعر بالسعادة والإثارة. نعم.. هذا هو الكتاب الذي يحتاج إليه بالضبط.

سيمنحه ما يحتاج إليه من تمرين على القراءة والكتابة والتواصل مع الآخرين.

سأل البائع:

- بكم؟

أجابه:

- بثلاثين.

فرح بالسعر، واحتضن الكتاب.

قرأ بقية العناوين: "القاموس الطبي".. "عمدة كاستر بريدج".. "من البدانة للرشاقة في

ثلاثين يوماً".. "مرتفعات وذرنج"..

كلّا.. كلها تفتقر للعناوين المنطقية.

حوّل انتباهه لمجموعة أخرى.. "المطبخ النبأتي الهندي".. "الفيزياء للصفّ العاشر".. "فن

الفينج شوي لحياة سعيدة".

أحسّ بالحيرة. التفت للبائع وسأله:

- هل أجد لديك مذكرات "المهاثما غاندي"؟

قال الرجل:

- لا.

ومضى يتابع سحلية وهي تسقط من أعلى الجدار إلى الأرض. هجم عليها بمنفضة الغبار،

وراح يضربها بها.

لمح "رامتشانند" كتابًا يعلوه عنوان "موضوعات التعبير البراقة"، وبخط أصغر تحته

"لتلاميذ المدارس من كل الأعمار".

غمرته السعادة ثانية، لكنه فكر لرهة أن الرجل لو أدرك أنه يرغب في الحصول عليه

بشدة، فسوف يضاعف الثمن على الفور، فقال متصنّعًا عدم الاهتمام:

- بكم هذا؟

أجابه:

- بخمسين.

كرر "رامتشانند"، متسائلًا بغضب:

- بخمسين؟!

قال البائع بصرامة:

- نعم.. كما سمعت.

بعد جدل طويل، ومساومات عديدة، اتفق الاثنان على أن يدفع "رامتشاند" سبعين روبية للكتابين.

أعطاه مئة روبية، ووقف ينتظر أن يردَّ له بقية نقوده. فيما كان الرجل يبحث في أحد الأدراج عن باقي المبلغ، راح "رامتشاند" يتصفح ما اشتراه للتوّ. راعه أن يكتشف أنه لم يفهم معظم الكلمات المكتوبة، رغم محاولاته المستمرة في الحفاظ على القدر الذي تعلمه من اللغة الإنجليزية في المدرسة، عن طريق قراءة لافتات الطرق، وأوراق الصحف التي كان "لاكان" يلفّ فيها حبّات الـ"باكورا" المقلية الساخنة.

بدأ يشعر بالإحباط. سأل البائع بانكسار:

- هل أجد لديك قاموسًا للكلمات الإنجليزية؟ أريده مستعملًا ورخيصًا.

ناوله الرجل نسخة قديمة ومهترئة من "قاموس أوكسفورد".

حمله "رامتشاند" بين يديه باحترام كبير، وسأل عن ثمنه.

قال الرجل بسرعة:

- بأربعين روبية..

صاح "رامتشاند" باستنكار بالغ:

- أربعون؟! أربعون روبية لهذا الشيء؟!!

رفع النسخة بأطراف أصابعه، أمام وجه البائع، الذي قال بإصرار:

- نعم.

أضاف:

- ثم إنه يحتوي على جميع الكلمات يا أخي!

نقده "رامتشانده" عشر روبيات إضافية على المئة التي كانت لا تزال في يده. لكنه - رغم كل هذه المصروفات غير المخطط لها - أحسَّ بالفرحة، لأنه لم يَقم بأي شيء له معنى منذ فترة طويلة. حمل كتبه بعناية، وسار متجهًا لمسكنه بخطوات واثقة.. كمن هو مقبل على معركة.. أحسن الاستعداد لها.

واستكمالًا لحالة الإسراف المفاجئ التي هاجمته، توقف عند مكتبة قرطاسية، وابتاع دواة حبر، وقلماً ودفتراً. فكر في شراء بعض الجير الأبيض، ليغطي به جدران حجرته الكالحة، لكنه لم يملك الشجاعة الكافية لإنفاق المزيد من المال. دخل غرفته ممتلئًا بالانتعاش.





وضع "رامتشاند" رزمة الكتب والكيس البلاستيكي الذي يحوي ما اشتراه من قرطاسية، على السرير، وأمعن النظر في حجرته..

لها شبّاكان. يطلّ أحدهما على الشارع الضيق، والآخر على حوش البيت. حين رأى المكان للمرة الأولى، سمّاهما "النافذة الأمامية" و"النافذة الخلفية".

عندما استأجرها، كانت تضمّ سريرًا بهيكل خشبي وجمالٍ مشدودة بين جوانبه، ومنضدة، وبرواز ضخم معلق على الحائط به صورة - تركها مستأجر سابق - عبارة عن كوخ صغير له سقف مائل، ونوافذ خشبية بديعة، لم يرَ "رامتشاند" مثلها في الواقع، وورود تتسلق مدخل الكوخ ذا المدخنة، الذي يمتدّ أمامه ممرٌ من الأحجار غير المستوية. تعلو المنزل الصغير سماء شديدة الزرقة، وجمال عالية ذات قمم تكسوها الثلوج. وعلى الجانب السفلي الأيمن من الصورة، طبعت عبارة: "بيتك.. أينما يكون قلبك".

لم يبالِ "رامتشاند" بالتخلّص من الصورة، فظلّت معلقة هناك للإحدى عشرة سنة الماضية. صار يحفظ كل تفاصيلها الدقيقة: الدّرج الحجري القصير أسفل باب المنزل، وشكل النقوش على الستائر المسدلة خلف النوافذ الجميلة،

والخطوط المتقاطعة على السقف المائل. بدأ لون الورود الحمراء المحيطة بالمدخل، يبهت قليلاً. وفقدت السماء شيئاً من زرقتها.. ولكن ظلت الصورة - مع ذلك كله - في مكانها على الجدار.

مع مرور الوقت، أضاف "رامتشاند" عدّة أشياء لمحتويات الحجرة. اشترى كرسيًا، ومقعدًا صغيرًا بقوائم قصيرة، ودكولين، وكوز، وعلبتين صغيرتين من البلاستيك لحفظ قطع الصابون، يضع في أحدهما صابونة "لايف بوي" لاستعماله الشخصي، وفي الأخرى صابونة "رين" لغسل الملابس. بالإضافة لذلك، ابتاع ممسحة أقدام، ومرآة قديمة الطراز، علّقها على الحائط. ومنذ أن جاء لهذه الغرفة، وهو يحلم بشراء بعض الستائر.. لكن نقوده تنفذ - كل شهر - قبل أن يتمكن من ذلك.

يطهو طعامه في ركن من الحجرة، وضع فيه موقدًا صغيرًا وبعض الأدوات المنزلية.. إناء طهي بذراع طويلة، وصحنين وكوبين، وبضع ملاعق، ومغرفة وسكينًا. يتكوّن طعامه - في الأغلب - من الأرز والعدس. ويكثر من استخدام الموقد في عمل الشاي لنفسه. في أحيان قليلة، يشتري بعض الخضراوات المعروضة بسعر زهيد، لذبولها أو لأنها توشك على الفساد؛ يقطعها قطعًا صغيرة ويضيفها لإناء الأرز أثناء غليانه. فهذا أقصى ما يستطيع إعداده من طعام.

حين تكون الأدوات بحاجة لتنظيف، يضعها في دلو ويحملها إلى الحمام، ليغسلها هناك. وحتى لو احتاج لشطف السكين بقليل من الماء قبل استخدامها، يضطر للذهاب إلى الحمام. في بداية إقامته بالحجرة، كانت الأرض مبللة على الدوام بقطرات الماء المتساقطة من دلو الصحون والملاعق، وكان نعاله المنزلي المصنوع من المطاط،

يتك آثَارًا رطبة على الأرض. عندها.. قرر أن يبتاع ممسحة أرجل، مرتفعة الثمن بعض الشيء.

يقع سريره بجوار النافذة الأمامية؛ أما النافذة الخلفية، والتي كانت على مستوى منخفض، فقد وضع أمامها صندوقه المعدني وغطاه بقطعة قماش. يحب أن يجلس عليه وينظر إلى الملابس المغسولة المنشورة على الحبال في حوش البيت، وهي ترفرف مع الهواء. تلك الملابس التي غسلتها "سودها" بيديها الجميلتين.

نظر حوله إلى حجرته المهملة التي تعمها الفوضى. فكّر بتقزُّز أن هذا هو عامله. لا عجب أن حياته محددة داخل تلك الحفرة الضيقة.. الدكان.. الحجرة.. الدكان.. الحجرة...

أحس بطاقة فجائية، فخلع ملابسه الجديدة ولبس ثيابًا منزلية قديمة. حمل المكينة التي لا يستخدمها إلا فيما ندر، وبدأ ينظف بها الأرض، ويزيل بيوت العناكب عن السقف وزوايا الجدران. أخرج كل ما كنسه إلى خارج باب غرفته، وتمعن فيه باهتمام. تحرك عنكبوت وسط كومة القاذورات، وفرّ مسرعًا. بالإضافة لبيوت العناكب المتهتكة، والتراب، كانت هناك خيوط صوفية من البطانية القديمة، وبعض الشعيرات المتساقطة من رأسه، وبضعة حبات من الأرز وقعت منه وهو يخرجها من البرطمان، وقطع متناهية الصغر من براز سحلية، أسود اللون. جمع كل ذلك في كيس بلاستيكي، وربط أطرافه بإحكام. قرر أن يلقيه في المزبلة في طريقه للعمل صباحًا.

ملأ الدلو القديم بالماء، ومسح الأرضية باهتمام شديد، مستخدمًا خرقة قديمة. تجاهل البرودة الشديدة التي امتدت من أصابعه ليديه.

عقب ذلك، نظّف الطاولة. رفع عن سطحها برطمان طرشي المانجز، وبرطمانات الأرز والعدس، وعلبة معدنية من زيت جوز الهند "باراشوت" للشعر، ومعجون "بيرنول" بعبوته الخضراء الفاقعة، وأنبوب صغير من مرهم "زاندو" المسكّن للألم، وبعض قطع الثياب المتناثرة. أزال الغبار عن سطح الطاولة. تطايرت بعض الذرات قريبًا من وجهه. فأحضر قطعة قماش مبللة وعاود التنظيف بها. اختفت البقع المستديرة التي تركتها العبوات المختلفة. فرش "رامتشاند" جانبًا من الأرضية بالجريدة القديمة، التي كانت ملابسه الجديدة ملفوفة بداخلها. رتبّ البرطمانات في صفين متوالين فوق الأوراق المطبوعة. الكبيرة في الخلف، والأصغر حجمًا أمامها. أصبحت الطاولة خالية ونظيفة.

غمره إحساس هائل بالنظافة والطهارة والفضيلة.

جرّ الطاولة ووضعها محاذاة السرير. بهذه الطريقة يمكنه أن يجلس على الفراش، ويضع كتبه ودفاتره على المنضدة، ليقرأ ويكتب تحت ضوء المصباح مباشرة. أخرج كتبه الجديدة، وبدأ يقرؤها بتردد.

بدأ بكتاب "فن كتابة الرسائل". أحس بالفزع حين اكتشف فشله في قراءة معظم كلماته الإنجليزية. شعر بالعجز أمام أيّ كلمة يزيد عدد حروفها على أربعة. استطاع أن ينطق بعضها، بعد أن قسّم كل منها لعدة أجزاء.. لكنها لم تكن سوى أصوات غامضة نطقها بلسانه دون أن يفهم معانيها.

حاول استخدام القاموس. أمضى وقتًا طويلًا في العثور عليها أصلًا. حين نجح في ذلك، اكتشف أن المعاني المكتوبة لا تنقل في صعوبتها عن الكلمات نفسها.

أحس بإحباط فظيع، حتى أوشك على البكاء. جلس محملاً في الصفحات المفتوحة، لمدة طويلة، وهو يتساءل ما إذا كانت نقوده قد ضاعت هباء.. حين أنفقها على شراء هذه الكتب المبهمة. ألن يتمكن يوماً من أن يقرأ أو يكتب بالإنجليزية؟ ألن ينجح في فهم شيء منها أبداً؟ مع تقدّم ساعات الليل، هدأت الأصوات في الخارج، وارتفع القمر عاليًا في السماء. عاود "رامتشان" القراءة بعزيمة وإصرار لم يعرفهما أبداً. تلعث وهو يقرأ، وكوّن بعض الكلمات الطفولية البسيطة، خطّها في دفتره، وهو يغالب ألمًا خفيفًا في رأسه.. بدأ يحس به نتيجة التركيز. أسند رأسه لقاموس "أوكسفورد" السميك، واستغرق في النوم، مع تمام الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

كان اليوم التالي يوم أحد. استيقظ "رامتشان" ممتلئًا بالتصميم. لم يُضِ وقتًا طويلًا في فراشه - كما اعتاد - مستسلمًا لأفكاره المختلفة، وإنما نهض بنشاط، واستحم، وتناول فطورًا مكونًا من موزة وكوب شاي، ثم بدأ في إتمام مهمة القراءة. أمضى ساعات الصباح بأكملها في محاولاته الجادة. أخذ فترة راحة قصيرة مع حلول الظهيرة، طهى خلالها بعض الطعام. حين همّ بتناوله، اكتشف أنه عديم الطعم، واضطر لإضافة الكثير من المانجو المملح إليه، ليتمكن من ابتلاعه. ثم عاد لكتبه مرة أخرى. حين بدأ المساء، كان قد تمكن من فكّ شفرة الكلمات المكتوبة، وإن لم يفهم معانيها جيدًا. بقليل من الممارسة، استعاد قدرته على القراءة. قراءة متواضعة.. في حقيقة الأمر.

ولكن، حتى بعد أن نجح في استخراج معاني الكلمات، وتمكن من قراءة رسالة كاملة، فإن عدم الفهم ظلّ ملازمًا له.

كان قد فتح "فن كتابة الرسائل" بطريقة عشوائية، وقرأ رسالة عنوانها "دعوة صديقة للمشاركة في جولة سياحية بالسيارة"، من فصل "توجيه الدعوات والردّ عليها". وللإشارة إلى كلمة "صديقة" استخدم الكتاب تعبير "جيرل فريند".

احمرّ وجه "رامتشاند" قليلاً وهو يقرأ كلمة "جيرل فريند"، لكنه واصل القراءة..

جري تاورز،

ليتل بورن،

كينت،

يوليو - 19

عزيزتي "بيجي"..

هل توذّين مرافقتنا في جولة سياحية بالسيارة؟ "جورج" في غاية الفخر بالسيارة الجديدة التي اشتراها مؤخراً، ونرغب في القيام بجولة ممتعة في أرجاء "ويلز". إذا استطعتِ الحضور - ونحن في غاية التصميم على مشاركتكِ لنا - فإن المجموعة ستتكون منك و"جورج" وأنا وشقيقي "فرانك". سنكون مجموعة رائعة حقاً. نفكر في أن ننطلق من هنا في اليوم الأول من الشهر المقبل، وسوف يقرر "جورج" الأماكن التي سنذهب إليها، قبل بدء الرحلة؛ ولكن إن كان لأحد المشاركين اقتراحات أخرى، فيمكن تغيير المسار المقرر. هل بإمكانك إبلاغي عن

موعد حضورك بالضبط؟

مع حبّي..

المخلصة.. "فيليس".

فَكَرَّ "رامتشاندا" متحيرًا: "المخلصة"؟ أهي امرأةٌ إِذَا؟! أَيْ "جيرل فريند" إِذَا؟

فهم القليل من الرسالة. الجملة الأخيرة فقط، هي الواضحة تمامًا.. "هل بإمكانك إبلاغي

عن موعد حضورك بالضبط" .. نعم.. لقد فهم تلك العبارة جيدًا.

أمضى يومًا كاملًا تقريبًا، ليقرأ رسالة واحدة.

أخذ نفسًا عميقًا، وبدأ في قراءة الرسالة التالية، والتي كانت ردًّا على الخطاب السابق.

ميدل كلويسترنز،

كانتبري،

3 يوليو - 19

عزيتي "فيليس" ..

يا للسعادة! كرمٌ بالغ منكم أن تدعوني لمشاركتكم. أُرغب في ذلك، بشدة. أتمنى أن يكون

الطقس جيدًا طوال الرحلة.

أرجو التفضُّل بإبلاغي عن نوعية الملابس التي سأحتاج إليها خلال الجولة، وعن المدة

المتوقعة لرحلتنا.

لكم أودُّ رؤية "كيرنارفون"، و"بيتيس واي كود"، وفي الحقيقة فإن كل المناطق في "ويلز"

تتميّز بجمالها الخلاب، وسوف أسعد بأيّ مكان تخططون لزيارته. أتوقع أنكم تنوون الذهاب

إلى "تينترن" و"تشيبي ستو" و"راجلان" ..

هل يناسبكم حضوري في الثامن والعشرين من الشهر الجاري؟

المخلصة التي تكاد أن تجنّ من السعادة:

بيجي.

لم يفهم شيئاً من هذا الخطاب. استغرق ثلاث ساعات ليتمكن من قراءته. حلّ الظلام،

وشعر "رامتشاندا" بالأم في رقبته.

أمضى أغلب ساعات يوم الأحد في قراءة رسالتين. والآن، بعد أن انتهى من فعل ذلك، لم

يفهم منهما شيئاً. أدرك أن "فيليس" و"بيجي" و"جورج" و"فرانك"، هي - على غرابتها

الشديدة - أسماء أشخاص!!

"عزيزتي بيجي" .. إذأ "بيجي" هذه إنسانة ولا شك!

وما هي "الجولة السياحية بالسيارة"؟ يعرف "سيارة" بالطبع.. ويعرف "جولة سياحية" ..

ولكن ما معنى كل ذلك؟

حاول التركيز، وذكّر نفسه بأن عليه ألا يستسلم في مرحلة مبكرة.

منح نفسه فترة راحة أخرى، صنع خلالها كوباً من الشاي الثقيل. شربه وهو يجلس

القرفصاء بجوار الموقد. ثم عاود قراءة الرسالتين الغامضتين مرة أخرى. وضع خطأ تحت

"كيرنارفون" و"تينترن" و"تشيبستو" و"راجلان".

كانت تلك هي الكلمات الأكثر صعوبة. حاول أن يبحث عنها في القاموس. لم يجد لها أي

أثر.

تجاهل "بيتيس واي كود"، لأنه كان متيقناً من أنها خطأ مطبعي.

بعد أن استعان بالقاموس، وجد أن عبارة "المخلصة التي تكاد أن تجن من السعادة"، في حقيقتها، عبارة خفيفة الظل وشديدة الطرافة.

لم يفهم "رامتشانند" جوهر الخطابين، لكنه كان قد تعب وشعر بالإرهاق. خرج ليتمشى، وغاب لفترة طويلة، ثم عاد أخيراً ليواصل ما بدأه. كرر قراءتهما مرة أخرى.

قرر ألا يقرأ كتاب التعبير في الوقت الحالي. خشي أن يعاني من التشوش إن قام بقراءة الكتابين معاً.

سجل بحرص بالغ كل الكلمات الغامضة، التي لم يفهمها، والتركيبات اللغوية غير المألوفة، التي أراد تذكّرها، مستخدماً الدفتر والقلم الجديدين.





- هَمَمم.. لالالا.. ترالالا.. آه.. لالالا.

هذا هو "رامتشاند"، مُدندناً، في طريقه للعمل صباح الإثنين.

بدأت حياته تتخذ مساراً جديداً. المسار الصحيح الذي ينبغي أن تكون عليه. يشعر بأنه في حال أفضل من أيّ وقت مضى. حتى شكله ومظهره صار لهما رونق ما. لقد أمضى إجازته الأسبوعية في الدراسة والتعلم. لم يضيع وقته في التسكّع خارج قاعات السينما، أو الاستلقاء على السرير بكآبة. وإضافة للاستذكار، قام بالتريّض أيضاً، ومشى لفترة معقولة وهو يستنشق الهواء النقي.

عليه اليوم أن يذهب إلى منزل "كابور" بمجموعة أخرى من "السواري". لم يكن الوضع في الدكان يسمح بتغيّبه، أو أيّ عامل آخر، بسبب ازدحام الدكان يوميًا، نظرًا لافتراب موسم الأعراس السنويّ. الكلّ منهمك في العمل بجديّة تامة، بما في ذلك "هاري" أيضًا.. ومع ذلك، ليس من الممكن أبدًا تجاهل رغبات عائلة "كابور"، ولذلك اعتلى دراجة "جوكل" مرة ثانية، مصفراً بفمه، حاملاً المزيد من الأقمشة للعروس. هذه المرة، كان يلبس ثيابًا قديمة. ليس بإمكانه شراء ثياب جديدة كل بضعة أيام، بالطبع. لكنه حرص على أن يكون نظيفًا ومهنيًا.

ومرة أخرى، تلكاً قليلاً أمام محلات الكتب القديمة. لكنه هذا الصباح، عرج على أحد أكشاك الشاي، وطلب كوباً احتسائه في نصف ساعة تقريباً، وهو ينظر إلى المارّة بهدوء واستمتاع، ولم يشرب عصيراً. ملابس جديدة.. كتب وقلم وزجاجة حبر ودفتر.. وروبيات يتم إنفاقها هنا وهناك، لشراء أغراض مختلفة. عليه أن يحافظ على نقوده خلال الفترة المقبلة. وصل أخيراً لمنزل "كابور". طُلب منه الجلوس في حجرة الاستقبال ذاتها. جاءه "راجو" بعدها ليبلغه بأنه سينتظر قليلاً، لأن السيدة الكبيرة تستقبل الجواهرجي، والآنسة تتحدث على التلفون. أوماً "رامتشانند" برأسه. سرعان ما استسلم لأفكاره وخيالاته المتداخلة المعتادة. ترك الخادم الباب مفتوحاً حين غادر المكان.

لم يكن في نية "رامتشانند" أن يتنصّت على المكالمة التلفونية. لكن صوتها كان مرتفعاً. ربما ظنت أنه لا يعرف الإنجليزية. صحيح أنه لا يجيدها.. هذه حقيقة.. لكن بإمكانه أن يفهم شذرات من أيّ حديث دائر، وهو مُلمّ بعدد لا بأس به من الكلمات، ولذلك استطاع أن يتابع حوارها.

كان صوتها العميق، الأَجش، غير مألوف وشديد الجاذبية لأذني "رامتشانند". كانت تقول: "صدّقني يا حبيبي، لست كبقية فتيات "أمريتسار". حياتهن راكدة. راكدة تماماً. والغريب أنهن راضيات بتلك الحيوانات التافهة. لا أستطيع أبداً أن أتخيل نفسي على تلك الصورة.. فأنا أحب القراءة واستكشاف أمور جديدة.. وأعتبر كل يوم في حياتي بمثابة تجربة مفيدة. والآن.. انظر لما أنا فيه في هذه اللحظة تحديداً.. ينتظرني الولد الغبيّ بائع "السواري" في حجرة، وذلك الجواهرجي الطمّاع في حجرة أخرى! بينما تموج في رأسي أفكار لا علاقة لها بهذه التفاهات.. أفكار عن الحياة مثلاً.. فأنا

أؤمن بأنها مغامرة، وأنك حين تحاول استكشاف جوانبها المختلفة، فإنك في الحقيقة تعيد اكتشاف ذاتك.. كما تعلم".

أضافت: "أنت تعرف مدى ثراء أبي، وبأني غير محتاجة للعمل، ومع ذلك حرصت على نيل درجة الماجستير في الأدب الإنجليزي، بل وكنت الأولى على زملائي دائماً. أنا إنسانة مبدعة. عقلي لا يتوقف عن التفكير.. وهو غير راضٍ عن كل هذه الأشياء. أحب، بطبيعة الحال، ارتداء الملابس الجيدة والمجوهرات الفخمة، وأن أعيش في مستوى راقٍ ومتميز.. لكن ذلك كله له سبب واحد فقط وهو انتمائي في الأساس لعائلة غير عادية. لكنني طبعاً لا أكتفي بهذا.. لأنه ليس نهاية الطريق بالنسبة إليّ. الموضوع بالنسبة لي وسيلة، وليس غاية".

توقفت عن الحديث. بدا أنها تستمع للمتحدث على الطرف الآخر..

قالت فجأة بحماس شديد: "الضبط! نعم.. هذا بالضبط هو ما أشعر به أنا أيضاً! ماذا عن روحي؟ ماذا عن ملكاتي الإبداعية؟ لقد انتهيت، بالأمس فقط، من نظم قصيدي الجديدة. إنها من تلك الأشعار التي أعبرٌ من خلالها عن فهمي للمعنى الحقيقي للحياة. هل تعرف متى كتبتها؟ حين كان بائع الأساور الكريستال في انتظاري. شعرت برغبة ملحّة في الكتابة. قلت لنفسي إن الأساور بإمكانها الانتظار، أما عملية الإبداع لديّ فيجب أن تتواصل وتستمر طوال الوقت".

صمتت لفترة، ثم سمع "رامتشانند" صوتها ثانيةً: "في الواقع، أفكر جدّياً في كتابة رواية. في المؤتمر الذي عقدته الكلية مؤخراً، قابلت إحدى الأكاديميات من جامعة "دلهي". لقد أكّدت لي بأنني أملك موهبة حقيقية وأصيلة. وأنت تعرف مسز "ساتشديفا" طبعاً، أليس كذلك؟ هي أيضاً دائماً التشجيع لي".

اختفى صوتها من جديد، وبدا أنها تستمع إلى ردّ ما..

"أنا سعيدة حقًا لأنك أنت أيضًا توارزني وتحثني على الإبداع. حين عرف أبي أن من أحبه ضابط في الجيش، بات مغمومًا. لأنه كان يؤكد لأصدقائه دائمًا أنه لن يزوجني إلا لشخص فاحش الثراء، وأن حفل زفافي سيكون أسطوريًا. لكنني تمكنت من إقناعه في نهاية الأمر كما ترى. الزوج الغني هو آخر اهتماماتي.. وماذا يحدث بعد أن أنزوجه؟ أمضي أغلب وقتي في حضور شتى الحفلات والمناسبات الاجتماعية؛ ثم إنني، في الواقع، لست بحاجة للمزيد من المال".

انقطع صوتها. كان صمتها طويلًا هذه المرة. ثم قالت: "باي حبيبي.. علي أن أسرع الآن. أحبك جدًّا. لا أصدق أننا، أخيرًا، سننزوج. لا أطيق الانتظار حتى يجمعنا بيت واحد".
سمع "رامتشان" صوت السَّماعة وهي تعاد إلى مكانها، ثم صمت مطبق. جلس مفكرًا، محاولًا استيعاب المكالمة. أيًّا كان ما فهمه، فإنه متأكد تمام التأكد من أمر واحد... لقد أشارت إليه بـ"الولد الغبي بائع السواري". فكر قليلًا، ثم قال لنفسه وهو يشعر بالإشفاق لحالها بأن أعصابها متوترة، ولا شك، لاقتراب زفافها. هذا كل ما في الأمر. لا بد أن تكون أعصاب شخصية متميزة ومرهفة وبالغة الحساسية مثلها، مشدودة ومتلّفة. تنازعت المشاعر المختلفة. لا يعرف إن كان عليه أن يزعج من الطريقة المهينة التي تحدثت بها عنه، أو أن يسعد لأنها تحاول اكتشاف ذاتها.. وإن لم يفهم تحديدًا ماذا قصت بـ"أعبر عن فهمي للمعنى الحقيقي للحياة".. بدت العبارة جميلة وموحية على كل حال.

حين دخلت الحجرة، نظر إليها بحذر. لم تهتم بالنظر إليه أصلًا. دخلت أمها وراءها، وسرعان ما انهمكتا في اختيار المزيد من "السواري"، بسرعة وثقة، كما المرة السابقة تمامًا.



ممتلئًا بالحماس، بعد سماعه لكلام "رينا" عن الكتابة والإبداع و"المعنى الحقيقي للحياة"، قرر "رامتشانند" أن يبدأ في تصفح كتاب "موضوعات التعبير البراقة". وعلى عكس "فن الرسائل" الأجنبي في كل شيء، فإن من وضع هذا الكتاب سيدة هندية.. وقد كتب اسمها على الغلاف.. "شاليني"، متبوعًا بشهادتها "ماجستير في اللغة الإنجليزية". أحس "رامتشانند" بالسعادة، حين اكتشف أن الكتاب يضم، في نهايته، بعض الرسائل أيضًا.

بدأ بقراءة موضوع تعبير مخصص للتلاميذ الصغار، عنوانه "الشحاذ الهندي". "الشحاذون منظرٌ مألوف في بلدنا. قد تقابل أحدهم خارج دور العبادة، أو في موقف الحافلات، أو في السوق أو الطرقات. هناك المئات من أنواع الشحاذين في "الهند". بعضهم كفيف، حُرْم من نعمة الإبصار، وليس لديه القدرة على ممارسة أي عمل، ولهذا يلجؤون لاستجداء الآخرين. هذا النوع يستحق عطفنا. هناك صنف آخر، يتكون من المُفْعِدِين والمجدومين، وهم أيضًا لا يستطيعون كسب عيشهم. وهناك أيضًا شحاذون يتمتعون بالشباب والعافية والأجساد القوية، لكنهم اختاروا الشحاذة مهنة. وهناك نوع له منظر العابدين الزاهدين، ولكنهم ليسوا كذلك في الحقيقة، فمعظمهم من مدمني المسكرات، أو مرتكبي الآثام، أو اللصوص".

أحس "رامتشانند" بالإجهاد بعد ما بذله من تركيز لقراءة الموضوع. بدأ في قراءة الفقرة من جديد، ببطء هذه المرة. قرأها كلها دون أن يتلعثم مرة. ملأه ذلك بالفخر. لقد قرأ فقرة كاملة باللغة الإنجليزية، وتمكن من فهم

ما جاء فيها أيضًا! الكلمات المستخدمة في هذا الكتاب أسهل بكثير من تلك الواردة في "فن

كتابة الرسائل". أحسّ بالسعادة.

لكن المحتوى لم يسعده أبدًا.

فكر بأنه إذا أتحت له فرصة مقابلة "شاليني ماجستير في اللغة الإنجليزية".. فإنه لن

يحبّها أبدًا.

حين أوى إلى فراشه تلك الليلة، بعدما لبس الجوربين الأزرقين المليئين بالثقوب، أمسك

بالقاموس محاولاً البحث عن كلمة "أعبر" التي استخدمتها "رينا". استغرق الأمر حوالي نصف

ساعة، وأخيرًا قرأ: "التعبير عن النفس".. والمعنى "أن يقول الواحد ما يقصده".

فهم "رامتشاندا" أخيرًا.

كان يدرك مدى صعوبة ذلك.





مرّت عدّة أيّام.

تمّ إبلاغ "رامتشانند" بأنه ليس بحاجة للذهاب إلى منزل "كابور" خلال الأيام المقبلة. وأنه إذا أرادت السيدات هناك رؤية المزيد من الأقمشة، فسوف يتم إعلامه بذلك.

حين لم تكن لديه زبونات، كان يمضي وقته في مطالعة كتاب التعبير. لم يعد يقرأ كتاب الرسائل بعد التشوّش الذي شعر به عقب خطابي "فيليس" و"بيجي"، وحديثهما عن التجوّل بالسيارة. لكنه كان يفتش فيه أحياناً عن الكلمات الصعبة التي يضمّها، ليبحث عن معانيها لاحقاً في القاموس، ثم يسجلها في دفتره.

خطرت له فكرة جديدة. تراءى له أنها أروع ما مرّ على عقله من أفكار، على الإطلاق؛ إذ قرر أن يحفظ جميع الكلمات المكتوبة في القاموس بمعانيها، بالترتيب الموجودة عليه. يبدأ بحرف A، وينتهي ب-Z. سيواظب على ذلك يوميّاً. حين ينتهي، يكون قد تمكّن من إجادة اللغة الإنجليزية، بجميع كلماتها وبكل ما لتلك المفردات من معانٍ متعددة.

صدمته الفكرة لعبقريتها الفائقة، حتى تلاحت أنفاسه في حماس وإثارة.. تساءل عما إذا كانت قد مرّت ببال أيّ من المتخصصين من قبل..

سيستغرق تنفيذها وقتاً طويلاً بالطبع، ولكن لا يوجد شيء مستحيل أبداً. خصّص "رامتشانند" نصف ساعة كل مساء، بعد انتهاء الوقت المخصص لكتاب التعبير، لحفظ بعض الكلمات الجديدة ومعانيها.

بدأ بالكلمة الأولى في القاموس. اكتشف أنها حرف الـ a. ولدهشته البالغة، عرف للمرة الأولى أنه ليس مجرد حرف.. بل إن له - كما يبدو - مليون معنى واستخدام! قرر أن يتجاهل هذه المعاني تماماً، وأن يحفظ الكلمة التالية.

خلال ستة أيام، نجح في تعلم عدد لا بأس به من المفردات الواقعة تحت الحرف الأول من الأبجدية. صار يمضي أغلب وقته في قراءة القاموس، وحين يكون في الدكان يظل يردد الكلمات لنفسه.

بعد انقضاء حمى حماس الفكرة الجديدة، بدأت سرعته في دراسة القاموس تتباطأ قليلاً، واتخذت إيقاعاً متمهلاً، منتظماً.



ولمّا كان الفصل شتاءً، فإن ساعات النهار قصيرة. وإلى أن يعود "رامتشانند" إلى مسكنه، يكون الظلام قد حلّ.

يجلس إلى طاولته مساءً، ويدرس بجديّة. أما في الآحاد، فيبدأ في الاستذكار مبكراً، يجلس على صندوقه المعدني، بجوار النافذة الخلفية، ليقراً.

يمكّنه هذا الشبّاك من رؤية حوش البيت وغرفة المعيشة، بالإضافة للمطبخ. هناك حجرتان صغيرتان للنوم وحمام، لكنها خارج مرمى بصره من مكانه هذا.

كثيرًا ما يراقب "سودها" وهي تحضّر الطعام في المطبخ. يراها هناك في مختلف فصول السنة، منذ أحد عشر عامًا. يتابعها وهي تمسح عرقها الغزير أمام الموقد في شهور الصيف، أو تعدّ بسعادة الشاي بالزنجبيل في أيام الشتاء الباردة. يراها وهي تقطّع جبنة الـ"بانير" إلى مكعبات، وتقشر البطاطس، وتفرم الزنجبيل، وتنظف حبّات الفاصوليا من أطرافها، وتدقّ التوابل في الهاون الحجري الصغير، وتعجن الدقيق لتخبز أرغفة مستديرة شهية، وتقلّب العدس أو المرق، وتغلي الحليب في أنية كبيرة، أو تقلي الـ"باكورا" لأستها مساءً.

يلمّحها أحيانًا وهي تنظّف غرفة المعيشة. إنها ربّة بيت ممتازة. تزيل الغبار عن كل الأسطح، وتمسح شاشة التلفزيون بحرص شديد. تواظب على تغيير الملاءة التي تغطي بها الأريكة، أسبوعيًا. كما تقوم بنفض مفرش المائدة يوميًا.

حين أتى "رامتشان" ليقم في بيتهم، كانت "سودها" عروسًا جديدة، لا تزال في مقتبل العمر.. رشيقة ولها وجه ممتلئ ينتهي بذقن مدبّب بعض الشيء. لم تكن جميلة بالمعنى المتعارف عليه، فأنفها أفتس ورقبتها قصيرة، لكنها على الرغم من ذلك تتمتع بقدر هائل من الجاذبية، في عينيّ "رامتشان"، الذي يراها أكثر النساء حلاوة على الإطلاق. حين تصادفه، تبتسم وتومئ له برأسها. كل مرة.

في بداية زواجها، كانت تلبس سوارى لامعة، تظهر خصرها الرشيقة الناعم. في أحيان أخرى، كانت ترتدي ثوبًا قصيرًا وسرولًا، بألوان فاقعة وتطريز كثيف، مع أوشحة محلاة بـ"الترتر" أو قطع المرابا الصغيرة. تجمع شعرها

الطويل في كعكة غير مرتبة، في معظم الأحيان. تتزين بوضع بودرة حمراء في مفرق شعرها، ودائرة من اللون ذاته على جبهتها، وبعض الكحل في عينيها اللامعتين. وتضع في أذنيها زوجًا من الأقراط الذهبية على شكل ورود.

كان "رامتشان" مفتونًا بمنظرها الزاهي اللامع.

عرف اسمها بالصدفة، حين سمع زوجها يناديها صباح أحد الأيام طالبًا منها كوب شاي.

يذهب زوجها للعمل يوميًا، ركبًا دراجته البخارية الزرقاء، ماركة "بجاج". حصل عليها من أهل "سودها" كجزء من المهر الذي دفعوه له. قبل عودته، كل مساء، تستحم وتتعمّر وتصف شعرها بطريقة بالغة التعقيد مستخدمة الكثير من دبابيس الشعر الملونة.

كان "رامتشان" يعود من عمله قبل صاحب البيت بقليل. وأول ما كان يفعله فور دخوله الحجرة هو فتح الشباك الخلفي بهدوء وحذر، وهو يشعر بتشوق كبير. يراها واقفة في الحوش، ترفع الثياب التي جففتها الشمس، عن الحبال. ومع كل خطوة تخطوها، تصدر فردتا الخلل الفضيتان أصواتًا رقيقة.

يرaha أحيانًا جالسة على الأرض وهي تنقي بعض الأرز من الشوائب، ويتابعها وهي تقطع البصل والزنجبيل.

في الأشهر الستة التي أعقبت زفافها، كانت "سودها" تضع حول معصمها الأساور الحمراء والبيضاء الخاصة بالعرائس. خلعتهما بعد ذلك، ووضعت حول رسغها الأيمن سوارًا سميكًا من الذهب. جميل الشكل. يتوسطه رأسا فيلين متقابلين، وقد رفع كل منهما خرطومه، كأنه يحيي الآخر. لم تخلعه من

يدها منذ وضعته أبداً. وزيادة في الحرص، تضع "دبوس مشبك" لامعاً بين الرأسين، حتى تتأكد من أن يظل مقفلاً.

حين تبتلّ يداها، بعد أن تفرغ من غسل الملابس أو الصحن، يلمع السوار الغليظ على جلدها الذهبي.

حول معصمها الأيسر، تضع أساور زجاجية ملونة، تستبدلها كل يوم بما يتناسب مع ألوان ثيابها. حين تنقي الأرز أو تقطع بعض الخضراوات، تصطم تلك الأساور ببعضها، محدثة زينةً لطيفاً. تنفلت بعض الخصلات من شعرها فتدفعها باستياء خلف أذنيها.

في بعض الأحيان، تجلس في الحوش لتقليم أطراف قدميها.. (أو لتزيد من جمال تلك الأطراف البديعة، كما يقول "رامتشان" لنفسه في وله).. يسقط طرف "الساري" عن كتفها حين تنحني للوصول إلى الأطراف البعيدة.. عندئذٍ يحملق "رامتشان" في الجزء الناعم الواقع بين رقبتها وصدرها، حيث تستريح السلاسل والعقود طلباً للدفع.

صباح كل أحد، تغسل شعرها بخليط من الأعشاب، ثم تجلس تحت أشعة الشمس لتجففه، وقد تبلل ظهر بلوزتها بشكل جذاب. تظل تتخلل خصلاته الكثيفة بأصابعها الرشيقة.

أثناء ذلك، يشمر زوجها سرواله المنزلي حتى الركبتين، ويغسل دراجته البخارية بحرص كبير.

بدأ "رامتشان" يحلم بها في أوقات فراغه.

كانت معلوماته عن تكوين جسم الأنثى محدودة جدًّا، استقها من بعض الكتب الإباحية التي تباع على الأرصفة القريبة من محطة الأتوبيس الرئيسية، بعد تغليفها ببلاستيك سميك.

كانت تلك الكتب، عادة، تضم صورًا لنساء أوروبيات، يرحن عاريات في البحر، أو يتخذن أوضاعًا مثيرة بنظرات مغرية.

شاهد "رامتشانند" في إحدى المرات كتابًا أجنبيًا قديمًا ملوَّنًا. لم تكن النساء فيه عاريات فعلاً، وإنما يلبسن ثيابًا خليعة، ويضعن جميعًا أحمر شفاه شديد اللمعان، ولهن شعور ذات ألوان غريبة.. شعر أحمر، وشعر ذهبي.. وألوان أخرى عجيبة جدًّا.

لكن توافر مثل تلك الكتب الملونة كان أمرًا نادرًا، ولذلك اعتمد على الكتب المطبوعة باللونين الأبيض والأسود. أحدث صورة رآها كانت لسيدة بيضاء عارية، بشديين كبيرين، توجه لعدسة الكاميرا نظرة باردة. كانت تقف أمام حمام سباحة وقد باعدت بين ساقها قليلًا.

كانت المسافة بين جسم "سودها" المحتشم، الذي تغطيه "السواري" الزاهية، وتلك الأجساد العارية في الكتب الإباحية.. شاسعة جدًّا، لكنه استطاع - بطريقة ما - تكوين صورة معينة في ذهنه.

خلال عمله بالدكان، المعبق بالأنوثة طوال الوقت، شاهد "رامتشانند" أعدادًا غير محدودة من الزبونات. لكن تظل "سودها" هي الوحيدة القادرة على إشعال رغباته بكامل ثيابها المحتشمة، وهي تؤدِّي الأعمال المنزلية التقليدية.

كان يستمتع برؤيتها حين ترفع الطرف السفلي لـ"الساري"، أو تشمر ساقَي سروالها، وتنهمك في فرك وشطف قطع الثياب تحت مياه الصنبور الذي يتوسط الحوش. تفعل ذلك بتمهّل وهدوء بالغين. ليست مثل زبونات الدكّان المتطلبات للخدمة والاهتمام، ولا مثل نسوة الحارة اللاتي لا يتوقفن عن الشجار مع بعضهن البعض في الشارع.

كثيرًا ما كان يجردّها في خياله من ملابسها، ويمرر يديه على خصرها وكاحليها الشاحبين، ويغوص بأصابعه في شعرها الغزير. يعضّ رقبتها المزغبة، ويفتح أزرار البلوزات الضيقة التي تلبسها تحت "الساري".

كانت تلك التخيلات المحمومة تجعله يشعر بأنه لا يحترمها جيّدًا، كما ينبغي عليه أن يفعل. وليشعر بالرضا عن نفسه، يتعمد أن يكون بالغ التهذيب وفي منتهى الأدب عندما يلتقي بها صدفة في أرجاء البيت. أما حين يختلي بنفسه، فلم يكن باستطاعته في كثير من الأحيان أن يتغلّب على تلك التصورات المتلاحقة.

سرعان ما ودّعت مرحلة العروس الجديدة، لتصبح أمًّا. أنجبت ثلاثة أطفال في أعوام متقاربة.. ولدين وبنّاتًا. أسمتهم "مانوج" و"فيشنو" و"آلكا". كلما رآهم "رامتشانند" يلعبون في الحوش يتساءل بدهشة: كيف أنجبت هذه المرأة الفتية الرشيقة هؤلاء الصغار الرائعين.. بأجسامهم الصحيحة المعافاة؟

الولد الأكبر "مانوج"، كبر قليلاً ليصبح فتى ذكيًا ساخرًا، يعامل "رامتشانند" بازدراء واستعلاء كلما قابله. ورغم أعوامه التي لا تتجاوز التاسعة إلا ببضعة أشهر، يستطيع أن يبث الرعب والاضطراب في نفس "رامتشانند". فأَيُّ شيء ينطق به الأخير، كفيل بإثارة سخرية الصبي وتعليقاته اللاذعة.

أمًا شقيقه "فيشنو" فطفل ودود، شديد الصخب، يدمن الاستماع إلى أغاني الأفلام التي تذاغ على الراديو طوال اليوم.. يرقص على نغماتها في الحوش بحماس عظيم، وهو يحاكي خطوات النجمين "شاروخان" و"هريتيك روشان" في أفلامهما الشهيرة.

"آلكا"، أصغر الثلاثة، هي الأقرب شبهًا بأمها، في الشكل وفي الطباع. تميل للزهو والمباهاة. حين تلبس فستانًا جديدًا، تتسمّر أمام المرآة المعلقة في غرفة المعيشة لفترات طويلة. تحب أن تقف وسط الحوش لتغني الأناشيد بالإنجليزية.. وتظل تردد "با با بلاك شيب"، بصوت مرتفع. لها عينا "سودها" وأنفها الأفطس.

يشعر "رامتشانند" تجاهها بما يشبه الأبوة.

والدهم مثار دهشة واستغراب "رامتشانند"، بسبب طموحه العظيم وأحلامه الضخمة من أجلهم. في البداية، كان يجده رجلاً باردًا كثيرًا، لكنه بدأ يراقب التغيرات التي طرأت عليه بعد إنجابهِ للصغار الثلاثة، وتأكد من أنه أبٌ جيّد، يهتم بهم كثيرًا، ويسعى لأن يقدم لهم الأفضل فقط. وحتى ثيابهم، يختارها بنفسه بألوان فاقعة.. أخضر، وليموني، وبرتقالي. يطعمهم حبّات اللوز، طوال العام، لينمي ذكاهم، ويجبرهم على تناول زيت السمك شتاءً، ليحميهم من أمراض البرد. حرص على أن يلحقهم بمدرسة تعلّم المناهج باللغة الإنجليزية.

تكتفي الزوجة بطهي الطعام وتنظيف المنزل وغسل الثياب. تمارس ذلك بالهدوء الذي يطبع جميع تصرفاتها. بينما أخذ هو على عاتقه مسؤولية تربية الأطفال وإعدادهم لمواجهة الدنيا الجديدة الآخذة في التشكّل حولهم.. دنيا الوظائف

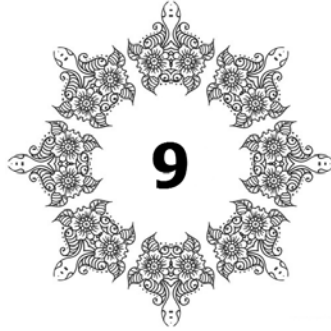
التي يجب أن يتقن العاملون بها اللغة الإنجليزية، ودنيا الجوازات والتأشيرات والسفر.. والشركات الضخمة في "لوديانا" و"تشانديجار" و"دلهي".
في إحدى المرات، حين صعد إلى حجرة "رامتشاند" ليتسلّم منه مبلغ الإيجار الشهري، أسرّ له:

- النقود التي أخذها منك لا أصرف منها روبية واحدة. أضعها في حساب خاص بالبنك، لأدخر مبلغًا يكفي لننتقل من وسط المدينة هنا إلى إحدى الضواحي الجديدة. هناك، يمكنني تسجيلهم في مدارس أفضل. سيتعلمون مستوى أعلى من الإنجليزية ويتحدثونها بإتقان. وربما أمكنني أن أعلمهم السباحة أيضًا.

عندما سمع "رامتشاند" ذلك، شعر بغصّة، لأنه تذكّر أباه، والأحلام التي كان يخطط لتحقيقها من خلاله، عبر إلحاقه بمدرسة إنجليزية.

لم تنتقل الأسرة من بيتها بعد، لكن "مانوج" يستطيع بالفعل ترديد أغانٍ إنجليزية كاملة..





مرة أخرى.. يجلس "رامتشاند" على سجادة غرفة الاستقبال الوثيرة في منزل "كابور"، واضعاً أمامه صرة ضخمة من البضاعة الثمينة. ذلك الصباح، أنبأه "مهاجان" بأنهن يردن بعض أقمشة التنانير المطرزة، مع ما يناسبها من أوشحة.

كان "رامتشاند" يهيمّ باستعراض ما جلبه، أمام مسز "كابور" وابنتها الكبرى، حين دخل "راجو" وقال باحترام:

- سيدتي.. هناك زائرة للآنسة. تقول إن اسمها مسز "ساتشديفا".

ظهر الامتعاض على وجه المرأة وقالت بضيق:

- "رينا"! لقد بدأت هذه النوعية من معارفك تتجراً وتحضر لمنزلنا. أنت تعرفين أن زوارنا هم عليّة المجتمع وأرقى العائلات المحترمة فقط.. سواء هنا أوفي "دلهي". لكن بفضل تبسطك مع الجميع، صارت هذه المرأة وأمثالها يأتوننا في أي وقت.

نظرت الفتاة إلى والدتها نظرةً باردةً:

- أمي.. تعلمين ولا شك أن هناك أمورًا أخرى في الحياة لا تقل أهمية عن المال والثروة. هناك ناس يتمتعون باحترام كل من يعرفهم، لسبب واحد، هو إنجازاتهم. وأنا لا أعني احترامًا صادرًا عن بضعة أشخاص يرون أنهم أفضل من غيرهم، وإنما احترام العالم أجمع، وخاصة من المثقفين والأكاديميين.

أضافت وقد لمعت عيناها:

- من الأفضل يا أمي أن نأخذ أفضل ما في هذين العالمين.. المال والمعرفة معًا.

التفتت إلى الخادم وقالت:

- "راجو"، دعها تدخل هنا، ومن فضلك أحضر لنا بعض المشروبات الباردة أو الشاي.. أو أي شيء نشربه.

دخلت مسز "ساتشديفا". ترتدي "ساري" حريريًا تجتمع فيه درجات اللونين النحاسي الهادئ والبيج. تضع حول عنقها عقدًا رقيقًا من اللؤلؤ، وتزين أذنيها بقرطين من حبات اللؤلؤ الصغيرة، وتجمع شعرها في كعكة بسيطة. اقتربت من "رينا" وهي تمدّ يدها. وقفت "رينا" مبتسمة. تصافحتا. قالت مسز "ساتشديفا":

- تسلمت بطاقة الدعوة لعرسك يا عزيزتي. سعدت جدًا لهذا الخبر الجميل. كنت قريبة من هنا، ففكرت في الدخول لتهنئتك.

قالت "رينا":

- شكرًا جزيلاً.. هذا كرم منك.

التفتت مسز "ساتشديفا" إلى مسز "كابور" وألقت عليها التحية. اكتفت صاحبة المنزل بابتسامة متكلفة، ردًا عليها.

قالت مسز "ساتشديفا" لـ "رينا":

- أخبريني يا عزيزتي.. كيف حالك؟

استأذنت الأم وغادرت الحجرة، بعد أن قالت لـ "رامتشانند" إنها ستعود إليه بعد قليل. فكّرت وهي تكاد تغلي من الغيظ أن تلك المرأة تتعمد أن تتحدث بالإنجليزية، لا لشيء إلا لتضايقها فقط. تساءلت:

- لماذا أفكر في واحدة مثلها أساسًا؟ إنها حتى لا تملك المنزل الذي تقيم فيه.. إنه تابع

للكلية أصلًا!

جلس "رامتشانند" منتظرًا. بدا أنهم غير مهتمين بوجوده. ظل في مكانه على السجادة، والأقمشة أمامه. راح يراقب المرأتين وهما تتبادلان المحادثات بالإنجليزية. أصغى إليهما بانتباه. بعد كل ما قام بدراسته، يتوجب عليه أن يفهم الحوار بأكمله. كان هذا بمثابة امتحان له.

بعد مغادرة مسز "كابور" انطلقت ابنتها والضيافة في الكلام.

- خبر سعيد فعلاً يا "رينا". أعجبنى أنك لم تختاري زوجًا من العائلات المشغلة بالتجارة والأعمال. أرجو أن لا تجدي في كلامي شبهة إهانة، لكن فتاة مثلك بحاجة إلى جوّ أكثر ثقافة. تحتاجين لعوامل أكثر رحابة، تكتشفين فيها إمكانياتك المتعددة.

زَمَت الفتاة شفيتها. حاول "رامتشاندا" أن يركّز. كانت الجملة الأخيرة مستعصية على الفهم.

قالت:

- الحقيقة يا سيدتي أن مدينتنا، كما تعلمين، تمتلئ بعائلات من تجار الأقمشة والمجوهرات، وكلها عائلات عريقة جدًا، تمتد أعمالها لما قبل سنوات الانفصال، ولذلك يصعب على المرء أن ينفصل عن إطار التجارة المحيط بحياته. هناك طبعًا من يمكن أن نسميهم طبقة الموظفين، الذين يوجهون لنا - نحن الأثرياء غير المثقفين - نظرة ازدراء. والحقيقة أننا نحن أيضًا نبادلهم النظرة ذاتها. لأنهم لا يملكون المال الكافي، ولا البيوت الكبيرة المتسعة؛ ولكن يجب أن أضيف أنهم في هذه الأيام، بكل الرشاوى التي يتلقونها، صاروا يعيشون حياة رغيدة. لمعظمهم منازل ضخمة على أطراف المدينة. لديهم بعض الممتلكات الموروثة أيضًا، كما أعتقد. فبعض العائلات السخية، حتى من لا تبدو عليهم أمارات الثراء، يمتلكون مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية في بلداتهم وقراهم.

كانت مسز "ساتشديفا" تنصت إليها في اهتمام واضح. واصلت الفتاة كلامها:

- لكن الفجوة بين طبقتنا والطبقات الأخرى لا تزال عميقة. ربما كنت أحاول سدّها بطريقتي الخاصة.

تنهدت المرأة الأكبر سنًا بارتياح، وقالت:

- أنا معجبة بكِ فعلاً. ربما كان من الأنسب أن تحصلي على شهادتك العليا في مجال الأنتروبولوجيا. لديك القدرة على تحديد موقعك وأسرتك في المجتمع بموضوعية كبيرة.

ابتسمت "رينا". في تلك اللحظة، دخل "راجو" حاملاً صينية يعلوها كوبان من الشاي، ووعاء عميق من الزجاج اللامع يمتلئ بالمكسرات. قدمت الفتاة الشاي لضيفتها، وواصلت كلامها:

- بين الأدب والأنثروبولوجيا علاقة متينة. أرجو فقط أن أحقق شيئاً ما. أو أن أفهم على الأقل منطق الأمور، ولكن في مجتمع غريب ومتعدد الطبقات مثل مجتمعنا فإن هذا أمر بالغ الصعوبة.

ظنّ "رامتشانند" أنه فهم شيئاً من هذا الحوار. على الأقل الجزء الخاص بفهم منطق الأمور. لكنّ المرأتين انخرطتا في حديث مطوّل عن "مرحلة ما بعد الاستعمار".. وعن نماذج وتبعات الفقر، والكتابات الهندية المتأثرة بالإنجليزية.. والكثير من الموضوعات الأخرى التي مرّت عبر أذنيّ "رامتشانند" دون أن يفهم منها شيئاً. أحسّ بالحزن والضيق، ثم تنبّه إلى أنه لم ينته بعد من حفظ القاموس. طمأن نفسه بأنه حاملما ينتهي من ذلك، سيكون قادراً على فهم "ما بعد الاستعمار".. وكل المفردات والعبارات العجيبة الأخرى. حين توصل لهذه القناعة، زايله الإحساس بالضيق.

نظرت مسرّ "ساتشديفا" لساعتها وقالت:

- يا! لقد مرّت نصف ساعة كاملة يا عزيزتي! لم يكن في نيّتي أن أبقى لديكم كل هذا الوقت.

أضافت وهي تلتفت صوب "رامتشانند" بنظرة عابرة:

- لقد أفسدت بزيارتي هذه عملية الشراء التي كانت ستبدأ قبل حضوري، كما يبدو.

لم تتعرف إلى "رامتشانند"، ولم تدرك أنه البائع الذي فرد أمامها مئات "السواري" من قبل،

ولم تعرف أنه المسكين الذي يصاب بالصداع في كل مرة يبيعه شيئاً.

وقفت وبدأت في ترتيب ثياب "الساري" الذي ترتديه، وقالت معتذرة:

- أرجو ألا أكون قد أزعجت والدتك ببقائي كل هذه المدة.

أجابتها "رينا" مبتسمة:

- أبداً.. إطلافاً. أنا شخصياً أحبّ الزيارات غير المخطط لها، أكثر من تلك ذات الطابع

الرسمي. ستحضرين حفل الزفاف بالتأكيد، أليس كذلك؟

قالت مسر "ساتشديفا":

- بالطبع يا عزيزتي.

وضعت يدها على كتف "رينا" وأضافت:

- في بعض الأحيان يتحول التدريس إلى مهنة رتيبة ومضجرة. وأسأل نفسي في نهاية اليوم

عمّا إذا كان هناك ما يستحق كل هذا الجهد. لكن العمل معكِ كطالبة، كان ممتعاً حقاً.

سوف أتابع أعمالك المستقبلية وإنجازاتك بكل اهتمام. أرجو فقط أن لا تسمحِي يا "رينا"

لأمور الحياة العادية بأن تطغى على الأشياء الحقيقية الصادقة.

أجابت "رينا" بتصميم عظيم:

- أبدأ.

دخلت مسز "كابور" الغرفة. ابتسمت لها الزائرة، وهي تودعها. استعادت "رينا" أسلوبها العملي السريع، الذي يجعلها شديدة الشبه بأمها. اختارتا ما تريدان بسرعة. غادر "رامتشانند" راكبًا الدراجة، وهو يستعيد في ذهنه كل الكلمات التي سمعها اليوم، محاولاً فهم المزيد من الحوار.



مساء السبت، أولاً له "هاري" وراح يغمز بعينه ويشير له بأن يذهب إلى الزاوية البعيدة من الدكان. حين ذهب "رامتشانند" إليه، قال "هاري" هامسًا:

- لديّ ثلاث تذاكر لفيلم "كاهو نا بيارهيه" لعرض العصر غدًا في سينما "سانجام". إنهم يعيدون عرضه طوال هذا الأسبوع. لا أدري لماذا لا يحضرون لنا أبدأ الأعمال الجديدة التي نسمع عنها؟ على كل حال، أنا أحب هذا الفيلم ولا أمانع في مشاهدته في أيّ وقت. ما رأيك؟ هل ستأتي معي أنا و"سوباش"؟ كان "رامتشانند" على وشك الرفض. ألم يعقد النية على عدم إضاعة وقته أيام الأحاد في مشاهدة الأفلام مع "هاري"؟ لكنه كان يدرس باجتهاد طوال الفترة الماضية. ستكون فرصة يلتقط فيها أنفاسه. قال هامسًا:

- نعم.. لا بأس.

قال "هاري":

- صباحًا، سنشاهد أنا و"سوباش" فيلم "غدر". إنه جديد. هل ترغب في الذهاب معنا؟ يفترض أنه عمل ضخم وناجح جدًا. لم نحصل على التذاكر بعد، لأنه يعرض في سينما "أدرش". الذهاب إلى هناك لحجز تذاكر، ثم العودة ثانية،

سيستغرق النهار كله. مسافة طويلة جداً. قررنا أن نجرب حظنا ونذهب غداً. لعلنا ننجح في

الحصول على مقعدين. ليتك تأتي معنا.

أجابه "رامتشانند" بتردد:

- ولكن، فيلمين في يوم واحد؟

قال "هاري" بهرح:

- ولمَ لا؟! فكر "رامتشانند" قليلاً، ثم تذكر القرارات التي كان قد توصل إليها. وقال لنفسه

بأن معظم أفلام الممثل "ساني ديول" مليئة بمشاهد دموية عنيفة لا تعجبه أصلاً، فقال:

- كلاً.. اذهبوا أنتم لمشاهدة "غدر". سأقابلكم أمام "سانجام" لنحضر معاً عرض "كاهونا

بيارهيه". سأكتفي بفيلم واحد فقط.

- لكنك شاهدته من قبل يا أخي!

- صحيح، لكنني نسيت الكثير من أحداثه، فأنا لم أشاهده مئة مرة كما فعلت أنت! كما

إنني أحب جميع أغنياته. والحقيقة أن "غدر" كلّه عنف. لقد رأيت صورته وملصقاته.

فكر "رامتشانند" بأنه سيستغل فترة الصباح في قراءة كتبه واستذكار قدر من الدروس،

ليستطيع أن يخرج العصر بضمير مرتاح وبال رائق.

هزّ "هاري" كتفه باستسلام وقال:

- حسناً.. كما تحبّ.

في ساعة مبكرة من اليوم التالي، غسل "رامتشانند" ملابسه ونظّف حجرته وقام بالاستحمام بعدها، ثم جلس في هدوء ممسكًا كتاب التعبير. بدأ يقرأ موضوعًا عنوانه: "العلم: نعمة أم نقمة؟". صار بإمكانه الآن أن يقرأ بسهولة أكبر.

"طوّر العلم أمورًا كثيرة لخدمة الجنس البشري. بسبب العلم، تطورت مجالات الطب والتكنولوجيا بشكل كبير، فتّمّ التوصل لعلاج الكثير من الأمراض. كما ساهم العلم في تيسير أمور الحياة اليومية، مثل توفير جميع الأجهزة المنزلية. قام أيضًا بحلّ العديد من مشكلاتنا". ولكنّ لكل عملة وجهين..

"قد يكون العلم نعمة، لكنه في بعض الأحيان نقمة أيضًا. فبسببه، هناك تلوث، وهناك حروب. الأكياس البلاستيكية وغازات المصانع تدمّر البيئة. السموم تختلط بمياه الشرب. لذلك يتوجب علينا استخدام العلم بحرص بالغ".

جملة واحدة أثارت إعجاب "رامتشانند" بشدّة، وأحس بأنها عميقة جدًّا: "لكل عملة وجهان".. نعم.. هناك دائمًا طريقتان للنظر إلى الأمور والحكم عليها. لم يخبره أحد بذلك أبدًا. فبالنسبة لكل من حوله.. "جوكل" و"مهاجان" و"هاري" و"شيام" و"راجيش" وصاحب البيت (كان من النادر أن يتحدث مع "تشاندر").. فإن الأشياء والأوضاع عندهم إما جيدة فقط أو سيئة فقط. لكن هذا أسلوب جديد في النظر للأمور. أعجبه جدًّا. أتّب نفسه. كان عليه أن يدرك هذه الحقيقة بنفسه، فقد مرّت أمامه أمثلة كثيرة في الدكان، تذكرها الآن.. فمثلاً إذا رفضت زبونة أحد "السواري" وألقته جانبًا بإهمال، سارعت زبونة أخرى بالتقاطه على الفور ودفع ثمنه.

قال لنفسه إنه ولكثرة مشاهدته لهذا الموقف المتكرر، كان ينبغي عليه أن يتوصل لهذه النتيجة. "لكل عملة وجهان"، لكنه يفتقر للتفكير الأصيل!

يا لتكوين الجملة البديع! "لكل عملة وجهان" .. يا لجمال التعبير!
دونها في دفتره، بخط يتحسن كل يوم.

ظلّ ينظر إلى الساعة كل قليل. العرض يبدأ في الثالثة. عند تمام الساعة الثانية، مشط شعره مرة أخرى، ووضع بعض النقود في محفظته ليسدّد لـ"هاري" ثمن التذكرة. دس عبوة مرهم "زاندو" المسكّن للألم في جيبه، تحسّبًا لإصابته بالصداع.

ثبّت القفل على باب حجرته، وهبط السُّلم. وجد الكلب الأجرّب الذي يقطن شارعهم مستلقياً على عتبة الباب الخارجي. تخطاه بحرص، وسار باتجاه السينما.
الأسواق مغلقة. تمدّدت الكلاب الضالة في الطرقات طلباً للدفا.

تهادت سيارات قليلة، تحمل أفراد الأسر المقيمة في الضواحي الجديدة، البعيدة قليلاً، وقد أتوا - كما كل يوم أحد - لوسط المدينة لزيارة المعبد الذهبي وتناول وجبة في أيّ من المطاعم الشعبية المشهورة عقب ذلك.

أمّا خارج دار السينما، فقد تزاхمت جموع الناس المتدافعين حول شبّاك التذاكر، كما نصبت لوحة إعلانات ضخمة لبطليّ الفيلم "هريتيك روشن" و"أميشا باتيل"، وقد تم رسم وجهيهما بشكل سيئ وبلون مائل للأحمر.

حاول "رامتشانند" البحث عن "هاري" و"سوباش".

سرعان ما رأهما يلوّحان له من وسط البشر المتزاحمين. أسرع بالانضمام إليهما:

- يا أغبياء!! مالكما تقفان وسط الزحمة هكذا؟!!

قال "هاري":

- نحن الأغبياء؟! هل تظن أننا تعمدا الوقوف هنا يا ذكي؟ كان المكان هادئًا ثم تكاثر

الناس من حولنا ووجدنا أنفسنا في منتصف هذه الأعداد الغفيرة.

تبادل الثلاثة الضحكات والشتائم، وراحوا يضربون بعضهم في مزاح.

وهكذا، كانوا في المزاج الملائم للاستمتاع بالفيلم معًا.

قال "رامتشانند" وهو يتابع الأمواج البشرية المتلاطمة أمام شبك التذاكر:

- الحمد لله أن تذاكرنا معنا.

قال "هاري":

- صحيح. لقد تعذبنا صباح اليوم إلى أن استطعنا، أخيرًا، الحصول على تذكرتين لفيلم

"غدر".

سألها "رامتشانند":

- كيف كان؟ هل أعجبكما؟

أجابه "سوباش":

- ممتاز! عمل عظيم! وآه من "ساني ديول" يا أخي! أعتقد أنه لو قابل مجموعة من

الباكستانيين في الحقيقة لما تردد في أن يوسعهم ضربًا، كما فعل معهم في الفيلم!

قال "رامتشانند":

- ولهذا السبب أنا لا أحبه.

سأله "هاري" مستنكرًا:

- لماذا؟ ألا تظن أن الباكستانيين يستحقون الضرب؟

تملّص "رامتشانند" من الإجابة:

- يا سيدي ما لنا وما لهم الآن؟ دعونا نسأل إن كان الدخول للقاعة قد بدأ.

كان الدخول قد بدأ فعلاً. دلف الثلاثة إلى القاعة المظلمة، ذات الجدران القذرة المبقعة،

والأرضية المغطاة بقشور الفول السوداني وأكياس الـ"شيسي" الخاوية.

الجلوس هنا لا يتم وفقاً لأرقام المقاعد، ولذلك دار نضال شرس بين الحضور للحصول على

الأماكن التي يرغبونها. جلسوا أخيراً في انتظار بدء الفيلم. توسط "هاري" رفيقيه، وأخرج كيساً

من الفول السوداني من جيبه. بدأوا في تكسير القشور الخارجية ومضغ ما بداخلها وهم

يتبادلون الحديث والضحك.

رفع "هاري" و"سوباش" أقدامهما على ظهور المقاعد أمامهما، وبدأ الأخير يسرد عليهما

بعض القصص المسلية عن "ليديز فانسي ستور".

- منذ بضعة أيام، دخلت امرأة لتشتري زوجاً من الأقرط. بعدها بدقائق،

دخلت سيدة أخرى لتبتاع مجموعة من الأساور. وفجأة سألتنا معاً عن سعر

أباجورة خضراء ذات حواف ذهبية. وحين قلنا إنها القطعة الأخيرة في الدكان، لن

تصدّق ما فعلته! أخذتا تتعاركان وتتشاجران كما الكلاب المسعورة! لم نعرف

كيف نتصرف، وبخاصة حين بدأنا في تبادل السباب والشتائم. ما هذا؟ كل ذلك من أجل أباجورة؟! النساء كائنات عجيبة والله. لديهن القدرة على ارتكاب أي حماقة!
قال "هاري":

- أما نحن، فلا نشهد شجارات مثل هذه لدينا في الدكان. أليس كذلك يا "رامتشانند"؟
أضاف ضاحكًا:

- يبدو أنك أنت السبب يا "سوباش" إذًا.. وجهك القبيح يثير عصبية الزبونات ويجعلهن في حالة مأساوية!

لكمه "سوباش" ممازحًا، ثم انفجر في الضحك ومعه "رامتشانند". انطلقت قهقهات "هاري" حتى كاد يختنق بحبة فول سوداني.
قال "سوباش":

- وأتتنا زبونة أخرى، وانحنت لتتفحص بعض دبابيس الشعر المعروضة على الرف السفلي.. بينما رحّت أنا أتفحص ما ظهر من الفتحة المتسعة لبلوزتها!
ضحك "هاري" بصوت مرتفع، لكن "رامتشانند" كان أكثر تحفظًا. قال "هاري" لابن عمه بجديّة مصطنعة:

- أرجو أن تتخيّر حكاياتك بعناية، فالقدّيس "رامتشانند" لا يحب هذه النوعية من القصص من فضلك.

ابتسم "رامتشانند" وقال بهدوء:

- لا.. الأمر ليس كذلك بتاتاً.

كان يفكر في "سودها" في تلك اللحظة. ما الداعي لأن يتصرف الإنسان بغباء وحماسة كلما رأى امرأة؟ "سودها" تكفيه.

أظلمت القاعة تماماً، وأصبحت حالكة السواد. قال "هاري":

- سيبدأ الفيلم حالاً.

تتابعت أسماء الممثلين على الشاشة، وبدأ المشاهدون في التصفير وضرب الأرض بأقدامهم طرباً لأغاني الفيلم التي يعرفونها جيداً، لتكرار عرضه منذ ظهوره الأول قبل عامين. اشترك "هاري" و"سوباش" مع الجمهور المستمتع. قال "رامتشانند" بانزعاج:

- ما هذا؟ توقفا الآن رجاءً.

قال "هاري" بدهشة:

- ما الأمر يا أخي "رامتشانند"؟ لقد جئنا لنستمتع بوقتنا. إننا نجلس في الدكان بمنتهى الهدوء ستة أيام في الأسبوع.. من حقنا أن نمرح قليلاً.

استسلم "رامتشانند" ولاذ بالصمت.

البطل عازف جيتار فقير، والبطلة فتاة ثرية، يرقصان وسط مجموعة من الشباب المتأنقين والفتيات النحيلات على سطح سفينة. يظهران بعدها على جزيرة بمفردهما، ويتصارحان بحب كل منهما للآخر، فتبدأ الأغنية الرئيسية التي يحمل الفيلم اسمها. تأمل "رامتشانند" تفاصيل المشهد بسعادة. مال نحو "هاري" قائلاً:

- انظر إلى مياه المحيط.. كم هي زرقاء ومترامية الأطراف. تخيل لو أنك على جزيرة ولا شيء حولك سوى هذه المياه الجميلة والسماء الصافية.

قاطعته "هاري" بسرعة:

- اخرس أرجوك! أي ماء وأي سماء؟ انظر يا أخي إلى ساقِي "أميشا باتيل"، ما هذه

الروعة؟!

أحس "رامتشانند" باستمتاع بالغ وهو يستمع للموسيقى المتميزة للأغنية، فيما ارتفع صوت "هاري" بالغناء، وشاركه "سوباش" بتريديد الكلمات التي يحفظها الجميع. نظرت إليهما امرأتان تجلسان على بعد ثلاثة أو أربعة صفوف نظرات حادة تُنبئ عن ضيقهما البالغ. قال "رامتشانند" بحرج بالغ:

- "هاري"! اخرس! لقد تضايقتا من غنائكما. السيدات ينزعجن من غناء الجمهور ويجدن

أن ذلك عدم احترام لوجودهن.

أجابه "هاري":

- وما دخلك أنت بهن؟ لماذا تخاف على مشاعرهن؟ هل هن زوجات أبنائك مثلًا وأنا لا

أدري؟!

واصل الغناء، واندفع يصيح مع الآخرين:

- "كاهونا بيارهيه".

و مرة أخرى، استسلم "رامتشانند".

خلال الاستراحة، تناول كل واحد منهم كوبًا من الشاي وحبّة "ساموسا". ثم ذهب "رامتشاند" للحمام. كانت الرائحة هناك مقززة بطريقة تفوق الوصف. أخرج عبوة المرهم من جيبه ومسح القليل منه على جبينه للقضاء على الصداع الخفيف الذي بدأ يشعر به. بقية الفيلم مشوقة جدًا. يُقتل البطل على يد مجموعة من الأشرار، ثم يظهر شخص يشبهه تمامًا، ويقدم رقصة جميلة في نادٍ ليلي، مرتديًا ملابس سوداء ضيقة، تظهر رشاقته. امتلأ الفيلم بمناظر طبيعية مذهلة؛ جبال، ومساحات شاسعة من الخضرة، وشوارع فائقة النظافة أحبها "رامتشاند" جدًا.

تساءل في نفسه:

-أين تقع هذه الأماكن؟ وأي أناس محظوظين يعيشون فيها، ويتمتعون كل يوم في حياتهم بهذا الجمال المبهر؟

حين عاد إلى حجرته، كان يشعر بحزن عظيم يثقل قلبه. فبعد الانفعالات المختلفة التي أحس بها وهو يتابع الأحداث، وبعد المناظر الطبيعية الساحرة، والأغاني الجميلة، وزحام الناس. بدت حجرته هادئة جدًا. غمره إحساس فطيع بالوحدة.

كان "هاري" قد عرض عليه أن يتنزه معهما حتى حلول الليل، ليذهبوا بعدها ويتناولوا عشاءهم لدى "لاكان". لكنه اعتذر قائلًا إنه يعاني من ألم في رأسه ولا يشعر برغبة في التنزه. قال له "سوباش" بأنه يتصرف كامرأة عجوز. ابتسم وتركهما متوجهًا لمسكنه.

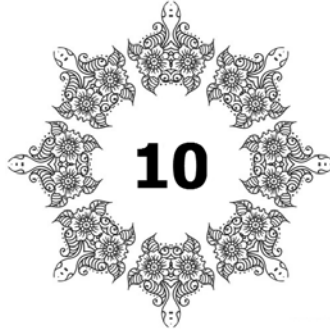
فتح الشباك الخلفي فور وصوله، ونظر منه إلى الطابق الأرضي. رأى غرفة المعيشة المريحة، الدافئة، وقد اجتمع فيها كل أفراد الأسرة. جلس الأب على الكرسي، فيما تجاور الصغار الثلاثة على الأريكة، وقد غطوا سيقانهم بلحافٍ ثقيل.

انتقل ببصره لنافذة المطبخ. رأى "سودها" واقفة أمام وعاء يغلي على الموقد. انعكست النار على قرطها الذهبي، فبدأ كحشرة مضيئة تحط على أذنها. دخلت الغرفة التي تجلس فيها أسرته، وهي تحمل صينية وضعتها على الطاولة. عليها كوبان من الشاي لها ولزوجها، وثلاث كؤوس طويلة من الحليب المضاف إليه مسحوق الشعير "هورليكس". يعرف "رامتشاند" ما في داخل الكؤوس، لأنه كثيراً ما رآها تغسل برطمانات "هورليكس" الزجاجية بعد أن تفرغ، ثم تملؤها بالعدس أو الملح أو التوابل المختلفة.

كانت تغطي جسمها الدافئ بثوب قصير وسروال لهما قماش سميك، وتحيط كتفيها بشال من الصوف البني، لفته حولها بإحكام.

تزايد إحساسه بالحزن، وشعر برغبة واشتياق لأن يتمتع بذلك الدفء الذي يولده الشال في جسدها.

دفعاً زوجها أصابعه على السطح الخارجي لكوب الشاي، قبل أن يرتشفه بتلذذ واستمتاع. ارتجف "رامتشاند". تسللت البرودة الشديدة إلى حجرته. أغلق النافذة. أحس بأن حجرته عارية، وأنها خاوية جداً.



في أحد الأيام، تغيّب "تشاندر" عن العمل. تذرّم "مهاجان" قليلاً، لكنه لم يفعل أكثر من ذلك.

لم يحضر في اليومين التاليين أيضاً، ولم يبعث برسالة مع أحد توضّح أسباب تغيّبه. في اليوم الثالث، بدا "مهاجان" في حالة من الغيظ الشديد، وراح يوبّخ كل من يمرّ منهم أمامه طوال الصباح. قال لـ"هاري" أن أيّ قرد جاهل يستطيع أن يعمل بطريقة أفضل منه بكثير. علّق "هاري" بعد ذلك بأنه سيطلب من "مهاجان" أن يعرفه على قرد متعلم، وأنه شخصياً يفضّل أن يكون ذلك القرد من حملة الماجستير! أحس "رامتشاند" بالتوتر عند سماعه ذلك، وبخاصة أن "هاري" تحدّث بصوت مرتفع. قال له مؤنّباً:

- اصمت تماماً. ستجعله يفقد أعصابه أكثر بتعليقاتك السخيفة، وهذه الابتسامة العريضة التي تملأ وجهك.

ضحك "هاري" بعدم اكتراث وواصل عمله وهو يدندن بالغناء.

حرص "رامتشانند" طوال الصباح على ألا تلتقي عيناه بعيني "مهاجان". ظل يعمل بهدوء

تام وصمت كامل، ورغم ذلك، مع ساعات الظهيرة الأولى، صاح "مهاجان" فجأة:

- "رامتشانند!"

كاد أن يصاب بإغماءة من شدة الفزع. ذهب إليه وهو يفرك يديه ببعضهما في قلق،

وقال بتهذيب بالغ:

- نعم يا سيدي؟

قال "مهاجان" بعصبية:

- سأعطيك الآن عنوان "تشاندر"، وأشرح لك كيفية الوصول إلى هناك.

واصل كلامه وقد علا صوته بغضب:

- اذهب فوراً لتكتشف أسباب غياب هذا الفاشل.. واسأله بالمرّة إن كان يظن أن هذا

دكان أبيه ليأتي ويذهب وقتما يشاء سيادته! قل له أن يحضر ليراني بأسرع ما يمكن.

أحس "رامتشانند" بارتياح كبير عقب ما سمعه، واسترخى جسده المتوتر، فقد كان متأكداً

من أن "مهاجان" عرف بأنه لم ينفذ أوامره المتعلقة بتنظيف بعض الرفوف؛ لكنه في الوقت

ذاته أحس بالشفقة حيال "تشاندر".

أنصت بتركيز لـ"مهاجان" وهو يصف تفاصيل الطريق الذي ينبغي أن يسلكه للوصول إلى هناك. حين انتهى قال بصوت هادر:

- والآن.. أعد على مسامعي كل ما قلته. أودّ أن أتأكد من أنك فهمت جيداً ما قلته للتوّ. لا أريدك أن تضيع في الطرقات، فأضطر لإرسال شخص آخر للبحث عن سموك.. ثم تخرجون الواحد تلو الآخر، لبيحث بعضكم عن بعض! والله إنني أتساءل أحياناً إن كنت حقاً أدير دكاناً للأقمشة أم مستشفى للمجانين؟!

كرر "رامتشانند" ما قاله مديره منذ لحظات، وهو يشعر بالاضطراب. أي كلمة خاطئة ستثير حنق "مهاجان"، الغاضب أصلاً.

أنصت "مهاجان" لما يقوله، وهو يومئ برأسه مصدقاً على ما يسمعه. انتهى "رامتشانند" أخيراً، وغادر شاكراً، وهو لا يصدق حظه الطيب الذي جعله بعد سنوات من بقائه محبوباً بين جدران الدكان، يخرج بصورة متكررة لقضاء مشاوير مختلفة. منزل "كابور" في البداية، والآن بيت "تشاندر". صحيح أن هذا المشوار الأخير يفتقر لأي إثارة أو تشويق، لكنه أفضل من الجلوس بالساعات داخل الدكان.



يبعد بيت "تشاندر" عن الدكان بمسافة كبيرة. يقع في الأحياء الأكثر فقراً، في الجزء الداخلي من المدينة. سار "رامتشانند" لنصف ساعة متواصلة. كلما اقترب من تلك المناطق الداخلية، تزايد الازدحام، وأصبحت الشوارع والأماكن أكثر قذارة.

رأى "رامتشاند" زقاقًا ضيقًا، يقع على جانبه معبد صغير للإله "هانومان"⁽⁴⁾، تمنى أن يكون هو المعبد الذي وصفه "مهاجان". واصل سيره، ومرّ بجواره، سمع أصوات ترانيم وصلوات، وأجراس تقرع بشكل متواصل.

ولج إلى الزقاق بالغ الضيق. ليس سوى شقّ بين بضع بنايات صغيرة، يزدحم بأناس يحاولون اختراق الأجساد الكثيرة المترصّة التي وجد "رامتشاند" نفسه وسطها. اقتربت منه امرأة ذات وجه لامع، تحمل أكياسًا ممتلئة بالخضراوات، وحاولت أن تمر بسرعة، فلكرته بكوعها بقوة. أوشك على السقوط، فمدّ ذراعه بطريقة غريزية ليستند إلى أيّ شيء، ودون قصد اصطدمت يده بصدر امرأة تلبس ثيابًا رخيصة من اللون الأخضر، وتضع وشاحًا من قماش النايلون الأسود. التفتت إليه بقوة وصاحت بغضب:

- يا ابن الحرام. هل أنت أعمى يا ابن الكلب؟

نظقت تلك الكلمات بحنق، وكأنها تبصق على وجهه في احتقار. شلّته الصدمة تمامًا، فلم يقوَ على الحركة أو الكلام. ظل واقفًا، يحملق فيها بصمت. أوشك على أن يعتذر لها. حاول أن يتكلم. احتبس صوته. هناك شيء وحشي في وجهها المتحجر. تتقاطع على سطحه خطوط عميقة، رغم أنه متأكد من أنها لا تتعدى الثلاثين بأيّ حال من الأحوال، إن لم تكن أصغر. كان جسدها مشدودًا ومتوترًا من فرط الغضب. واصل "رامتشاند" النظر إليها وقد فغر فمه قليلاً. التقت عيناهما. حدقت به وهي ترتجف من شدة الغيظ. تحركت جموع الناس، وألفت نفسها تتحرك معهم.

(4) هانومان: إله هندوسي على هيئة قرد، يتميز بالشجاعة والقوة والإيمان.

ظل "رامتشاند" شاخصاً إلى ظهرها حتى غابت في الزحام.

واصل سيره وقد تسارعت نبضات قلبه وغمره إحساس بخوف غامض، والكثير من القلق والتوتر. سار في الأزقة والحارات على غير هدى، دون انتباه. وأخيراً، قرر أن يتمالك أعصابه.

توقف حين لمح كشك شاي. قال لنفسه بأنه طالما خرج من الدكان، فلم لا يحظى بشيء من المتعة بالمرّة؟ كوب من الشاي الساخن كفيلاً بتهديته. ارتشف كوباً، ثم تناول بضع حبات "باكورا" ساخنة، كان البائع يقلبها داخل الكشك. اختتم ذلك بكوب آخر من الشاي. أحس بالنعاس وهو يمضغ الـ"باكورا" الساخنة ذات الرائحة الشهية الخلابّة، تحت أشعة الشمس الدافئة.

بعد نصف ساعة، غادر الكشك وهو يشعر بتحسّن كبير. أخذ يسأل الناس عن العنوان. في النهاية، وجد نفسه - ثانيةً - في أول الزقاق، بجوار معبد "هانومان". واصل سيره إلى أن وجد نفسه أمام منزل "تشاندر". أحس بصدمة. المسكن أقرب للجحر منه إلى البيت. بدا متداعياً، كما لو كان سينهار في أي لحظة. صحيح أن البائعين العاملين في المتاجر والدكاكين من الفقراء، لكن فقرهم لا يصل لهذه الدرجة من البؤس. ثم إن "تشاندر" ليس له أولاد ينفق عليهم دخله، ليكون بهذا العوز.

لطالما ظن بأن الشارع الذي يقطن فيه هو أكثر الأماكن قذاراً، لكنه اكتشف للتوّ أن هناك ما هو أسوأ. هذا الشارع الذي تفيض فيه مياه المجاري ذات الرائحة الكريهة المقرزّة، والتي تطفو على سطحه القاذورات السوداء اللزجة.

قرع الباب ووقف منتظرًا وهو يأمل أن يكون قد نجح في الوصول للبيت الصحيح. أحس بأن الباب المتهالك يوشك على السقوط. قرعه مرة أخرى. سمع صياحًا آتيًا من الداخل. فكر بدهشة بأنه لم يسمع أبدًا "تشاندر" وهو يتحدث بصوت مرتفع من قبل. إنه أحد أطف وأهدأ الرجال الذين قابلهم في حياته. فُتح الباب فجأة، بقوة كبيرة، وظهر "تشاندر" واقفًا وقد التوت قسماً وجهه من الغضب. استعاد شيئاً من ملامحه المألوفة حين رأى "رامتشاندر". قال بنبرة معتذرة:

- ماذا هناك؟

كان "رامتشاندر" على وشك أن يجيبه، حين مدَّ بصره إلى داخل الحجرة. هناك، جلست امرأة ضعيفة في أحد الأركان، وقد انطبعت علامات كفوف، بوضوح على وجهها. مخلّفة آثارًا حمراء. سقط غطاء رأسها الأسود على الأرض وظهر شعرها الأشعث. غطت الدموع وجهها، وسال الدم من زاوية فمها المجروح.

أدرك أنها المرأة سليطة اللسان التي تشاجرت معه في الطريق منذ قليل. بدت مختلفة الآن. ضعيفة ومنكسرة. أصبحت الخطوط على وجهها أكثر عمقًا. أما عينها فخاويتان، مظلمتان. لم تتحرك ولم تتكلم. حوّل "رامتشاندر" نظره عنها.

أحس فجأة بأنه يرى "تشاندر" للمرة الأولى. شخص غريب لا يعرفه. خاطبه بوجَل:

- إنهم في الدكان.. أعني أنهم يسألون هناك متى ستأتي؟

غمغم "رامتشاندر":

- سأذهب.. آه.. غدًا. إنني مريض. قل لـ"مهاجان" بأني مريض. سأتي صباح الغد بكل

تأكيد.

انبعثت من أنفاسه رائحة كحول قوية. لاحظ "رامتشاند" عينيه الحمراوين. قال له:

- حسناً.

لم ينظر للمرأة مرة أخرى، رغم وجودها الذي فرض نفسه بقوة على المكان، كأنها

المخلوق الوحيد في الكون بأكمله. قبل أن يستدير مغادراً، قال:

- أراك غداً إداً.

ظلت المرأة ملقاة في ذلك الركن بجوار صندوق معدني قديم.

لبقية اليوم، ظل "رامتشاند" يشعر بالاضطراب.



ذلك المساء، غادر الدكان بمفرده. لم تكن لديه أي رغبة في الحديث مع أحد. ورغم أن

الوقت كان لا يزال مبكراً على تناول العشاء، توجه إلى مطعم "لاكان" قبل ذهابه لحجرته.

حين وصل، وجد الرجل العجوز يحاول إشعال الفرن. قال له فور دخوله:

- اجلس يا "رامتشاند". سيستغرق هذا بعض الوقت.

لم يكن في المطعم إلا رجل واحد يشرب الشاي في أحد الأركان.

جلس "رامتشاند" مستغرقاً في التفكير. لم يستطع أن يحو صورة زوجة

"تشاندر" من خياله، منذ رآها، حتى بعد أن تركها بمنتهى القسوة ملقاة

هناك. ما الذي كان سيفعله؟ المرأة زوجة "تشاندر" على كل حال، وليس

بإمكانه أن يتدخل في حياة الرجل الأسرية. لكنه يريد الاطمئنان عليها.. ليت بمقدوره أن

يعرف إن كانت على ما يرام الآن. وإن كانت قد توقفت عن البكاء.

اشتعل الفرن الطينيَّ أخيرًا، وألقى بظلاله الحمراء على وجه "لاكان" المتعب.

يتعمد "رامتشانند" تجنّب أيّ حوار معه، حتى لا يجزّهما ذلك للحديث عن ولديه

المتوفيين. لكنه اليوم، ربما بسبب اضطرابه وانشغال باله، وجد نفسه يسأله دون تدبير:

- كيف حالك؟

رفع الرجل رأسه وقال بهدوء:

- عيد ميلاد ابني اليوم. الولد الأكبر.

لم يقل "رامتشانند" شيئًا سوى:

- أوه..

ثم التزم الصمت. شرب كوبًا من الشاي، وتناول رغيفين من الخبز، وصحن من الخضار

المشكّلة المطبوخة.

إنه يسرف في تناول الشاي، ويدمنه تقريبًا، فهو علاجه في كل مرة يشعر فيها بصداق

في رأسه، وهو ردّ فعله على أيّ اضطراب يشعر به، وعلى توبيخ "مهاجان" له. يعرف جيدًا

أنه لا ينبغي عليه شرب تلك الكميات الهائلة منه، وخصوصًا أنه يسبب له الحموضة في

كثير من الأحيان، لكنه لا يدخن ولا يشرب أيّ نوع من الخمور، ولذلك فإنه متعته

الوحيدة في الحياة.

تحرك "لاكان" في أنحاء المطعم، يشرف على الأمور المختلفة، يتحدث إلى مساعديه، يتحرك بألية، بعينين مطفأتين. كعيني رجل ضرير. حين اقترب منه، استجمع "رامتشانند" شجاعته وسأله:

- كيف حال زوجتك؟ هل هي بخير؟

عند سماعه ذلك، تهاوى القناع المتناسك الذي يضعه "لاكان" على وجهه..

- كلاً. ليست بخير. لقد مرّ على القصة نحو خمسة عشر عاماً أو أكثر، لكنها تأتي النسيان. أنا آتي إلى هنا، وأعدّ قدور العدس، وأطبخ الخضراوات وأقطع الكزبرة وأصنع صلصة التعناع.. وأضيف السكر للأرز بالحليب. وأنهمك في تقليب طبخاتي إلى أن أنسى؛ أما هي.. فتظل في الداخل تكي بالساعات وهي تقبل صورهما، وتستعيد كل ما مرّ بهما من أحداث ومواقف. تتحدث عن اليوم الذي خطا فيه الولد الأكبر خطوته الأولى، وتتذكر كيف غمرتنا السعادة في تلك اللحظة، فقررنا أن نذهب به للمعبد الذهبي لتتلقى البركة نحن الثلاثة. تستعيد ذكرى مرض ابننا الأصغر، حين خرج مع ولد من أصدقائه وقاما بشراء بعض الحلوى من أحد الباعة الجائلين، وكيف أمضى الليلة وهو يتقيأ ويعاني من إسهال حادّ. لقد كدنا نموت من القلق عليه. وحتى بعد أن شفي تماماً، لم يفارقنا خوفنا عليه، فظللنا نتناوب على الاستيقاظ فجراً، لنغلي له الماء، بحيث يجد ماءً معقماً يشربه بارداً حين يصحو من نومه. تظل تستعيد هذه الذكريات وغيرها، طوال الوقت. لا تنسى.. ولا تتيح لي فرصة للنسيان. هل تعلم كيف حدث ذلك؟

أحس "رامتشانند" بانقباض حادّ في معدته. لا يريد أن يعرف. لكن الوقت قد فات، ولم يعد بإمكانه أن يتراجع الآن..

واصل "لاكان" كلامه بصوته الهادئ الريب:

- لو أننا كنا نعرف، ذلك الصباح، أن اليوم سينتهي بتلك الطريقة البشعة، لكننا على الأقل قمنا بالدعاء والصلاة وطلب بركة "جورو ناناك"⁽⁵⁾. لكن، كيف كان ذلك سيغير من الأحداث أصلاً؟ كل ما جرى تمّ في المعبد. بيت الإله أساسًا. سمح بذلك، ولم يمنع الأذى عن صغارنا. نشعر بالغضب تجاهه أحيانًا. نكفّر به في أحيان أخرى. ثم نخاف. ماذا لو أن أرواح ولدينا بمعيتته الآن؟ هل سيعاقبنا على عدم إيماننا، بإيذائهما؟

أضف:

- الواقع إنهما لم يذهبا للمعبد يومها، بغرض الصلاة. كل ما في الأمر أنه كان نهارًا بالغ الحرارة، وكانا يشعران بالضيق لوجودهما داخل المنزل. وكما أتذكر، فإن الحرارة جعلتنا كلنا نشعر بالانزعاج، وكنا جميعًا في مزاج سييء. قمت بالصراخ على الولد الأكبر لأنه كان يغني، بصوت مرتفع، أغنية لا أحبها. ويعلم أنني أجدها سوقية. تعتمد أن يزعجني بمواصلة ترديدها. الولد الأصغر ظل يضايق أمه ولا يطيعها في أي شيء تطلبه منه.

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيه وهو يستعيد ذكريات اليوم الأخير من حياتهم كأسرة

واحدة:

- وفي الحقيقة، فإنني أنا وزوجتي، بدورنا، تشاجرنا أيضًا ذلك النهار. وبعد ذلك، تحمّم الولدان، ووجدت الأصغر يلف على رأسه عمامة جديدة كحلية اللون. قلت له إنها جديدة، وسألته لم لا يحتفظ بها ليرتديها في أي مناسبة خاصة قادمة، بدلًا من أن يفسدها بالعرق في هذا الجوّ الذي لا يطاق؟ وأجابني بأنه سيلبسها لأنه يريد ذلك ولأنه يرغب في أن يبدو أنيقًا ووسيمًا. ضحكت أنا،

(5) جورو ناناك: مؤسس السيخية، ولد عام 1469، وتوفي في العام 1539.

لكن أمه انزعجت من رده وأسلوبه، وقالت إنها لطالما تمنّت أن يرزقها الربّ بنات هادئات ومطيّعات بدلاً من هذين الولدين الوقحين. ظللت أخرج وأدخل، لأطمئن على سير العمل في المطعم، فيما واصلا مضايقة أمهما. يطلبان عصيراً. ويسألانها عن سر زواجها بي؟ ولماذا لم تتزوج برجل غني لا يصر على الاحتفاظ بالثياب الجديدة للمناسبات الخاصة فقط؟ كانت تلبّي طلباتهما مرة.. تضحك مرة.. تؤنّبهما الأخرى. حتى كادت أن تجن من صخبهما. وأخيراً قالت لهما وقد نفذ صبرها بإنهما طالما يرتديان ملابس خروج، فلم لا يخرجان بالفعل ويتركانها في سلام لساعة أو اثنتين؟ وعلى الفور قال الولدان بصوت واحد إنهما سيذهبان إلى الحديقة العامة "كومباني باغ". لكنها رفضت لأنها بعيدة جداً. فاقترح الأكبر أن يذهبا للمعبد الذهبي. وصاحت زوجتي بأنه عديم الأدب والاحترام لأنه يساوي في الأهمية بين حديقة عامة وأقدس معبد لنا نحن السيخ. ووصفته بالحيوان. وهكذا توجه الولدان، في نهاية الأمر، للمعبد.

أطرق "لاكان" وسكت لبرهة. أحس "رامتشانند" بعظم آلامه، لكنه لم يعلّق. انتظر أن يكمل الشيخ قصّته، رغم أنه - مثل كثيرين - يعرفها جيداً. الأصوليون السيخ المتحصّنون في المعبد الذهبي. الأوامر الصادرة من "أنديرا غاندي". حصار قوّات الجيش الهندي للمكان. دخولهم بأحذيتهم حرم المعبد المقدس، المعركة بين الأصوليين والجنود، القصص العديدة المؤسفة عن الأبرياء من زوّار المعبد - أو "المؤمنين" كما أشارت إليهم الصحف بعدها - الذين تعرضوا هم أيضاً للحصار، ثم القتل بلا رحمة. أوقفوهم في صفوف منتظمة، ثم ضربوهم بالرصاص. هذا ما أكّده بعض الناجين، الذين استطاعوا، بطريقة ما، الخروج سالمين من هذه المعركة. إلا أن الجيش لم يعترف أبداً بارتكاب تلك المجزرة. تحدث الناس بعدها عن أكوام الجثث التي تمّ تحميلها في سيارات الجيش الضخمة.

استعاد "رامتشانند" في ذهنه كل هذه الأمور. توقع أن يسرد عليه "لاكان" تفاصيل ذلك العمل الوحشي، إلا أنه لم يفعل. قال بصوت يغالب البكاء:

- ولداي الصغيران. لقد ربطوا أيديهما خلف ظهريهما مستخدمين العمامتين اللتين كانا يلبسانها. أوقفوهما ضمن الصفوف وأطلقوا عليهما الرصاص، مع غيرهما من الناس. لم نجد جثتيهما بعد ذلك، لكن "ساتويندر سينج" أخبرنا بالتفاصيل بعد تمكنه من الفرار.

جلس "رامتشانند" صامتًا ومتحجرًا كما لو كان صنمًا. لم يسأل من يكون "ساتويندر سنج".

قال "لاكان":

- كان الأمر بأكمله فظيغًا وغير محتمل. كلما فكرت بالعمامة الجديدة التي كان يلبسها ابني. لقد قيدوا يديه بها. تلك العمامة الكحلية. لا شك أن الولدين كانا مرتعبين في تلك الدقائق الأخيرة من حياتهما القصيرة. أنا متيقن من ذلك. آه.. كم كانا وسيمين. لقد كنت أقول لهما دائماً إنهما يشبهان القرود. لكنهما كانا جميلين حقًا. لماذا ماتا بهذه الطريقة المرعبة؟ لماذا لم يذهبا للحديقة العامة ذلك اليوم؟ لماذا.. لماذا؟



في تلك الليلة، حين أمسك "رامتشانند" بكتاب "فنّ كتابة الرسائل"، كان فاقداً للتركيز تمامًا. في فصل عنوانه "النوادي، المجتمعات، إلخ.. " بدأً بصفحة "خطاب طلب دفع اشتراك متأخر مستحقّ للنادي". دون أدنى حماس أو رغبة، فتح القاموس بحثًا عن الكلمات غير المفهومة. جال بعينه على الكلمات

المكتوبة. تمعن في أشكال الحروف دون أن يقرأها. بدأ يشعر بألم في رأسه. ما الهدف من كشف غموض كلمات صعبة؟ لقد ترك تلك المسكينة ملقاة على الأرض ولم يساعدها بأي وسيلة. لا يعرف كيف كان سيفعل ذلك. ذكّر نفسه للمرة الألف بأنها في النهاية زوجة "تشاندر"، ولا شأن له هو بها. لكنه ظل منزعجًا، وبخاصة أنه أحس بالعجز للمرة الثانية، في اليوم ذاته، أمام أحزان "لاكان". اعترته رغبة عارمة، وهو ينصت إليه، في الهروب. أن يقوم ويختفي فجأة. لم يكن قادرًا على مواجهة ذكريات الرجل المسن الأليمة.

ما حدث حينها هو أن الرجل ظل يتحدث بشكل متواصل، مستغرقًا في استعادة ذكرياته. استرسل في الكلام، وبدا أنه لن يتوقف أبدًا. قاطعه "رامتشاند" بشكل مباغت، طالبًا منه إحضار كوب آخر من الشاي. ظهر الذهول على وجه "لاكان" لوهلة، متبوعًا بألم لا يوصف. لكنه سرعان ما استعاد ملامحه الجامدة. سكت على الفور، ونهض بهدوء. أوصى أحد عمّاله بإحضار الشاي، ثم خرج من الباب الخلفي للمطعم.

ابتلع "رامتشاند" بقايا الشاي الذي برد، ممسكًا الكوب بيدٍ مرتجفة. ألقى ببضع أوراق نقدية على الطاولة وغادر سريعًا. كان ينوي تناول المزيد من الطعام، وشرب كوب جديد من الشاي. لكنه لم يفعل. خرج من المطعم وهو لا يزال جائعًا، لكنه في الوقت ذاته لم يكن يشعر بأدنى رغبة في تناول الطعام. سار عائداً إلى مسكنه.

لماذا هو دائم الهروب؟ لم لا يستطيع - على الأقل - أن يستمع للآخرين، وأن يعزّيهم ببعض الكلمات الطيبة ليجعلهم يشعرون ببعض التحسن والراحة؟ لماذا يلازمه الإحساس بالاختناق؟ إنه ليس سوى شخص جبان

. أناني. عديم الاهتمام. رأى ذلك بنفسه منعكسًا بوضوح على وجه "لاكان" الحزين، وملامحه المتشوقة لأي رد فعل من "رامتشانند".

ألقى بنفسه على السرير، والكتاب لا يزال في يده. هل كان بإمكان "لاكان" أن يخمّن أنه غادر المطعم مضطربًا، لأنه كان يشعر بضيق شديد جعله يتنفس بصعوبة بالغة؟
يا لها من حياة قذرة.. حقيرة.. محدودة.. تلك التي يعيشها.
ربما ليست حياته فقط. وإنما الحياة بأكملها كذلك. قدرة ودنيئة ومترهلة وعديمة المعنى.
حياة ذليلة وخائفة. وسقيمة ومريض.. وكلها صفاته هو أيضًا. إن بقاءه فيها لا يعني سوى شيء واحد. انعدام الكرامة.

أحس بألم حارق في معدته بسبب الحموضة.
الأمر لا يتعلق بحياتك وحدك. وما فائدة أن تتعلم، وأن تطور عقلك وتنمي طريقة تفكيرك. وأن تصبغ جدران غرفتك بالجير الأبيض. حين يكون غيرك ملقى على الأرض في حجرة حقيرة، بعد أن ضرب وأهين؟ أو حين يكون غيرك محبوبًا داخل ذكريات مظلمة. كأنها حجرات بلا أبواب أو نوافذ؟ حجرات لن ينجح في مغادرتها يومًا.

فتح "رامتشانند" كتاب الرسائل مرة أخرى. حاول أن يركّز انتباهه على الكتاب، وأن يتناسى أي أفكار أخرى.

قرأ الكلمات بيأس. قرأ الرسالة دفعة واحدة.

ثري تاريتس،

بورسفيلد،

كينت،

الآنسة / بلانكيت

آنستي العزيزة.. يؤسفني إعلامكم بأن الاشتراك الخاص بنادي "فيكتوريا" للتنس، لم يتم سداه حتى الآن. ووفقاً لقوانين النادي (القانون رقم سبعة) فإن جميع الاشتراكات يجب أن تسدّد في الأول من يناير من كل عام، ولا يسمح لأي عضو باستخدام الملاعب، بعد الأول من شهر أغسطس، لحين دفع المبلغ المتأخر.

(ماذا لو كانت يده هو المربوطتان خلف ظهره؟ ماذا لو كان يعرف بأنه سيتم إطلاق الرصاص عليه خلال لحظات معدودة؟ كيف كان سيشعر؟).

وبناءً على ذلك، برجاء التكرم بإرسال الاشتراك المحدد وهو عشرون جنيهًا إسترلينيًا.

المرسل: م. جيسوب.

تساءل "رامتشانند" بيأس: "جنيه إسترليني؟ وما معنى هاتين الكلمتين أصلاً؟".

أغلق الكتاب بقوة وألقاه على الطاولة. لم يهدأ الغضب الذي كان يتنامى بداخله منذ النهار. وضع الكتب وقلم الحبر والدفتري جانبًا. ولأول مرة، منذ أسابيع، أمضى ساعات الليل مستلقيًا على سريره، محددًا في سقف الحجرة.





يوم الأحد، فتح "رامتشاند" الشبّاك الخلفي وجلس على صندوقه واضعًا كتاب التعبير على ركبتيه، شاخصًا ببصره إلى الخارج. قال لنفسه بتصميم إنه لن يستسلم للاكتئاب. الدنيا ستظل هي الدنيا. لا يوجد سبب يجعله يتوقف عن تحسين مستواه في القراءة والكتابة. ورغم أنه راح يردد هذا الكلام لنفسه، فإنه لم يستطع السيطرة على ذهنه الشارد. الوقت آخر العصر. استطالت الظلال، وبدأت نسائم المساء تعلن عن نفسها. في الحوش، غطّ صاحب البيت في نوم عميق على سرير من الخشب والحيبال، وقد غطى وجهه، منعًا للضوء، بوشاح أزرق خاص بـ"سودها"، يعرفه "رامتشاند" جيدًا ويحب لونه الرقيق المزين بزهور صفراء ناعمة. تلبسه في أحيان كثيرة. نظر إليها وهي مستغرقة في تصفّح العدد الأخير من مجلة "ساريتا". فرغت من أعمالها المنزلية اليومية وانتهت من طهي العشاء ولم يعد لديها ما تفعله إلا تسخينه ليلاً. انهمك "فيشنو" و"آلكا" في كتابة واجباتهما المدرسية. يتوقفان أحيانًا

ليتنازعا على قلم رصاص أو ممحاة.

جلس "مانوج" تحت شَبَّك "رامتشاند" تمامًا، غارقًا في عالمه الخاص، وهو يلوّن صورة رسمها، بألوان شمعية. يحب نيل الدرجات النهائية في جميع المواد، لذلك يحرص على ألا تخرج الألوان عن خطوط الرسم. ألقى "رامتشاند" ببصره عبر النافذة إلى ورقة الرسم التي أسندها الولد على ركبتيه. كانت اللوحة نفسها التي يحرص على رسمها دومًا. تخطّ يده الخطوط ذاتها كل مرة، ليضمن الحصول من خلالها على أعلى درجة. خط أفقي يتوسط الصفحة، يمثّل الأفق، تعلوه بضعة جبال، عبارة عن مثلثات منتظمة يرسمها بالمسطرة. وكوخ، عبارة عن تكوين يشبه الصندوق، بنافذة واحدة، وسقف مائل، ومدخنة. شجرة طويلة. وشريط أزرق يمثّل النهر. وأخيرًا. يرسم شمسًا في السماء. دائرة تخرج منها خطوط طويلة وقصيرة بالتبادل.

اللمسة الإنسانية الوحيدة على هذه الرسمة بالغة التنظيم والترتيب، هي أنه كثيرًا ما ينسى رسم الشمس في البداية. لا يتذكرها إلا بعد تلوين السماء بالأزرق، فيضيف دائرة صفراء. يختلط الأزرق بالأصفر، وينتج عن ذلك لون مائل للأخضر، فتبدو الشمس كما لو كانت مريضة وتوشك على التقيؤ، على العالم ذي الألوان الزاهية تحتها.



قرر "رامتشاند" أن كتاب الرسائل عديم الفائدة، إلا جزءًا واحدًا منه يتميز بالوضوح والسهولة. ولعله مفيد أيضًا؛ إذ يضم صفحة تلخص العبارات الافتتاحية في جميع أنواع الخطابات.. عارضًا تشكيلة متنوعة منها:

أجدني ملزمًا بـ..

كان كرمًا منك أن...

يؤسفني إبلاغكم بـ..

ردًا على طلبك بشأن..

مرفق بالخطاب..

إنه لمن دواعي سروري / أسفي، أن أبلغكم أن...

أودّ أن أشير إلى..

أحبّ العبارتين الأخيرتين بشكل خاصّ. تخيل نفسه ذاهبًا إلى "مهاجان" ليقول له العبارتين

معًا:

"إنه لمن دواعي سروري / أسفي إبلاغكم بأنك شخص مقيت، سمين، عبّاد للفلوس، خنزير،

أناني. وأودّ أن أشير إلى أنني متأكد من أن زوجتك المسكينة هي أنعس وأشقى نساء الأرض..".

ثم يعقب ذلك بعبارات مناسبة من الإهانات.

كلما كانت الجمل التي يفكر في استخدامها جادة ورسمية، كلما أحبها "رامتشاند"

أكثر. سيحاول أن يحفظها عن ظهر قلب. إذا فشل في ذلك، سيقوم بكتابتها وقراءتها بصوت

مرتفع.

ولكن، فيما عدا هذه الصفحة، قرر "رامتشاند" أن كتاب الرسائل غير جيد. تفكر قليلاً

بحكمة، وتوصل إلى أنه من غير المعقول أن ينبهر بأشياء لمجرد أنها بالإنجليزية. معظم

الخطابات تبدو كأنها كتبت من قبل أشخاص كسالي، لا هموم لديهم من أي نوع. كبعث

الزبونات اللاتي يترددن على المتجر. ليس لديه الرغبة في تعلم أي شيء عنهم وعن أمثالهم..

بأي لغة من اللغات.

في هذا المجال، يعرف ما فيه الكفاية!



في أحد الأيام، دخل "شيام" و"راجيش" الدكان معًا، كالعادة. لكن ابتسامتهما في ذلك اليوم كانت أكثر سعادة. بدا واضحًا أنهما عائدان من المعبد. ربما أديا الصلاة هناك، أو قدّما القرابين. فقد وضعا خطأ من الـ"تيلاك" على جبينيهما. حمل "شيام" في يده ثلاث علب متماثلة من الورق المقوّى، كتب عليها "بانسال للحلويات".

محل "بانسال للحلويات" بعيد جدًّا. يقع في شارع "لورنس"، ويعدّ من أغلى أماكن بيع الحلوى في "آمريتسار".

توجهها إلى "مهاجان" فور دخولهما، وناولاه علبتين وهما يهمسان بأشياء لم يتمكن الباقون من سماعها، وقد اتسعت ابتسامتهما. ظهر الحبور على "مهاجان" أيضًا. تزايد فضول "هاري" مع مرور كل ثانية، وعلق بدهشة بالغة:

- انظروا!! "مهاجان" يبتسم!!

قال "رامتشاند" و"جوكل" على الفور، بصوت واحد:

- اسكت!

أضاف "رامتشاند":

- أظن أنهما يحتفلان بمناسبة ما.

علق "جوكل" ساخراً:

- ما كل هذه العبقرية؟! لم أكن لأخمن الأمر دون مساعدتك!

قال "هاري" وهو لا يزال يتابع الموقف، وقد أغرق في الضحك:

- ربما نزل الإله "براهما" إلى الأرض ليلة البارحة، ومنح "مهاجان" قلباً بشرياً. وهو سبب

وجيه لكل هذا السرور!

ابتسم "رامتشاند" عند سماعه هذا التعليق. لم يبدِ "تشاندر" اهتماماً بما يجري حوله،

وظل شاخصاً ببصره من النافذة التي يجلس بجوارها.

اقترب الرجلان من بقية البائعين. حلّ "شيام" الشريط المحيط بالعلبة الثالثة. قال وهو

يقدم لهم محتوياتها من حلوى "البارفي" شهية المنظر:

- تفضلوا.. تفضلوا.

قال "جوكل":

- بشرنا بالأخبار السعيدة أولاً، وبعدها سنتناول الحلوى.

- ابنتي، التي تبلغ الثامنة عشر. ستصبح زوجة ابن "راجيش"، بمشيئة الرب، عما قريب.

أجاب "جوكل" بغضب مصطنع:

- ما كل هذا اللؤم؟! اتفقتما على كل شيء دون علمنا. وتخبرانا الآن فقط؟! لا بد أنكما

لا تعترانا أصدقاء كما!

ضحك "راجيش" وألقى ذراعه بمودة حول كتفي "جوكل":

- أي اتفاقات يا صديقي؟! لم نقم بأي شيء أصلاً. مجرد صلوات في المعبد. لسنا مثل الناس الأغنياء، حفل تلو الآخر لأسبوع كامل قبل الزفاف! كل ما هنالك أننا قررنا أن يتم الزواج العام المقبل. استشرنا المنجم، وأبلغنا بأن التاريخ المناسب للعرس لن يكون قبل سنة كاملة. وأنتم جميعاً أول المدعووين بالطبع. والآن. هلا تفضلتم بتناول الحلوى؟

عاجله "هاري" بالسؤال:

- لماذا أعطيتما "مهاجان" علبتين كاملتين من الحلوى؟

رمقه "جوكل" بنظرة مؤنبة، لكن "شيام" أجاب ببساطة:

- واحدة له، والأخرى ليرسلها إلى "بيمن ست".

أوماً "هاري" برضا بعد أن أشبع فضوله، ووضع قطعة بارفي في فمه.

قال "راجيش" بحماس بالغ:

- لا يكتمل أي احتفال دون أكواب من الشاي وبيض حبات من الساموسا. سأتولى هذه

المسألة.

هللت المجموعة كلها بسعادة. ستكون وجبة خفيفة ممتازة، ولن يعلّق "مهاجان" على

احتفالههم وتناولهم للطعام، فالزواج أمرٌ مقدّس على كل حال.

سرعان ما كانوا يلتهمون الطعام باستمتاع بالغ. غادرهم "مهاجان"

بابتسامة مرحة. كانوا جميعاً يدركون أنه إن دخلت زبونة في أي لحظة الآن،

فإنه يتعين على واحد منهم أن يقوم فورًا لخدمتها. راحوا يتبادلون الضحكات والتهاني. وحده "تشاندر" ظل صامتًا ومتباعدًا.

بعد مدة، حين تم تنظيف المكان من الفتات، وجاء صبي الكشك ليستعيد أكواب الشاي الفارغة، وهدأت روح الاحتفال قليلًا، اقترب "هاري" من "جوكل" وسأله:

- ما سر حزن "تشاندر" الدائم؟

كانوا قد عادوا لأماكنهم المعتادة. "شيام" و"راجيش" و"تشاندر" في جانب من الدكان؛ و"رامتشاندر" و"هاري" و"جوكل" في الجهة الأخرى المواجهة لهم. أضاف "هاري" متفكرًا:
- أعني أنه حين تتناول "البارفي" و"الساموسا"، بالإضافة إلى شاي جيد وساخن، في يوم شتوي شديد البرودة مثل هذا، ينبغي أن تبدو سعيدًا.

- ليس كل الناس خنازير مثلك! لا يسعدهم إلا الطعام!

- وما العيب في ذلك؟ الحياة قصيرة، من يدري ماذا سيحل بنا غدًا؟ ولذلك يتوجب علينا الاستمتاع بكل ما يسعدنا. الطعام والنوم ومشاهدة الأفلام واللهو والمرح. ثم ما الذي يريده "تشاندر" بالضبط؟ لديه وظيفة، أليس كذلك؟ ومال يكفي لطعامه، أليس كذلك؟ ما الذي ينقصه إذًا؟

- ما زلت صغيرًا يا "هاري"، لا تعرف شيئًا عن الحياة. "تشاندر" يعاني من مشكلات كثيرة في بيته. إن لم يكن للرجل حياة أسرية هادئة ومستقرة، فما جدوى الوظيفة وغيرها من الأمور؟

صمت "هاري" للحظات وهو مستغرق في التفكير، ثم قال:

- أنا أيضًا أعاني من مشكلات في حياتي الأسرية. أبي دائم التأنيب لي، وأمي لا تتوقف عن تقريعي والتشاجر معي.

- لا تكن غيبًا يا "هاري". حين يؤنبك والدك فإنه يفعل ذلك لأدك مثلًا تصر على مشاهدة فيلمين في السينما، بدلًا من الاكتفاء بواحد فقط كل أحد؛ وليس من اللائق أن تتحدث عن والدتك بهذه الطريقة، وهي التي تعدّ لك طعامك، وتغسل ثيابك لتقابل الناس بمظهر نظيف ومرتب.

أحسّ "رامتشاند" بشيء من الأسى وهو ينصت لعبارات "جوكل" الأخيرة لزميله.
واصل "جوكل" حديثه قائلاً:

- أيها الأحمق!! هذه ليست مشكلات أسرية. ألا تناكفني "لاكشمي" يوميًا؟ ألا يبكي طفلي الصغير بصوت مرتفع طوال الليل دون أي سبب؟ لكن هذه الأمور تتكرر في كل بيت، وهي جزء طبيعي من الحياة العائلية. لكن "تشاندر" يعاني من مشكلات حقيقية.

سأله "هاري" بفضول واضح:

- أي مشكلات؟

أجابه "جوكل" بقدر من المراوغة:

- زوجته امرأة غير صالحة.

تذكر "رامتشاند" المرأة سليطة اللسان، التي تبين له لاحقًا أنها زوجة "تشاندر". كما

تذكرها وهي متكومة في ذلك المنزل المتداعي.

تدخل في الحوار، سائلاً بحذر:

- ماذا تعني؟

قال "جوكل" على الفور:

- لا أقصد أنها على علاقة برجال آخرين. ليس الأمر كذلك على الإطلاق. كنا سنسمع شيئاً، ولا شك. ليس هناك رجال في حياتها، إلى هذه اللحظة على الأقل! ولكن، مع امرأة مثلها، من يدري؟ الحقيقة أنني لم أكن أرغب في الحديث عن هذه المسألة، ولكن طالما أنكما تسألان، فسوف أخبركما.

سكت لبرهة، بطريقة درامية، ثم أضاف:

- إنها... تشرب!

شهق "هاري"، وقد أحس بصدمة عنيفة. شرب الخمر أمر معيب وسييء في حد ذاته.

لكن أن يصدر ذلك الفعل الشائن من امرأة تحديداً؟!

واصل "جوكل" حديثه:

- وهي لا تمتلك صفة واحدة من صفات سيدات العائلات المحترمة، فهي لا تستحم صباح

كل يوم كما يفعلن، ولا تصلي، ولا تضع الـ"سيندور"⁽⁶⁾ في مفرق شعرها. أي "سيندور"؟! إنها لا

تمشط شعرها أصلاً! لا تفعل شيئاً سوى التسكع. وتلك الكلمات البذيئة التي ترددها!! يا

ساتر!! آه.. لا يمكنني أبداً أن أعبر عن مدى إشفاقي على "تشاندر". فهي لم تكن على هذا

الحال حين اقترن بها. أنا متيقن من ذلك. سمعت هذا الكلام كثيراً من العديدين ممن

(6) السيندور: بودة حمراء تضعها السيدة المتزوجة في مفرق شعرها.

يعرفونها في تلك المنطقة. لقد تغيرت. يقول البعض إنها مجنونة. يقولون إنها تعرضت للإجهاض. أو أنها هي من أجهضت نفسها.. شيء من ذلك القبيل. ثم أصيبت بالجنون بعد ذلك. ولكن، هل يبرر فقدانها لجنينها هذه التصرفات؟ إنه أمر يتكرر كثيرًا بين عدد كبير من السيدات. هل يتصرفن جميعًا بعدها على هذا النحو العجيب؟ سينهار المجتمع لو فعلن مثلها!

اكتست ملامح "هاري" بالجدية والرزانة.

استرسل "جوكل" في شرحه للوضع:

- وهذا ليس كل ما في الأمر. إنها تضعه في مآزق متوالية مع الجميع. تتعامل بوقاحة مع الآخرين. تستوقف المارة في الطريق وهي في حالة ثمالة لتتشاجر معهم وتتهمهم بأنهم مدينون لها بمبالغ مالية مختلفة. وحين تلمح كاهن معبد "هانومان" القريب من بيتها، تبدأ بالصياح وتناديه بالمنافق. وتمثل بأنها تمسك بحجر وبأنها توشك على رجمه به! كما لو كانت تخيف كلبًا مثلًا!! والآن قل لي، كيف لـ"تشاندر" أن يكون سعيدًا؟

تنهّد بأسى، وأردف:

- على المرأة أن تدرك موقعها جيدًا. ربما تمر بها مصاعب مختلفة، وتواجهها مشكلات عديدة. لكنها في كل الأحوال، ومهما كانت الظروف يجب أن تفهم بأن واجبها الأول هو العناية بزوجها ورعاية بيتهما، ثم لها أن تفكر بعد ذلك بنفسها وشؤونها.

أصغى "هاري" لحديث زميله باهتمام بالغ. أنصت "رامتشاندر" في صمت، وهو يتذكر آثار

الكفوف الحمراء على وجه زوجة "تشاندر"..

واصل "جوكل" سرده:

- بعض الناس يؤكدون أنها لا تعاني من الجنون، وأن كل ما في الأمر هو أنها امرأة شريرة، سيئة الطباع. شيطان في صورة امرأة. النسوة في منطقتهم يحاولن إبعاد صغارهن عن عينيها الحاسدين، وبخاصة الأطفال الرضع. يكفي أنها لا تصلي. كما أنها دائمة العبوس. ولا تبسم أبداً.

سأله "رامتشانند" بصوت يقترب من الهمس:

- ولم لا تبسم؟

قال "جوكل" بامتعاض:

- تردد دائماً بأن "جوكل" لا يعطيها أي نقود، وأن البيت يخلو من الطعام.

أضاف منتقداً:

- كان بإمكانها أن تحسن ظروفها بالعمل في البيوت، كمنظفة أو طاهية، ولكن ذلك مستحيل بالطبع. فأى عائلة محترمة تقبل بأن توظف لديها امرأة سليطة اللسان وبذيئة الألفاظ مثلها؟

"لكل عملة وجهان".

خطرت العبارة في ذهن "رامتشانند" فجأة.

فكر بكآبة: "أكثر من وجهين ربما".



سيظلّ الناس يتذكرون حفل زفاف "رينا كابور"، في جميع أنحاء "آمريتسار"، باعتباره مهرجاناً ضخماً. ولن ينسوا إطلاقاً أنه الحفل الذي قُدِّم فيه أربعون صنفاً من الحلويات المختلفة.

قبل الحفل، تحدّث الناس عنه في كل مكان، حتى بدأ "رامتشانند" يشعر بفضول قاتل. حين ذهب "مهاجان" إلى منزل "كابور" لينهي معهم حسابات الفواتير، أعطوه بطاقة دعوة. عند عودته للدكان، أخرجها ليربها لـ "شيام" و"راجيش"، وقال بطريقة اجتهد أن تبدو غير مبالية:

- دعوة زفاف ابنة "كابور".

أظهر "شيام" و"راجيش" انبهارهما وهما يتفحصان البطاقة باهظة الثمن، بدقّة. وبعد استئذان "مهاجان"، تمّ عرضها على البقية. علّق "جوكل":

- هل لكم أن تخمّنوا سعرها؟ انظروا فقط لهذا الورق اللامع المصقول! إنه كصفحات

المجلات الأجنبية.

حين تناولها "رامتشاندر"، وتحسسها بأصابعه، أحسّ هو أيضًا بالانبهار. لا لكونها غالية المظهر فقط، وإنما لجمالها الفائق. ورق سميك، فضي، كُتِبَ عليه بلون أزرق مبهج "أوم". حين فتحها، وجد الدعوة مطبوعة باللغة الإنجليزية، ترجو الناس أن يشرفوا المناسبة المباركة بحضورهم. مرّر أصابعه على الحروف، وقد تملّكته السعادة لقدرته على قراءة جميع الكلمات المكتوبة. انتبه للتاريخ والوقت والمكان.

قال "هاري" بحماس:

- كل الأشخاص المهمين سيكونون هناك، بلا شك.

أضاف موجهًا حديثه لـ "مهاجان":

- هل ستذهب يا سيّدي؟

هزّ رأسه بأسى وقال:

- كلاً. لن أستطيع. ابن أخي سيتزوج اليوم نفسه. إنه تاريخ ميمون كما يبدو، فهناك أكثر

من عرس في ذلك التاريخ. ولما كان شقيقي متوفّي، كما تعلمون، فإنه يتوجب عليّ أن أكون

موجودًا في زفاف ابنه.

أبدى الجميع تعاطفهم وتفهمهم. بإيماءات وهمهمات خافتة. وقال "هاري" بذكاء:

- أنت قديس يا سيدي والله. دائماً تلتزم بواجباتك فقط، وتهمل التفكير في الأمور التي تسعدك.

انفجرت أسارير "مهاجان" وهو يهبط السلم، لهذا الإطراء.
لكز "هاري" جاره "جوكل" بكوعه وهو يغمز بعينه، وضحك الجميع بصوت خافت.



يوم حفل "رينا كابور"، ظلّ "رامتشانند" منشغل البال، يفكر فيه منذ الصباح. لم يحضر "مهاجان" للدّكان بسبب عرس ابن أخيه. قال "هاري" بغيظ:
- لا شكّ أنه الآن يملأ بطنه السمين بأطياب الطعام والحلوى، بينما نعمل نحن المساكين الجوعى في هذا المكان الشبيه بالقبر.

و لما كان لم يتوقف عن الأكل طوال النهار، إذ ظل يتناول البطاطس المقلية من كيس ورقي بجواره، ولم يقم بأيّ عمل إطلاقاً، فإن أحداً لم يعره أيّ انتباه، عدا "جوكل" الذي قال له موبخاً إنه يتوجب على كل شخص احترام مهنته ومكان عمله، وإن تشبيهه مكان رزقهم بالقبور أمر مشؤوم وجالب للنحس. فهمس "هاري" بصوت غير مسموع ببعض السباب البذيء للدكان ولـ"مهاجان" ولمصاص الدماء "بيمن سنّ"! ثم خرج ليشتري بعض المكسرات الساخنة. انتقد "جوكل" أسلوبه وتصرفاته، بحكم العادة لا أكثر.

ظلّ "رامتشانند" يفكر في حفل عائلة "كابور"، ولم يسمع معظم ما قاله "جوكل".

مساءً، تلقى "رامتشاند" مفاجأة سارة؛ فـ"جوكل" الذي ظل يشتكي من صداع مؤلم في

رأسه طوال النهار، بدأ يشعر ببوادر حمى. قال له:

- "رامتشاند"، هل بإمكانني أن أطلب منك معروفًا؟

- اطلب ما شئت يا أخي "جوكل".

- هل يمكنك أن تأخذ دراجتي لمسكنك الليلة، وتعيدها إليّ في الغد؟ أحضرها معك

للكان صباحًا. الصداع يزيد، وأشعر بارتفاع في درجة الحرارة. لا أظن أنني سأستطيع قيادتها

وأنا متعب هكذا. ربما كان الصداع بسبب "هاري" وثرثته التافهة!

ابتسم "رامتشاند" لعلمه بأن "جوكل" يحبّ الفتى ووقاحته، مهما داوم على تأنيبه.

دلك "جوكل" جبينه بأطراف أصابعه وقال:

- أظن أنني سأركب "توك توك" وأعود للبيت. هل يضايقك أن تأخذ دراجتي؟

تدخل "هاري" في الحوار:

- سأخذها أنا يا أخي "جوكل". لا تقلق بشأن شيء بتاتًا.

تحدث بجديّة غير معتادة، وبدا كما لو كان مقدمًا على تضحية عظيمة، يقوم بها - فقط

- إكرامًا لصديق عزيز.

قال "جوكل":

- الأمر مرفوض تمامًا يا "هاري" ولن نناقشه أصلًا. ستحطم دراجتي طبعًا. وأنت يا

"رامتشاند". ما رأيك؟ هل ستأخذها؟

وافق "رامتشانند" على الفور. بعد لحظات، غادر "جوكل" الدكان. ركب "توك توك" وتوجه لمنزله وهو يئن ويتألم. أحس "هاري" بإحباط شديد، لأنه كان يمني نفسه بأخذ الدراجة، وقيادتها إلى كشك الآيس كريم البعيد، ليتناول بعضًا منه ممزوجة بحبات اللوز والفسق. حين أنهى "رامتشانند" عمله، وقف أمام الدكان متأملًا الدراجة، ومقبضها اللامعين. أدرك في تلك اللحظة فقط أنه يجب عليه أن يذهب إلى منزل "كابور" لإلقاء نظرة سريعة. مجرد نظرة سريعة. لا أكثر.

الإغراء أكبر من أن يقاوم.

اعتلى الدراجة، وتوجه إلى "جرين آفنيو" حيث يقع منزل "كابور".

غربت الشمس، وبدأ أصحاب المتاجر في إغلاقها، وإنزال الواجهات الحديدية أمام أبوابها، والعودة إلى بيوتهم. تأمل "رامتشانند" منظر الغروب بافتتان. الوقت قبيل الظلام، وقد امتد في السماء خيال ذهبي من بقايا النهار. أعمدة الإنارة مضاءة. علّق أصحاب عربات الخضراوات والفاكهة مصابيح زيتية أعلى العربات. لمعت أكوام الطماطم والباذنجان والفلفل الرومي تحت الأضواء بشكل جذاب. وقفت ربّات البيوت وبعض الكهول أمامها، يفاصلون ويشترون ويعبّئون أكياسهم، وهم مدركون أن الشراء في هذا الوقت من اليوم يمكن أن يتمّ بأثمان بخسة. واصل "رامتشانند" دربه على الدراجة، وقد استبدّت به أحاسيس التثوّق والإثارة.



وصل إلى "جرين آفنيو"، ودلف إلى الشارع الذي يقع فيه المنزل. توقف فجأة، في حالة من الذهول البالغ. على مدخل الشارع، تمّ نصب بوابة حديدية

بالغة الضخامة مغطاة بالورود والأزهار: أقحوان، ورد جورى، ياسمين، أوراق خضراء زاهية. اختفى الحديد تمامًا تحت حبال الورود المملوفة حوله. فاح شذى الأقحوان في المكان بأكمله، حاملاً معه شيئاً من الذكريات البعيدة. للحظة، عاد "رامتشاندا" إلى طفولته التي يتذكرها بالكاد. لاح له وجه مبتسم، تعلو جبينه دائرة حمراء. وأنف مستقيم تزئنه ورقة شجرة ذهبية. زهور صفراء يحملها بيدين صغيرتين، وتتسلل رائحتها إلى أنفه. أجراس نحاسية كبيرة، يتردد رنينها في صباحات أيام الإثنين السعيدة.

وقف أمام بوابة الأزهار وكأنه في حلم. سما عقله إلى حالة من النشوة والسعادة. أفاق أخيراً، فواصل السير بالدراجة وهو ينظر إلى المصابيح الصغيرة، دقيقة الحجم، التي زينت بها حوائط وأشجار الحي، وهي تهتز على أسلاكها الرفيعة، كلما هبت نسمة لطيفة. وللحظة، أحس أن هذا هو الواقع. هذه هي الحقيقة. أما المدينة الخائفة، القذرة، المزدهمة، والحارات، والأزقة. فغير موجودة إلا في خياله المريض.

وصل أمام البيت. وجده يشع بالأنوار والمصابيح، بطريقة مبهرة للغاية. الورود تزين أرجاء المكان. في الحديقة الشاسعة المواجهة للمنزل، تمّ نصب أعمدة طويلة مُدّت بينها أقمشة حمراء وبيضاء، فبدت كخيام مفتوحة. انتشرت أعداد كبيرة من الناس المتأنقين في المكان. يتنقلون بخفة - كما لو كانوا يطرون - بين المنزل والخيام الرحبة. تأمل "رامتشاندا" ثيابهم الجميلة.

السيارات الطويلة اللامعة تملأ الطريق، رغم أن الوقت لا يزال مبكراً.

نزل عن الدراجة، وجرّها بجانبه متمهلاً، وهو غارق في بحر من البهجة لم يعرفه قبلاً.
فجأةً.. أوقفه أحدهم.

- هيه! من أنت؟

استفاق "رامتشانند" من حلمه السعيد على صوت حارس الأمن. نظر له باستياء، وقد أدرك أنه لو كان يرتدي ثياباً فخمة وأنيقة، لما تجرأ على إيقافه أو سؤاله. ثم لاحظ أن الرجل يضع سلاحاً ما في جراب بحزامه فتلجلج.

- أنا.. في الحقيقة يعني..

ظهرت بضغ قطرات من العرق على جبينه. وقف الرجل منتظراً. ثم جاء حارس آخر ووقف بجانبهما. نظر "رامتشانند" حوله بوجل، حاول أن يفكر في شيء يقوله، لكن ما صدر عنه كان مجرد كلمات قليلة قالها وهو يتلعثم.

- انظروا.. الأمر.. الآنسة "رينا"..

قال الحارس الثاني لزميله:

- الأفضل أن نصطحبه للآنسة "رينا"، وإلا غضبت منّا إن تصرّفنا من تلقاء أنفسنا.

وهكذا رافقه الحارسان إلى داخل المنزل، بسرعة عظيمة. بدأ يتصبّب عرقاً. ما الذي

سيحدث الآن؟



وقفت "رينا" أمام المرأة الطويلة في غرفتها، يملؤها الإحساس بالرضا التام.
لم تكن متحمسة لأيّ من خبيرات التجميل الموجودات في "أمريتسار"، وخشيت أن يقمن بتزيينها في ليلة زفافها بطريقة فجّة. وفي النهاية استقر رأبها على الاستعانة بـ"دولي". إحدى أشهر خبيرات التجميل في "دهلي"، التي قامت بالإشراف على ملابس "رينا" وزينتها وتسريحة شعرها. كانت قد أمضت أكثر من خمس ساعات في عمل متواصل مع "رينا"، وتركتها للتوّ لاستراحة قصيرة، تعود بعدها لوضع لمساتها على "تينا".

قالت "رينا":

- الحمد لله!

وجّهت كلامها لشقيقتها التي جلست على السرير مرتدية تنورة خضراء فاتحة، مليئة بنقوش مطرزة. أضافت:

- لم أكن أرغب في أن أجعل أيّ من خبيرات التجميل هنا تقوم بتزييني. تخيلي كيف كنت سأظهر في صور زفافي! حدود حمراء لامعة. وشفتان مصبوغتان بلون فاقع، وظلال جفون براقّة! وطبعًا إصرار أمثالهن العجيب على أن تضع العروس الكثير من الذهب، وأن تلبس ثلاث سلاسل على الأقل حول رقبتها!

وافقتها "تينا":

- كلهن غيبات ولا يعرفن شيئًا عن الأناقة الراقية.

بدأت "رينا" مختلفة بالفعل عن معظم العرائس. لم يكن طقم التنورة والبلوزة القصيرة الذي ترتديه من دُگان "سيفاك بيت الساري"، وإنما أحد إبداعات مصمم أزياء شهير في "مومباي"، صممه لها بصفة شخصية وحصرية. اختار له اللون الأحمر الداكن، وجمع فيه بأناقة بين قطع من أقمشة الحرير والشبَّك والـ"بروكاد" المطرَّز بخيوط من الذهب الخالص، ووَزَّع على البلوزة قطعاً من العاج الأصلي. وبدلاً من السلاسل الذهبية المتعددة التي تضعها العرائس عادة، اكتفت "رينا" بسلسلة واحدة مطعمة بالماس والياقوت، ارتدت معها قرطين من الأحجار نفسها، ووضعت على جبينها حلية ماثلة، أضاءت وجهها.

قبل العرس بيومين، حضرت امرأة راجستانية لتضع لها الحنَّة، بنقوش من الزهور والطواويس وأوراق الشجر، وغيرها من الزخارف التي تعلمتها وتوارثتها عن جدَّاتها. اليوم، بدت الحنة التي تغطي يديها وقدميها الصغيرتين وكاحليها الرقيقين، آية في الجمال والدقة.

وضعت لها "دوللي" مساحيق هادئة غير لامعة على وجهها، وجمعت شعرها في عقدة بسيطة تتواءم مع الوشاح الذي ستبثته على رأسها.

راحت "رينا" تتأمل صورتها المنعكسة على سطح المرأة. أعجبها ما رأت. كان أحدهم يدقُّ الباب. فتحته "تينا". وجدت خادمة في رداء وردي فاقع، تضع بعض الياسمين في شعرها:

- هناك شخص في الدور السفلي يقول إن الآنسة "رينا" قد وَّجَّهت له الدعوة لحضور الحفل. والحراس يستأذنون في أن يتأكدوا من ذلك من الآنسة شخصياً.

قالت "رينا" وعيناها لا تفارقان المرأة:

- فلينتظروني في قاعة الاستقبال. سأنزل لهم بعد قليل.

فكرت الخادمة بأنها لم ترَ في حياتها عروسًا تتصرّف بهذه الطريقة أبدًا. لكنها لا تجرؤ على

قول ذلك. فالآنسة حادّة الطباع. ولو سمعتها تنطق بشيء من هذا القبيل فلن تتردد في أن

توجّه لها كلمات قاسية وباردة لا تخلو من التهكم والسخرية بشكل مهين.

فالعروس عادةً تجلس في حجرتها، لا تبارحها، وحولها صديقاتها وقرباتها وكلهن لا

يتوقفن عن الضحك والمزاح، وتظل سيدات العائلة يعدن ترتيب غطاء رأسها ومجوهراتها،

وهن يهمسن في أذنها بسيل من النصائح.

لكن لا شيء من ذلك طبعًا في عرس "رينا كابور"! لأنها ترى نفسها بنّاءً عصرية ومتفتحة

كما تقول دائماً! وأصرت على ألا يوجد معها سوى شقيقتها وتلك الـ"دولي" التي جاءت

بالطيارة. بشعرها القصير! وأمرت كل الخدم والحراس أن يلجأوا إليها إن احتاجوا إلى شيء،

بدلاً من إزعاج والدتها التي ستكون مشغولة باستقبال الضيوف المهمين.

أومأت الخادمة، ونزلت إلى الطابق الأرضي.

بعد نحو خمس دقائق أمضتها "رينا" أمام المرأة، ذهبت لقاعة الاستقبال، حيث وقف

"رامتشان" مرتعداً بين الحارسين. احمرّت أذناه وشعر بخزي حين رآها. راقبته الخادمة

بفضول واستمتاع وهي تقضم أظفارها. سرى عبير الياسمين في القاعة.

قالت "رينا"، وهي تعي مدى فتنتها:

- نعم؟

قال أحد الحارسين وهو يقبض على كوع "رامتشانند" بقوة:

- كان يتسكح في الخارج. يقول إن سيادتك قد وجهت له الدعوة للحضور.

قال "رامتشانند" وهو مرتعب:

- أنا بياع "السواري".

نظرت إليه دون فهم للحظة، لأنها لم تتعرف عليه في بادئ الأمر. لكنها حين أدركت

الموقف، بدأت تبتسم. ثم اتسعت ابتسامتها كما لو أنها تتسلى بأداء لعبة صغيرة.

سألته وهي لا تزال مبتسمة:

- وأنا دعوتك، أليس كذلك؟

أطرق دون أن يجيب. فاجأته حين التفتت إلى الرجلين الواقفين على جانبه وقالت:

- نعم، لقد دعوته ليحضر عرسي بالفعل.

عند ذلك، تركاه واقفًا هناك، وانصرفا بهدوء.

حملق في العروس المزينة بطريقة أخاذة، بانبهار شديد. ضحكت بهدوء، وغادرت القاعة

إلى الطابق العلوي. سمع حفيف تنورتها وهي تصعد الدرج الرخامي كملكة.



وهكذا انتهى الأمر باستمتاع "رامتشانند" بحفل زفاف "رينا كابور" لأقصى درجة. لم يتحدث لأيّ شخص. سار في المكان، متأملاً كل شيء، وهو يرتشف مشروباً مثلجاً أخضر اللون، لا يعرف اسمه. تناول بعض قطع الـ"باكورا" المحشية بالجبن، التي كان يوزعها بعض النادل بملابسهم الأنيقة ذات اللونين الأبيض والأسود. كما تناول العديد من الأطعمة ذات الشكل الجميل الدقيق، ولم يعرف اسمها أيضاً؛ لكنه لاحظ أنه تمّ غرس أعواد تنظيف الأسنان في كل قطعة منها.

حين وصل موكب العريس، وقف وراء جموع المرحبين والمهنتين، وهو يمدّ عنقه ليرى العريس راكباً الحصان، حاملاً فوق رأسه مظلة حريرية. تقدّم الموكب بعض الأقارب وهم يرقصون بحركات سريعة.

لوقت طويل، ظل الأقارب يرقصون ويرحبون ببعضهم ويتبادلون الهدايا. راقب "رامتشانند" كل ذلك بلا كلل.

ثم دخل أفراد الموكب الخيام المفتوحة، ليتناولوا عشاءهم. سمع "رامتشانند" شخصاً يقول إن الطقوس الرئيسية سوف تقام في وقت متأخر جداً من الليل، وأنها مخصصة للأهل والأصدقاء المقربين فقط.

حين سمع ذلك، قرر أن يتناول عشاءه الآن مع الضيوف، ويغادر بعدها على الفور. دخل الخيام الحمراء والبيضاء المزدانة بكميات هائلة من الورد. المزيد من المتع كانت بانتظاره هناك.

وقف الخدم على مداخلها، يرشون أيدي الضيوف بماء الورد. بدا المكان كقاعة احتفال كبيرة. لمعت الثريات وألقت بأضوائها على المكان. لم يستوعب عقل "رامتشانند" ذلك. ثريات في خيمة!!!

رفضت "رينا" فكرة الجلوس على مقاعد حمراء ضخمة، كما جرت العادة، وفضلت أن تستعيز عنها بأرجوحة خشبية كبيرة، من الطراز القديم، طلبت تزيينها بأقمشة حريرية، وأضافت للديكور نافورة صغيرة.

العشاء في تلك الليلة كان عظيمًا وفاخرًا بحق، رغم خلوه من اللحوم والنبيد؛ فالعائلة نباتية ولا يشرب أفرادها أي نوع من الخمر.

قُدّم الطعام على طاولات طويلة مغطاة بمفارش بيضاء منشأة، في أطباق من المعدن المحفور بالزخارف الدقيقة. وتحت كل طبق منها شمعة صغيرة لحفظ الطعام دافئًا.

أحس "رامتشان" بالدهشة. كيف فكروا في أمر عجيب كهذا؟

الصحون الخزفية التي وزّعت على الضيوف، كانت دافئة وجافة وتلمع من شدة النظافة، ومع كل منها منديل ورقي أبيض، بحواف منقوشة من زهور زرقاء. تساءل "رامتشان" عما يفعله الناس بهذه المناديل المطوية الجميلة. قرر أن ينتظر ليرى كيف يتصرف بقية المدعوين. أحس بالرعب من فخامة المائدة، فلم يتذوق كل شيء كما اشتهى. ملأ صحنه بأرز ذي رائحة شهية، وأضاف له عددًا من الأشياء الأخرى التي لا يعرفها.

تفاجأ لرؤية العديد من السيدات اللاتي يترددن على الدكان. رأى مسز "جوبتا" بالساري الأخضر الذي اشتريته منذ بضعة أشهر، وهي تقدّم للجميع عروس ابنها، المغطاة بكميات كبيرة من المجوهرات البراقة، والتي لا تفارق شفيتها ابتسامة ثابتة. كما رأى مسز "ساندو" مرتدية ثوبًا قصيرًا وسرولًا تتحدث مع امرأة بدا أنها سيخية مثلها أيضًا، سمعها "رامتشان" تقول لرفيقتها بصوت يمتلئ بالقلق:

- الكتب ضخمة جدًّا، والمناهج طويلة ومعقدة. لقد بدأت الهالات السوداء تحيط بعينيّ "مانو". أرجو أن ينجح في الاختبارات القادمة بتفوق. فتلك هي الخطوة الأولى والرئيسية في تأسيس مستقبله. وبعد أن يتخرج، سيرتاح ويعيش حياة رغدة بقية عمره. كما ملح مسز "ساتشديفا" ضمن المدعوين، مرتدية "ساري" "بيج"، يتذكر جيدًا شراءها له. ولن ينسى أبدًا تفاصيل ذلك اليوم المريع. كانت تتبادل الحديث مع رجل طويل أصلع، حَمَن - بطريقة ما - أنه ليس من "أمريتسار"، وفكر بأنه أستاذ زائر على الأرجح. كما شاهد مسز "بنداري" بصحبة زوجها الوسيم، ترتدي ذلك "الساري" من "البروكاد" الأزرق المائل للأخضر، الذي ساومت في ثمنه حتى أصيب "مهاجان" العنيد نفسه بالصداع، واضطر للانصياع إلى رغبتها في تخفيض السعر.

حملق "رامتشاند" في الجميع، مندهشًا لرؤية كل تلك الوجوه المألوفة، وجميع تلك الأقمشة التي يعرفها جيدًا، في مكان غير الدكان.

اكتشف أن الدكان، عالمه الوحيد، حيث تبدأ كل الأمور وتنتهي بالنسبة له. ليس بالنسبة لهن سوى نقطة انطلاق. ففي حين ينتهي دوره عند عرض الأقمشة عليهن، كن هن يشترينها ويلبسنها، وينطلقن لممارسة حيواتهن.

تلقت حوله. "هاري" محقّق. كل أفراد الطبقة الراقية في "أمريتسار" متواجدين في الحفل. تذكر "رامتشاند" فجأة حذاه الأجرى ورائحة قدميه النفاذة وقميصه المخطّط، وشعره غير الممشط. بدأ يأكل بسرعة أكبر. خشي أن يتعرف عليه أحد الحاضرين ويخبر "مهاجان" عن ذلك. ارتعد خوفًا لمجرد التفكير في ذلك.

عند انتهاء العشاء، أحس بصدمة حين وجد الناس يمسحون أصابعهم المتسخة في المناديل الورقية الجميلة، ثم يكوّرونها ويرمونها دون أدنى اهتمام بزخارفها البديعة. هؤلاء الناس!! لا يملكون أيّ منطق فعلاً! ربما كان هذا هو التصرف السليم فعلاً. ولكن ألا يرون كم هي خفيفة ورقيقة وناعمة؟ وتلك الأزهار الزرقاء. ألم يلاحظوا كم هي صغيرة؟

وضع المنديل في جيبه بحرص.

أخيراً، تمّ تقديم الأربعين صنفاً من الحلوى.

ران الصمت على جميع الحضور، بعد رفع صحن العشاء ووضع أطباق الحلوى الكثيرة مكانها.

تذوق "رامتشاند" ثلاثة منها، وحين أحسّ بالشبع التام، وبالإثارة، وبشيء من الاضطراب أيضاً. ركب الدراجة عائداً إلى مسكنه.



بعد ثلاثة أيام من حفل الزفاف، تعرّض "رامتشاند" لأضخم مفاجأة في حياته. كان ذلك الصباح في الدكان هادئاً. جلس يتبادل الحديث مع "هاري" الذي شاهد فيلم "غدر" للمرة الثانية، فراح يقص عليه الأحداث مشهداً مشهداً. استغرق "رامتشاند" في سماع تفاصيل الحكاية.

خلال ذلك، دخلت "رينا كابور" بمفردها.

أحسّ "رامتشاند" بذهول كبير. فخرج العرائس الجدد بمفردهن أمرٌ غير مألوف، إذ يتوجب عليهن حضور العديد من المناسبات المختلفة في تلك الفترة. عليهن

تلبية دعوات الغداء والعشاء في بيوت المعارف، والمشاركة في جلسات الصلوات الخاصة. والأغرب هو ثيابها البسيطة، طقم من ثوب قصير وسروال باللون الأصفر، دون نقوش أو تطريز. كما أنها تخلت عن المجوهرات الكثيرة والحلي الذهبية التي تميز العرائس، واكتفت ببضع ماسات محدودة. فغر "رامتشاندا" فمه حين رآها. راقب عينيها اليقظتين وهما تلقيان سهامهما الحادة في أرجاء المتجر. توقفتا حين لمحتاه. أقبلت نحوه دون تردد. أحس بالربع للحظة. لقد التزمت الصمت خلال حفل زفافها، لكنها ربما قررت أن تشكوه لمديره الآن، لأنه تجرأ على الذهاب لمنزلها والمشاركة في حفلها دون دعوة. سوف تصمم على أن يطرد من وظيفته فورًا عقابًا له.

بدأ يتصبب عرقًا. وقفت أمامه بصمت تام، وسددت نظراتها إلى وجهه.

حيًاها وهو يتلعثم. نظرت إليه بشيء من المرح، كما في آخر مرة رأته فيها.

سألها بوجَل:

- "سوري" يا سيدتي؟

ابتسمت بغموض هذه المرة:

- لا بأس. أرني بعضًا منها.

قالت ذلك بنوع من الاستسلام.

فجأة، ظهر "مهاجان" على قمة السلم. أقبل نحوها في لهفة:

- سيدتي! لقد رأيت سيارتك وسائقك أمام الدكان. تفضلي بالجلوس. لماذا حضرتِ بنفسك؟

كان بإمكانك أن تتصلي بي، لأرسل لك على الفور كل ما تريد.

التفت إلى "هاري" صائغًا:

- هيه! أنت يا ولدا! أحضر للسيدة زجاجة كوكا كولا، مع شفاطة. لا تنسَ أن تجلب كأسًا نظيفة أيضًا.

قال مخاطبًا "رينا كابور":

- تفضلي أرجوكِ. سأعرض عليك بنفسي كل ما تريدين.

رفعت يدًا متعجرفة. أوقفت تلك الحركة جميع الكلمات المتدافعة من فمه. نظر إليها بإجلال وقد علا وجهه تساؤل حائر. أشارت بإصبعها تجاه "رامتشاند":

- ما اسمه؟

قال على الفور:

- "رامتشاند" يا سيدتي.

- دعه هو يقوم بخدمتي.

أضافت ببعض الحدة:

- بهدوء ودون إزعاج.

فهم "مهاجان" التلميح فغادر مسرعًا، وقد انعكست على ملامحه الحيرة، التي امتدت إلى "رامتشاند" أيضًا. لقد جاءت بمفردها، بعد ثلاثة أيام فقط من العرس. لا أحد يشتري المزيد من الثياب بعد هذه المدة بالغة القصر. ظلت تنظر إليه دون أن تفارقها الابتسامة. كأنها تعرف عنه سرًا لا يعرفه هو شخصيًا.

استدار ليحضر لها مجموعة من "السواري"، من الرف الواقع خلفه. تذكر أنه لم يسألها عن النوع الذي ترغب به. التفت ليسألها عن ذلك. ألقت برأسها إلى الورا وأطلقت ضحكة عميقة، قالت بعدها:

- حرير.

أخرج عددًا من المنسوجات الحريرية وأخذ يعرضهم عليها. ألقت عليها نظرات خاطفة، دون اهتمام. لكنها استفسرت عن مكان سكنه وراتبه الشهري، وأرادت أن تعرف أيضًا إن كان متزوجًا أم لا. أجابها بمتهى التهذيب. ثم بدأت تسأله عن أشياء أخرى. رأيه في موضوعات مختلفة، وذوقه في الأشياء، وتحدثت معه حول مشاعره وعواطفه.

سرعان ما بدأ يشعر بعدم الارتياح، فلأول مرة تسأله امرأة عن أمور شخصية كهذه. أربكه الموقف تمامًا، وبخاصة أنها امرأة غير عادية. احمرَّ وجهه وتصرف بشكل غير معتاد. بدأ يثرثر. قال أشياء لم يكن يعينها، وترك بعض العبارات معلقة وناقصة. على أمل أن تفهم بنفسها ما يعنيه.

لم تفارق النظرة المرححة عينها.

جاء "هاري" بصينية عليها كأس نظيف، مملوء بـ"الكوكاكولا"، وقد وضع به شقّاطة. تناولته ووضعت به جانبا على الأرض، دون أن تتناول منه رشفة واحدة. بدت مستغرقة في الإنصات لكل كلمة يتفوه بها. فاقم هذا من إحساسه بالانزعاج، لأنه يدرك جيدًا أن كل ما يقوله تافه وسخيف.

في النهاية، شكرته بلطف، وتناولت عشوائيًا "ساري" يجمع بين اللونين الأزرق والأسود. ابتسمت له، مرة أخرى، بودّ ومرح. دفعت ثمن الساري، ثم ركبت سيارتها الرمادية اللامعة. عقب مغادرتها، صعد "مهاجان" إلى الطابق العلوي. اعتقد "رامتشاند" أنه سيكون غاضبًا لأن "رينا" طردته ببرود. لكن ابتسامته الكبيرة أكدت عكس ذلك. قال بانسراج:

- ممتاز يا ولد. ممتاز. لا بدّ أنك تركت لديهم انطباعًا طيبًا حين ترددت عليهم في منزلهم. هذه هي طريقة الحفاظ على الزبائن. عظيم. عظيم.

ملح كأس "الكولا" المثلّجة. أشار لها وسأل "رامتشاند":

- ألم تشرب السيدة؟

أجابه:

- كلاً. لم تتناول رشفة واحدة.

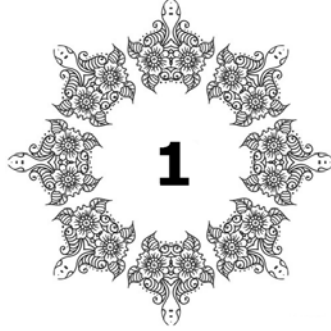
قال بسعادة:

- إذًا، اشربها أنت، مكافأة لك.

بعد أن هبط "مهاجان" السُّلم، نظر "رامتشاند" حوله. لم يكن أحد ينظر إليه. رفع الكأس التي كانت قد حملتها بيدها البيضاء الجميلة. وضع شفّتيه على الشفاطة، وامتنصّ المشروب كلّهُ، وقد احمرَّ وجهه تمامًا.

الجزء الثاني





جاء الربيع، وذهب بسرعة، كما يفعل عادةً.

غابت النسائم المنعشة المعطرة بشذى الزهور، وحلَّ محلها هواء شهر مايو الجاف والساخن والممتلئ بالغبار. خبأ الأولاد طائراتهم الورقية، لأن أسطح بيوتهم التي وقفوا عليها طوال الربيع، ليطلقوا منها طائراتهم الملوّنة، صارت حارّة ومشبعة بشمس الصيف. أصبح الهواء في الأسواق معبأً برائحة المانجو الناضجة، التي تدير الرؤوس. أما الثمار غير الناضجة، فقد هرعت ربّات البيوت إلى تخليلها. وسرعان ما لاحت البرطمانات الزجاجية الكبيرة، وقد امتلأت بقطع المانجو الخضراء، على أسطح البيوت وشرفاتها المشمسة. استطلت ساعات النهار، وضافت نفوس الناس، وغدت أعصابهم مشدودة ومتوترة. اشتاق الجميع للمطر، لكن السماء الصافية خلت من أيّ غيمة. تبخرت مياه الصرف الصحي، مخلفة قاذورات عطنة الرائحة. كما جفّت البرك القليلة المحيطة بـ"أمريتسار". دفنت الجواميس أجسادها السوداء الساخنة في الطين البارد، مظهرًا أعينها فقط.

امتلأت الطرقات بالأتربة، وحملت وجوه المشاة وراكبي الدرّاجات ملامح التعب والإرهاق. تنقطع الكهرباء بصفة يومية. وفي جميع أنحاء "أمريتسار" بات الناس متعبين وسريعي الغضب، أو كسالى ومنعزلين.

الأمهات يصحن في وجوه صغارهن المزعجين. الحموات يتشاجرن مع الكنّات الشابات. صغار العاملين والموظفين يتلقون صرخات وتأنيب رؤسائهم دون ذنب ارتكبه. حين ينقطع التيار الكهربائي، تلجأ العائلات للنوم في الشرفات المظلمة. ترفرف ذكرياتهم المشتركة فوق رؤوسهم، مع أسراب البعوض.

تجلس العجائز على سرهن الخفيفة، وهن يحركن الهواء الراكد بمراوح يدوية من الخيش، وقد أمسكن باليد الأخرى، التي بللها العرق، مساحح الصلاة. يتمتمن في هدوء بأدعية مختلفة.

خيّم على المدينة بأكملها جوّ من الظلم وانعدام العدل. وحتى الأغنياء، وهم كثر في "أمريتسار"، يفقدون أعصابهم من الطقس الفظيع، حين يخرجون من بيوتهم المكيفة الهواء.

خلال الظهيرة، يغيب الجميع ولا يبقى سوى باعة الآيس كريم البؤساء، وقد غطاهم العرق. إضافةً إلى سائق "التوك توك"، وقد وقفوا بعرباتهم تحت الأشجار الكبيرة يستظلون بها. وبالطبع، الكلاب الضالّة التي تتمدد على الطرقات المهجورة وهي تلهث.



لمنزل "تشاندر" سقفٌ من الصفيح. بعد أن تضر به شمس مايو، ولو لساعة واحدة، يتحول إلى قطعة جمر ملتهبة. ويصبح البيت الصغير أشبه بفرن مشتعل. هناك، في ذلك الطقس غير المحتمل، جلست زوجة "تشاندر" صباح أحد الأيام، وقد أغرق العرق جسدها. اسمها "كاملا"، رغم أن الجميع في "سيفاك - بيت الساري" يشيرون إليها في أحاديثهم بـ"زوجة تشاندر"، دون ذكر اسمها أبدًا.

منذ أعوام، كانت "كاملا" طفلة، بصفيرة مهوَّشة خلف رقبتها، وجسم نحيل، وعينين كبيرتين فضوليتين، تعيش في منزل صغير في "جانديالا". بلدة صغيرة جدًّا، أكبر بقليل من قرية صغيرة، تبعد بحوالي عشرين كيلومترًا عن "أمريتسار".

في تلك الدار الصغيرة، عاشت مع أمها وأبيها وشقيقها الذي يكبرها ببضعة أعوام. حين كانت في الثامنة، كان هو في الثالثة عشرة. والدها عامل في مصنع صغير، ينتج نوعًا غير معروف من مسحوق غسل الملابس.

بعد أن يتوجه أبوها إلى المصنع، ويذهب أخوها إلى محل الخياطة حيث يعمل كـ"صبي ترزي"، تخرج أمها للعمل في بيوت الناس. تطبخ طعامهم وتنظف منازلهم. في بعض الأحيان، تصطحب "كاملا" معها لتساعد.

حين كانت في الثامنة، لم يكن لديها سوى فستانين فقط، وكانا - في الأساس - ملغًا لطفلات بعض البيوت التي تتردد عليها أمها. أعطوهما لها حين ضاقت على تلك الصغيرات. كان قماش أحدهما منقوشًا مربعات من اللونين الأحمر والأزرق، وبه جيبان. والآخر قديم جدًّا، لونه وردي، به شريط ممزق من الـ"دانتيلا" في الياقة والذيل.

اعتادت "كاملا" أن تخدم نفسها. فرغم أن أمها كانت تغسل ثياب ابنها وتعد له الشاي وتخدمه، فإنها كانت تنبه ابنتها إلى أن الفتيات يجب أن يُجَدْنَ الأعمال المنزلية، وأنهن كلما أسرعن في تعلّمها وإجادتها، كلما كان ذلك أفضل لهن ولمستقبلهن. ولذلك، وفي محاكاة جادة لوالدتها، تجلس "كاملا" أمام صنوبر الماء، مرة في الأسبوع، وتفرك ثوبها بالصابون، ثم تشطفهما وتعصرهما جيّداً، وتقوم بنشرهما تحت الشمس بعد ذلك.

كانت تحب الفستان الأحمر والأزرق أكثر، رغم أن الـ"دانتيلا" في الفستان الوردي تشعرها ببعض العظمة، كأنها إحدى البنات اللاتي يعشن في بيوت كبيرة، ويركبن السيارات حين يخرجن، ويبتعن تلك الشوكولاتة المغلفة بأوراق بنفسجية. لكنها تفضّل الثوب الآخر لأن به جبين يمكنها أن تضع فيهما أي شيء. كما أنه يبدو في حال أفضل من الوردي المهترئ. وفوق ذلك، فإن ألوانه مرحة وزاهية. اعتادت "كاملا" أن تلبسهما بالتبادل. الوردي في يوم، والمربّعات في اليوم الذي يليه وهكذا..

في أحد أيام ارتدائها الفستان المربّعات. توفيت أمها.

كانت "كاملا" وأمها مفردهما في المنزل. الوقت يقترب من المغرب، وهما منهمكتان في إعداد العشاء.

تعلمت "كاملا" منذ فترة قريبة كيف تقشر البطاطس. جلست على الأرض، تقشر بضع حبات بسكين غير حادّ، لأن أمها تخاف عليها من استخدام السكاكين الحادة. راحت تثرثر بصوت مرتفع جداً. اعتلت أمها كرسيّاً صغيراً لتحضر برطمان الطرشي الكبير من فوق خزانة المطبخ.

- وهل تعرفين يا أمي ماذا قالت "جانجا" بعد ذلك؟ قالت إن "مينا" دائمة الغش في اللعب، وإن الحجر كان على حافة خط الطباشير، لكنها حرّكته بقدمها دون أن نلاحظ. ولكن أنا كنت أراقبها. لم تفعل ذلك. أمي.. هل تظنين أن "جانجا" تكذب؟ أنا عن نفسي لا أظن ذلك. ممكن يعني تكون مخطئة فقط.

ظلت الأم تومئ برأسها، و"كاملا" تواصل حديثها، دون انتظار لأي إجابة على أسئلتها. وقفت الأم على أطراف أصابعها، ومدّت ذراعها لأقصى ما تقدر، محاولَةً الوصول للبرطمان البعيد.

- هل أخبرتك أن أخت "جانجا" التي تزوجت، جاءت لزيارتهم؟ لقد أحضرت هدية لـ"جانجا" عبارة عن سوار فضّي. لا أقصد يعني أن لونه فضي يا أمي. لكن أنه من الفضة الحقيقية. وبه أجراس صغيرة صوتها حلو. وهل تعرفين ماذا تفعل "جانجا" طوال الوقت؟ تهزّ يدها هكذا حتى نسمع رنين الأجراس. تغيظنا يعني.

بعد عدّة محاولات، نجحت أمها في الوصول للبرطمان. أمسكته، وجرّته نحوها. قالت:

- ها هو أخيراً! يمكننا الآن أن نضع القليل منه على العشاء ونحن..

هنا.. ترنحت قليلاً فوق الكرسي، وارتفع حاجباها في دهشة بالغة، وهي لا تزال تمسك به بين يديها. وفجأة، انزلقت، ووقع المقعد على جانبه، محدثاً صوتاً مكتوماً، صاحبه صوت آخر لتحطّم شيء. وصمتت أم "كاملا" دون أن تكمل جملتها الأخيرة.

تكوّنت بركة من الدماء تحت رأسها. انكسر البرطمان أيضاً. بدأت طبقة من زيت الخردل تزحف نحو بركة الدماء. امتزج الاثنان. تناثرت قطع من الليمون والجزر حول الدم المختلط بالزيت. جلست "كاملا" في مكانها، وفمها مفتوح قليلاً، وهي ممسكة بحبة بطاطس نصف مقشرة في يدها اليسرى، وبسكين ثلم في يدها اليمنى. تجمعت قشور ملتوية بجوارها على الأرض.

هكذا وجدها أخوها حين عاد من عمله بعد ساعتين. استوعب المشهد المائل أمامه، وأحس بطعم شديد المرارة في فمه. أزال السكين من يدها، وأرسلها لتحضر عمّتها من منزلها القريب.

في البداية لم تتحرك "كاملا" من مكانها، وبعد ذلك دفعها شقيقها في ظهرها برفق، وقال بصوت مختنق:

- اذهبي يا "كاملا".. هيا.. اذهبي لتحضري عمّتك. أخبريها بما حدث. ستأتي معك. سأذهب بعدها لأحضر أبي من المصنع.

سارت في الطريق المؤدّي لبيت عمّتها وهي ذاهلة عمّا حولها. حين وصلت هناك، ظلت تعيد وتكرر أن البرطمان قد تحطم. بعد ذلك، انفجرت في البكاء فجأة. هزّتها العمّة من كتفها، وسألته عمّا حدث بالضبط. قالت من جديد:

- البرطمان.. لقد تحطم.

لكنها أضافت هذه المرّة:

- وأمي معه.

مرّت الأيام التالية على "كاملا" وهي لا تزال على ذهولها وصدمتها الأولى. كان والدها وشقيقها متباعدين عنها. انشغلا بالتحضير لحرق الجثّة ولترتيب أمر الصلوات. انشغلت العمّة أيضاً بخدمة الضيوف من الأقارب، الذين أتوا ليقيموا معهم خلال فترة العزاء. كانت تعد لهم الطعام، وتهيئ لهم أماكن ينامون فيها. وكانت "كاملا" تساعدنا طوال اليوم. تقطّع الخضراوات، وتطوي الملاءات والأغطية، بينما قلبها يتمزق ألماً في كل لحظة.

قالت لها العمّة:

- اسمعيني جيداً. صار عليك الآن أن تتولى شؤون البيت، مثلما كانت أمك تفعل بالضبط. ستعتنين بأبيك وشقيقك. اتفقنا؟ أنت الآن فتاة كبيرة.

أومأت "كاملا" برأسها في طاعة.

بدأت تخرج للعمل، كما اعتادت أمها أن تفعل.

وكما أمها، كانت عمّتها تطبخ وتنظف في البيوت الكبيرة. أخذت "كاملا" تحت جناحها، وصارت تصطحبها معها إلى المنازل التي تتردد عليها. الفتاة سريعة التعلّم. تكسّس الغرف بحركات سريعة وخفيفة، تنظّف تحت الأسرة وخلف الأرائك وتحت السجّاد. تستلقي على بطنها، وتصل بالمكنسة إلى الزوايا البعيدة. تنظف رفوف المطبخ، وتمسحها بخرقه مبللة، لتزيل عن أسطحها بقع الزيت والصلصة. تنظف أحواض المطابخ بدقة.. تزيل فتات الأطعمة وبقايا قطع السلطة، حتى لا تُسَدّ الأحواض. تقطع البصل والطماطم والزنجبيل لمكعبات صغيرة متساوية، ثم تغطيها بصحون مقلوبة، لتستخدمها صاحبة المنزل فيما بعد، عند طهي الغداء.

سرعان ما بدأت تحصل على مئة روبية شهريًا، بسبب رضا أصحاب المنازل عن عملها المتقن.

واصلت ارتداء الفستانيين بالتبادل، حتى ضاقت عليها، فبدأت تلبس أطقمًا من أثواب قصيرة وسراويل.

حين بلغت الرابعة عشر، تزوج شقيقها. ولتأمين مكانتها في المنزل، حرصت زوجة الأخ على أن تكون هي المسؤولة عن المطبخ، وجعلت "كاملا" مجرد مساعدة لها. صارت الآن هي التي تقرر نوعية الطعام وكميته، وتطهوه بطرقها الخاصة.

انحصر دور "كاملا" في تقطيع الخضراوات، والتنظيف وأداء المهام التي تأمرها زوجة الأخ بها.



في السادسة عشرة، حين تزوجت "تشاندر"، كانت "كاملا" فتاة جميلة بعينين جدّابتين، تتسم بالمرح في معظم الأحيان. لكنها كانت تستسلم، في بعض الأوقات، لفترات صمت طويلة. لم تفهم العائلة أبدًا سرّ هذا الصمت التام الذي تمتنع فيه عن الحديث مع أيّ شخص كان، وتكتفي فقط بالكلام مع نفسها، بههمة غير مفهومة، أو تنهمك بتطريز الورود على بقايا الأقمشة التي يحضرها أخوها من المصنع، الذي صار يعمل فيه مسؤولًا عن قصّ الأقمشة، إلى جانب عمله كحائك. وحين كانت تتعرض لهذه الحالة، لم تكن تجيب على أيّ سؤال، لا بإيماءة ولا بحركة، وهو ما كان يثير حنق وضيق أفراد أسرته. ومع ذلك، كانوا يتقبلون الوضع - في معظم الأحيان - لأنه لم يكن يضرّ أحدًا.

وكانوا مقتنعين بأن السبب الوحيد لما هي فيه، هو فترة المراهقة التي تمرّ بها. كانوا أيضًا متأكدين من أنها ستصبح طبيعية، بمجرد أن تتزوج.

في تلك الفترة، صارت "كاملا" طاهية ماهرة. تتردد على ثلاثة بيوت مختلفة يوميًا، لتطبخ لهم الخضراوات والعدس والأرز، ثم تغسل أوانيهم وأوعيتهم، وتركها لامعة. برّاقة، قبل انصرافها. كما ارتفع دخلها الشهري إلى أربعمئة روبية، وأصبحت تحصل على بعض الثياب القديمة بين الحين والآخر، ووجبة طعام يومية في المنزل الكبير ذي اللون الأبيض، وكوب واحد من الشاي في البيت الجميل المزدهان بالنباتات المتسلّقة. وتناولها كل أسرة عشرين روبية إضافية وبعض الحلويات في كل عيد "ديوالي". في بعض الأحيان، تعود للدار برغيفين ييست حوافهما قليلًا، وبعض قطع المانجو المخللة، التي يغطي الزيت سطحها الداكن.

بينما كانت تكنس الأرض في أحد تلك البيوت، لمحت "كاملا" - مرّة - خرزة زجاجية جميلة، لونها أحمر لامع. لاحظت أن بها ثقبين متقابلين، لإدخال خيط فيهما. توقفت يدها اليمنى التي تقبض بأصابعها على المكنتسة. انحنى ومدّت يدها اليسرى لتلتقطها. رفعتها تجاه نور الشمس المنسكب عبر النافذة، تزايد لمعانها، واكتسبت الخرزة بريقًا جديدًا. ابتسمت "كاملا".

رَبّة المنزل امرأة طيبة، تقضي معظم وقتها في متابعة الأفلام. حوّلت عينيها عن الشاشة

وقالت:

- "كاملا" ما هذه الابتسامة العريضة؟

- إنها هذه الخرزة يا سيدتي. إنها جميلة. كلاً.. إنها جميلة جدًا جدًا.

- آه.. تلك التي في يدك؟ إنها رخيصة جدًا. ابنتي الصغيرة اشترت علبة كاملة منها لتصنع بعض العقود لدميتها. لكنها انتهت من ذلك. ما أكثر السخافات التي تقوم بها تلك البنت! ليتها تذاكر دروسها بدلاً من ذلك. أيّ مستقبل ينتظر فتاة غير متفوقة؟ هذه الأيام حتى الزواج يحتاج لشهادة بكالوريوس! المهم.. بقية العلبة لا تزال موجودة. خذيها بدلاً من أن تظل هنا دون فائدة. سأحضرها لك الآن.

أومأت "كاملا" بعدم تصديق. قامت المرأة من على مقعدها، وسارت بخطوات بطيئة، وعادت بعد قليل بعلبة صغيرة من الورق المقوى، ناولتها لخادمتها. فتحتها. وجدتها مملأة بمجموعة كبيرة من الخرز اللامع المصقول. قالت وهي تضمّ العلبة إلى صدرها بفرحة:

- أشكرك يا سيدتي.. شكراً.. شكراً..

- هاه.. سعيدة الآن؟

- نعم.

- إذًا، قومي بفرك الملابس جيّدًا حين تغسلينها اليوم. القمصان البيضاء لم تكن نظيفة تمامًا بالأمس.

- ولكن تلك البقع كانت ناتجة عن "الكركم" يا سيدتي، وهي لا تزول بشكل جيد، مهما قمت بفركها.



ذلك المساء، كانت "كاملا" تصنع عقدًا من الخرزات الحُمر، بواسطة خيط وإبرة، حين عاد والدها من مصنع الصابون. عادةً، يرجع من عمله منهكًا وصامتًا، ولا ينطق بكلمة إلى أن يفرغ من شرب الشاي الذي تعدّه له ابنته أو زوجة ابنه. لكنه في ذلك اليوم، وضع "عمود" الأكل الذي اعتادت "كاملا" أن تملأه له بطعام الغداء صباح كل يوم، ونادى أفراد الأسرة. جاء أخوها، فور سماعه نداء أبيه، وهو يتمنى ألا تكون هناك مشكلة مادية ينبغي مناقشتها وإيجاد حلّ لها. لحقت به زوجته، وهي تحمل رضيعها بين ذراعيها. ظلّت "كاملا" في مكانها، ممسكة بالخيط والإبرة، وقد تناثر الخرز الأحمر في حجر ثوبها. أخبرهم الأب بأنه قد اتفق على تزويج "كاملا" لابن زميل له في العمل. ابتسم الأخ. احتضنتها زوجته. وظهرت السعادة على وجوه الجميع.

ابتسمت "كاملا" بلا اهتمام، لأنها تتوقع ذلك منذ مدّة. كل فتاة تعرف أن يومًا كهذا قادمٌ لا محالة. بدأ الأب وابنه في مناقشة ترتيبات الزفاف. انسحبت "كاملا" إلى المطبخ لإعداد الشاي. التزمت الصمت، لإدراكها أن هذا هو المفروض في موقف كهذا، بينما اندفعت زوجة شقيقها - التي دخلت وراءها - في ثرثرة متواصلة. لم تنتبه للكثير ممّا قالت.

فيما بعد، حين استرد الجميع هدوءهم، واستعدّوا للخلود إلى النوم والراحة، عادت "كاملا" إلى عقدها غير المكتمل، وواصلت إدخال الحَبّات اللامعة في الخيط، تحت ضوء المصباح الكهربائي. الزواج يتمّ كل يوم، لكن الحصول على خرز أحمر.. قليلاً ما يحدث.

لكن العاصفة لم تهبّ إلا قبل الزفاف بأسبوع، حين علمت أن الرجل الذي ستتزوج، والذي لم تره أبداً، ولم تكن مهتمة به بشكل خاص.. يعمل وقيم، بشكل دائم، في "أمريتسار"، وأن عليها الانتقال معه إلى هناك.

مجرد سماعها ذلك، انهارت "كاملا"، وانهمرت دموعها دون توقف. انتحبت وأعلنت لأبيها أنها لن تتزوج. اقتربت زوجة شقيقها منها، محاولةً التخفيف عنها. لكن "كاملا" أراحت ذراعها التي أحاطتها بها، بنفاد صبر. قال لها والدها بنبرات هادئة بأنه يجب عليها ألا تنطق بمثل هذا الكلام، فقد تمّ الاتفاق على كل شيء بالفعل، وانتهى الأمر. أضاف ناصحاً إياها بأن عليها فقط أن تركز تفكيرها واهتمامها في أن تكون زوجة صالحة.

هدأت "كاملا". لأنها تعلم جيداً أنه محقّ. لكن الشعور بالقلق لم يفارقها. كانت تتوقع أن يكون "تشاندر" - هكذا سمعتهم يرددون اسمه - مثلها من سگان "جانديالا"، التي لم تغادرها بتاتاً. فكرة أن تعيش بعيداً عن أسرتها، بمفردها، في مدينة غريبة. أرعبتها لأقصى درجة؛ فاحتكاكها بالعالم الخارجي محدود جداً، ولا تعرف سوى أسرتها وأقربائها وأصحاب البيوت الثلاثة التي تعمل فيها. لحرص والدها على إبعادها عن شرور الدنيا الواسعة. لطالما خاف من أن تصبح ابنته صعبة المراس وسيئة الأخلاق، في غياب أم ترعاها وتوجهها. الدار الصغيرة التي تجمعهم هي عالمها الحقيقي، والمكان الوحيد الذي تشعر فيه بالأمان، بحجرتيها الضيقتين. لأخيها وزوجته وطفله، واحدة، ولأبيها الأخرى. الأشدّ ضيقاً. والأقرب لجُحر يتسع بالكاد لفراش صغير وزير ماء. أما هي، فاعتادت أن تنام في المطبخ. وضعوا لها هناك سريرًا صغيرًا مغطىً بملءة خضراء، تستخدمها أحياناً كشال تتدفأ به في الأيام الباردة. أسفل السرير، وضعت صندوقاً من الصفيح، تحتفظ داخله بممتلكاتها القليلة. هذا هو عالمها

المألوف، الذي اعتادت تفاصيله. وها هي تراه يوشك على الاختفاء، لتحل محله أمور جديدة لا تعرف شيئاً عنها. وهكذا، فإن "كاملا" بدلاً من أن تشعر بالإثارة والتشوق كأبي عروس، فإن كل ما أحسّت به هو الخوف الشديد.

ستظلّ أسرتها وأسرّة "تشاندر" تواصلان حياتهما المعتادة في "جانديالا". أما هي. فسوف تكون بمفردها في "أمريتسار" مع رجل غريب، في بيت غريب. صارت تمضي الليالي على فراشها وهي تردد هذه الجملة في رأسها آلاف المرات، حتى تشعر بصداع حادّ. ظلت على هذا الحال فترة طويلة، إلى أن شعرت مرّة بأنها قد تعبت ووصلت لمرحلة الإنهاك والإجهاذ. واقتنعت - أخيراً - بأنها لا يمكنها فعل شيء. قالت لنفسها إنه ينبغي على الفتيات أن يتأقلمن مع ظروفهن، كيفما كانت. وبدأت تنام بانتظام، مرّة أخرى.



في صباح أحد الأيام الصافية، تزوجت "كاملا" من "تشاندر". بعد ذلك، صارت كلّمًا حاولت تذكّر ذلك اليوم، يطغى على ذاكرتها أمرٌ واحد... رائحة حلوى الـ"لدو"⁽⁷⁾.

كُرات الـ"لدو" الصفراء الشهية، وقد رُصّت بأشكال هرمية على أطباق معدنية. يتمّ تقديمها لضيوف يلبسون ثيابًا مبهرجة. أطفال الجيران يسرقون عددًا منها بخفّة وهم يجاهدون لكتّم ضحكاتهم. الأسرة تضع منها للآلهة في

(7) اللدو: حلوى من حبات الحمص الأصفر والسكر والسمن، تصنع على شكل كريات.

المعبد، وتهدي كميات أخرى للأهل والأقارب بعد توزيعها في علب حمراء من الورق المقوّى. بنتٌ صغيرة تهربُ حبةً واحدةً لـ"كاملا"، التي جلست في حجرة شقيقها وزوجته، تنظر إلى كفيها المصبوغتين بالحنّة.

في اليوم السابق، أعدت زوجة شقيقها وبعض بنات الجيران الحنّة في إناء صغير. غمست عود كبريت في المزيج، ورسمت على كفي "كاملا" دائرتين، بدقة متناهية. ثم ملأت فراغهما بالمزيد من الحنة. بعدها، تشاركت الفتيات وهن يتضحكن في صبغ أطراف أصابعها بالمعجون الغامق. بعد ساعات قليلة، جفّت الحنة وتقرّشت، مخلّفة على يديها لونًا برتقاليًا داكنًا أعجبها. لكنها تمت لو أن زوجة أخيها رسمت شيئًا أكثر إبداعًا وجمالًا من مجرد دائرتين.

حين دسّت الطفلة في يدها حبةً "لدو" ملفوفة في منديل قدر، تناولتها "كاملا" بشرود تامّ. تذوقت القليل منها وهي مستسلمة لإحساسها بالقلق والتوتر. ملأت رائحة الحلوى المكان، وظلت عالقة في جوّ البيت، وغطاء السرير الأخضر القديم، وفي ملابسها وشعرها أيضًا.

الذكرى الثانية التي تحملها معها من ذلك اليوم هي دموعها، وهي ترجو عمتها أن تدعها تتزين بعقد الخرز الأحمر. رفضت العمة بحزم وإصرار.

- لن تضعي هذا الشيء يا "كاملا". يا ويلي! ماذا سيقول الناس عنّا؟

- ولكن يا عمتي. إنه مناسب تمامًا لثيابي.

قالتها وهي توشك على البكاء..

كانت تلبس ثوبًا قصيرًا من قماش اصطناعي أحمر، دون نقوش أو تطريز، مع سروال من اللون نفسه والخامة نفسها. استطاع أخوها أن يحصل على الطقم بسعر رخيص من المصنع الذي يعمل فيه. اشترت وشاحًا أبيض، ثم أخذته لمصبغة قريية، لتتم صباغته بنفس درجة ملابسها. قامت بعدها بتطريزه ببعض الخيوط الذهبية اللون، وخاطت زوجة شقيقها حبيبات معدنية لماعة على الأطراف.

بدت "كاملاً" جميلة جداً، وهي تضع الوشاح البراق على رأسها. لكنها كانت تتوق إلى تزيين عنقها بالخرز الأحمر.

- أنا أرغب في أن أضع العقد الأحمر يا عمتي.. أرجوك.

- كلاً. ستضعين السلسلة الذهبية التي ورثتها عن المرحومة أمك، وزوج الأقران الذي اشتراه والدك لك لهذا اليوم خصيصاً. قد تكون أشياء بسيطة في نظرك، لكنها كافية لأناس مثلنا يا ابنتي. ماذا سيقول الناس حين يشاهدونك تلبسين عقدًا من الزجاج الرخيص؟!

- ولكن يا عمتي، أنا متأكدة من أنني سأشعر بتحسّن إن أنا لبست ذلك العقد وأنا ذاهبة إلى "أمريتسار" الليلة.

أضافت وهي تغالب البكاء:

- على الأقل سأشعر بأنني أنا.. ما زلت أنا.

صاحت المرأة بانزعاج:

- ما هذا الكلام الأبله؟! أنتِ هي أنتِ بالطبع.

أردفت بحنان:

- اسمعيني يا حبيبتى. كل البنات يشعرن بتوتر بالغ في يوم عرسهن. ولكن ينبغي عليك أن تهدأى وأن تنفذي ما نقوله لك. لقد صرتِ عروسًا، وستصبحين منذ الليلة امرأةً جديدةً بتحمل المسؤولية، فكفّي عن التصرف كطفلة.

- ولكن يا عمتي.

- كفى يا "كاملا". لا تحوّلي الأمر إلى مشكلة. كوني فتاةً مطيعة. وكوني ممتنةً لأبيك. قد يكون المسكين رجلاً فقيراً، لكنه مع ذلك فعل الكثير من أجلك ومن أجل عرسك. لستِ ابنة كنّاس شوارع لتضعي هذا الزجاج القبيح بدلاً من الذهب.

ظلت العمة متمسكة بموقفها الراض، بإصرار تام، إلى أن استسلمت "كاملا" في نهاية الأمر.

لا تتذكر الكثير عن أي شيء آخر يتعلّق بذلك اليوم.

جاءت لتعيش في "أمريتسار" مع "تشاندر"، حاملّة كل ممتلكاتها في صندوقها القديم المصنوع من الصفيح. وضعت بداخله "السارين" اللذين اشتراهما لها والدها بمناسبة زواجها، وبضعة "سواري" أخرى أهدتها إياها ربّات البيوت اللاتي عملت في بيوتهن، قبل رحيلها. إضافةً إلى بضعة أطقم قليلة من الأثواب القصيرة والسراويل. كما حملت معها كل ملابسها الداخلية، ومشط ومرآة، وعبوة "سيندور" وعدد من الـ"بيندي"، وبعض الفوط الصحية التي صنعتها من بقايا أقمشة قديمة.

أشرفت العمة على وضع المحتويات في الصندوق. وبعد مغادرتها، عائدةً إلى بيتها، فتحته "كاملا"، ووضعت المزيد من الأغراض.

وهكذا، أضافت للأشياء التي أخذتها معها إلى "أمريتسار". العقد الأحمر العزيز على قلبها، والفتانين اللذين لبستهما لسنوات خلال طفولتها. الوردية، والآخر ذو المربعات الحمراء والزرقاء (في حال رزقت بطفلة في المستقبل). وعبوة كريم "فير آند لافلي"، التي أمضت الشهرين السابقين على عرسها في ادّخار ثمنها. ودبّوس مشبك نحاسي مستورد، و"إيشارب" من الحرير الصيني أعطتها إياه إحدى ربات البيوت الكبيرة منذ زمن. كما حملت معها قناعة تامة بأن بقع "الكركم" لا يمكن أن تزول بالصابون، مهما فركتها أثناء الغسيل.





بدأت "كاملا" حياتها الزوجية بالطريقة نفسها التي تتبعها كل الفتيات اللاتي تعرفهن. لم يكن هناك من ينتظر منها أن تخرج للعمل بعد زواجها، بل توقع الجميع أن تحمل في أسرع وقت، وتلد لهم طفلاً أو أكثر. وكان "تشاندر" قد أخبرها بأنه لا داعي لأن تلتحق بالعمل في بيوت جديدة، لأنها سوف تتركها بعد فترة قصيرة حين تحمل. ونصحها:

- يمكنك أن تبدأي في ذلك بعد أن يكبر الصغار بعض الشيء. وحتى ذلك الوقت، يمكنني تدبّر أمورنا، فلست فقيراً لتلك الدرجة.

صار لها برنامج يومي تطبّقه يومياً. تطهو الطعام وتغسل الثياب، وتنظف بيتها الجديد المكوّن من حجرة واحدة صغيرة يعلوها سقّف من الصفيح. طمأنها زوجها بأنها سينتقلان إلى منزل أفضل قريباً، فور أن يدخّر مبلغاً معقولاً، ودكّرهما بأنه سيحصل على علاوة عيد الـ"ديوالي" عمّا قريب.

والواقع أن المال كان شحيحاً، وساعات العمل طويلة ومرهقة. اعتاد أن يذهب إلى مصنع الملابس، حيث يعمل، في وقت مبكّر من صباح كل يوم، ولا يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل. بات لزاماً عليها أن تقتصد وأن توقّر

وتدّخر. لكن ذلك أمر اعتادت عليه. لم يكن الوضع يختلف كثيرًا، من هذه الناحية، عن بيت أبيها. لكنها لم تعرف الوحدة هناك أبدًا.

أصبحت شديدة الاقتصاد. ترفو ثقوب الملابس القديمة، وترتق الأطراف المنسلّة، وتعيد خياطة القطع التي لا تشكو من أيّ عيب، حتى لا تتعرّض للتمزّق. كما تحتفظ بزيت القلي عقب الانتهاء من الطهي، لإعادة استخدامه بضع مرّات أكثر.

اعتمدت في حياتها الجديدة على إعادة استخدام كل شيء، واستغلال أيّ بقايا حولها. من ورق وأقمشة وغيرها. وطهي الطعام بأقل قدر ممكن من التوابل. وتوقفت عن استخدام الثوم تمامًا.

وتنجح بذلك في توفير القليل من الروبيات شهريًا.

لكن شيئًا ما لم يمضِ بطريقة ناجحة. بدأت تفكر بجديّة في حياتها.. وأدركت أنها تشعر بتعب شديد منها.

يسرف "تشاندر" في الشرب، ثم يعود ليضربها. الأمر شائع بالطبع. تعرف ذلك جيدًا. الرجال يضربون زوجاتهم. نوع من الروتين، لا أكثر ولا أقل. ليس عليها أن تنزعج من الأمر. لكن الحقيقة أن الموضوع كان يشعرها بالضيق والانزعاج. يلزمها بعده إحساس حادّ بالمرارة، ويتركها في مزاج سيئ.

تمرّ عليها ساعات اليوم وهي تؤدّي واجبات منزلية متكررة. تفرك وتنظف وتقطّع وتفرم. والتقطيبة تعلق وجهها، ووحدها تكبر وتتوحش حتى تكاد أن تخنقها. ويتزايد شعورها - بمرور الأيام - أنه لا طائل من كل ما تقوم به.

الشبّاك الصغير، والضوء الرمادي الشحيح الذي يتسرب عبره، يفاقمان من إحساسها بالاختناق. تراقب الضوء الكئيب وهو يتغير إلى رمادي مُضيء ظهرًا، ثم وهو يستعيد درجته الكابية مع أول المساء. يتبعه الظلام. عندها فقط تنير المصباح الكهربائي الصغير المثبت على الحائط. أسلاك عارية تربطه بلوحة مفاتيح الكهرباء.

تطهو العشاء، ثم تبدأ في انتظار "تشاندر". يأتي مترنحًا، بعد انتصاف الليل أحيانًا. يسقط على السرير وينام بهدوء في بعض الليالي؛ أو يفتش عن سبب ليتشاجر معها ويضربها في ليالٍ أخرى. وبعدها يلاطفها بكلمات ينطقها بصعوبة، وبلمسات من يديه الرطبتين.

بعد انقضاء ستّة أشهر على زواجها، جاءها نبأ وفاة أبيها. اتصل أخواها بالمصنع الذي يعمل فيه زوجها وترك له الخبر مع رئيسه، الذي غضب لأن "تشاندر" أعطى رقم تليفون المصنع لأقربائه. عاد إلى البيت من فوره وأبلغها الخبر. وقبل أن تتمكن من استيعاب ما قاله لها، كان قد أركبها حافلة كتب عليها "بنجاب رود وايز" ودسّ في يدها عشرين روبية. تفاقزت الحافلة طوال الطريق إلى "جانديالا". حين وصلت، توقعت أن ترى شقيقها أو أحدًا من أقاربها في انتظارها. لكنها لم ترَ أيّ وجه مألوف في الموقف. اضطرت لركوب "توك توك" بمفردها، للمرة الأولى في حياتها، وهي تشعر بالذعر.

لحق بها "تشاندر" في اليوم التالي.

في الشهر الذي أعقب وفاة أبيها، خسر شقيقها وظيفته في مصنع "تشانديريكا للملابس الجاهزة"، إذ استعان أصحابه بالآت حديثة لأداء الكثير من المهام، ولم يعودوا بحاجة لعدد كبير من العمّال والخيّاطين.

أمضى شهرين في البحث عن وظيفة جديدة، لكن المصانع كلها كانت ممتلئة بأعداد هائلة من العمّال. في نهاية الأمر، اضطر للانتقال إلى "جالاندار" مع زوجته التي نجح شقيقها في العثور له على عمل هناك. بعد أن استقرّ هناك، استغرقت حياته الجديدة تمامًا، ولم يتصل بـ"كاملا" بأيّ وسيلة من الوسائل. ظلّت تردد لنفسها بأن الأمر غير مهم على الإطلاق. لكنها، في قرارة نفسها، عرفت أنها لم تفقد أياها فحسب، بل فقدت معه المكان الوحيد الذي عرفته، وأنست إليه، طوال حياتها. والآن. سيكون منزل "تشاندر" هو بيتها الوحيد لبقية حياتها. كل يوم من عمرها سيبدأ هناك. وينتهي هناك أيضًا.

تزايد إحساس "كاملا" بالوحدة. أكثر من أيّ وقت مضى.



بعد ذلك، حملت "كاملا".

لم يكن لديها فكرة معيّنة عن الحمل. لطالما ظنّت أنها مجرد مرحلة تقليدية، تلي مرحلة الزفاف. لم تتخيّل يومًا مدى الأشواق التي تشعر بها الأم الحبلى. ولم تتصور أن الحمل سيشعرها بكل تلك السعادة.

بدا أن عالمها قد تغيّر في يوم وليلة، أصبح عالمًا جديدًا. طازجًا. منعشًا. أحسّت بأن كل أحزان العام الماضي قد انتهت وولّت إلى غير رجعة. بدأت تبتسم لنفسها أحيانًا، وهي تؤدّي الأعمال المنزلية. أصبحت تنتظر وصول طفلها بفارغ الصبر، وهي متيقنة من أنها لن تشعر بالسأم بعد قدمه أبدًا، ولا بالقلق أو التوتر؛ وبالتأكيد لن تعرف الوحدة ثانيةً. أصبحت أكثر اهتمامًا بالأشياء من حولها. تقف بالباب في بعض الأحيان لتراقب البقرة البيضاء القذرة، التي تحتل شارعهم، وهي تمدّ رأسها في أكوام القمامة بحثًا عن

الطعام. صارت تتابع بعينيها أطفال الحارة وهم يرسمون على الأرض مربعات بالطباشير، ويتقافزون مبتعدين كعصافير صغيرة، كلما مرّت درّاجة في الرقاق الضيق. ودائمًا، تنصت بشغف لصياح جاراتها المتبادل، وهن يتشاجرن على أولوية استخدام صنوبر البلدية العمومي. بعد عدّة أيام من زفافها، اكتشفت "كاملا" سرّ هذا الصنوبر بالصدفة. استيقظت فجرًا وهي تشعر بالضيق والاختناق. كانت الحجرة تغرق في مزيج من الروائح النفاذة، مصدرها العرق والكحول. خرجت من البيت، وهي تحكم لفّ الشال حول كتفيها. أدارت رأس الصنوبر النحاسي، على أمل أن تجد فيه قطرات عالقة من الماء، وفوجئت بأن به ماء فعلاً. غسلت وجهها، ثم عادت للحجرة.

لم يكن أحد يعرف بأن هناك ماء، في ذلك الوقت المبكر من اليوم. احتفظت بالسرّ لنفسها، وصارت تملأ الدلو البلاستيكي الأخضر في الساعة الرابعة فجر كل يوم، حتى لا تضطر للوقوف في طوابير طويلة مع الأخريات، في الساعة التاسعة صباحًا. حين تقف في الظلام، في انتظار امتلاء دلوها بالماء، كانت تشعر بفيض من الامتنان تجاه البلدية التي لا تدرك هذا الخلل!

بدأت "كاملا" تشعر بالاستقرار في حياتها. تجلس على عتبة الباب، تنو إلى نسوة الحارة وهن يتبادلن الثثرة، وتتساءل في حيرة إن كان بإمكانها أن تصاحب بعضهن؟ ربما قبلن صداقتها وتكلمن معها، رغم أنها غريبة عنهن وعن المنطقة. ربما استطاعت، من خلالهن، أن تصبح جزءًا من المجتمع. الأهم من كل ذلك، عليها أن تحاول بدأب كسب ودّهن ليستطيع طفلها أن يلعب مع أولادهن مستقبلًا. عليها أن تبدأ الآن.

لكنها لم تكن بحاجة لكل هذا التفكير والتخطيط؛ ففي الشهر الثالث من الحمل، تعرضت "كاملا" للإجهاض.

كان "تشاندر" في عمله، في ذلك الوقت. فزعت "كاملا" حين رأت الكتل الحمراء ما بين ساقَيْها. أدركت فوراً ما كان يحدث، فخرجت إلى الطريق العام بخطوات سريعة. ركبت "توك توك"، بمفردها، للمرة الثانية في حياتها. طلبت من السائق أن يتوجه إلى أي مستشفى حكومي. أرخص مستشفى يعرفها. جلست وضمّت ساقَيْها إلى بعضهما، وانتحبت طوال الطريق الذي امتدّ لنحو كيلومترين.

أحسّت بالغضب من حمايتها، لأنها بعيدة عنها. وشعرت بالحنق تجاه أمها، لأنها ماتت ورحلت عنها؛ وبالكرهية نحو "تشاندر" الذي يتركها بمفردها يومياً. راحت تبكي بعنف، وقد امتلأت بالحنق تجاه الجميع. كان إحساس البلل، بين ساقَيْها، يتزايد في كل لحظة. كان كل ما في المستشفى بارداً. رائحة المطهرات. الوجوه البائسة. الثياب البيضاء التي يلبسها جميع العاملين. البلل المتدفق من جسدها. الأسرة. كل شيء.

طاردها الخوف في ردهات المبنى المزدهم. شقّت طريقها عبر رائحة الأدوية والدماء المثيرة للغثيان، والناس المنتظرين أدوارهم في الكشف. مرضى وأقاربهم. جاؤوا من القرى القريبة، ينتشرون في المكان. يفتشون قاعة الانتظار. ينامون ويأكلون ويثرثرون في الممرات. بعضهم يحتلّ غرفة المخزن، التي تحوي نقالات معدنية لحمل المرضى والمصابين. بعض الوجوه قلقة ومتعجلة، والأخرى جامدة ولا مبالية. من طول الانتظار.

سألت بلهفة، والدموع تنهمر بغزارة من عينيها، عن الشخص الذي يتعيّن عليها التوجه إليه. لم يعرّها أي شخص أدنى اهتمام، ولم يأخذها أحد على

محمل الجدّية. إلى أن لمحووا الدماء تسيل على كاحليها، من تحت "الساري". هنا فقط، تمّ إدخالها إلى عنبر يمتلئ بأنين مرضى عديدين. طاف في المكان رجلٌ يجمع ضمادات مغطاة بالدماء، ويلقيها في سلة يحملها بيده الأخرى. أحسّت "كاملا" بغثيان شديد، ورغبة ملحة في التقيؤ.

طلبوا منها الاستلقاء على وجه السرعة. فحصتها طبيبة وقحة، قصيرة وممتلئة، ولها فكٌ عريض. تنبعث من فمها وأنفاسها رائحة يصل نفاذة. دخلت "كاملا" المستشفى، وغادرته في اليوم ذاته.

الألم الرهيب والخوف الشديد، جعلها غير مدركة لما يحدث حولها. أيدي تتلمّسها. وجوه تحوم وتقرب منها. برودة. هذا فقط كل ما تتذكره. قبيل مغادرتها، كانت لا تزال غير مستوعبة تمامًا لما تمرّ به. الألم الشديد في بطنها، تتزايد قسوته عند تحريك ساقيها. قالت لها الطبيبة بسرعة، وبعبارات مقتضبة، بأنها قد فقدت الجنين، وإنها غير قادرة على الإنجاب ثانيةً. لم تشرح لها شيئاً، واكتفت بغمغمة عن القرويات الجاهلات، قبل أن تنتقل بعجالة إلى مريضة أخرى.

دفعت "كاملا" الفاتورة من النقود التي ادّخرتها من مصروف البيت. ركبت "توك توك" آخر، وعادت إلى البيت في حالة ذهول، وهي تنظر للمدينة الغريبة حولها دون وعي أو فهم. تلك الليلة، انتظرت "تشاندر" بصبر نافذ.

عاد متأخراً، وثملاً. أكثر من أيّ مرّة سابقة. قصّت عليه ما حدث، بصوت مرتعش. كانت تتوق لأن تبكي، لكنها أرادت إخباره أولاً. بعدها ستبكي لساعات على كتفيه، وسوف يعزيها ويريحها ويطمئنها.

سمعها وقد ارتسم الجمود على وجهه.

ثم قال لها بأنه مفلس. لم يأتِ على ذكر الإجهاض. قال لها بلسان أثقله الخمر إنهما سيكونان في الشارع عمًا قريب. ظلّ يكرر كلامه لأكثر من خمس دقائق، حتى استوعبت "كاملا" أخيرًا ما يقول. فهمت أنه فقد وظيفته. لم يعد المصنع الذي يعمل به يحقق إلا الخسائر، وعليه، فقد تقرر إغلاقه. لم يكن قد تلقى راتبه منذ ثلاثة أشهر. والحقيقة أنه كان مديئًا للناس بأموال.

ثم قال لها بصوت واضح، معتدل، وقد فقد لسانه كل الثقل الذي كان به:

- لقد كنتِ شوّماً عليّ يا "كاملا". منذ أن تزوجتك، والنحس يلاحقني.

صمت لبرهة. حدّقت زوجته في وجهه الخالي من التعابير، برعب وعدم تصديق. أضاف:

- لقد جلبتِ النحس حتى لأهلك! قلبك أسود. قلبك أسود. قلبك أسود.

كزّرها وهو يوشك على الانهيار، وقد تجمّع الدمع في عينيه الحمرأوين:

- أنتِ من تسبب في موت أمك، ثم قضيتِ على أبيك. وشقيقك أصبح عاطلاً عن العمل.

والآن، ها أنت قد أكلتِ ابني! وقريبًا، ستأكليني أنا أيضًا!!

انهمرت دموعها في صمت.

أردف قائلاً:

- كان عليّ أن أعرف ذلك منذ اللحظة التي دخلتِ فيها البيت. جلبتِ النحس معك. حين

قمتُ بإزاحة صورة أمي من على الرف، لنضع حاجياتك عليه، وقع البرواز من يدي وتكسّر.

تهشم الزجاج، ألا تتذكرين يا "كاملا"؟

هزّت رأسها، نافيةً، في صمت. صاح باستنكار:

- أنتِ لا تتذكرين!! لقد تحطم الزجاج وجرح إصبعي.

أضاف باشمئزاز:

- كان عليّ أن أفهم في تلك اللحظة أنكِ شوّم. كان ذلك فألاً سيئاً.

ثم انخرط في بكاء مرير. ألقى على الأرض، وضمّ كفيه إلى بعضهما، وأخذ ينوح ويهتف

بأسماء الآلهة. وهو يسألهم لماذا دمّروا حياته بتزويجه من هذه الساحرة؟

سال اللعاب من فمه، وبلل يديه المضمومتين. كان في أقصى حالات السُكر.

واصلت "كاملا" تحديقها به، دون أن تنطق بكلمة. جفّت دموعها. ودون تفكير، أحضرت

له كوبًا من الماء. راقبته وهو يشربه دفعة واحدة. تابعت بلعومه وهو يضيق ويتسع لإدخال

الماء. انتظرت حتى انتهى من الشرب، ثم أخذت الكوب الفارغ من يده. وضعتة جانبًا دون

أن تغسله، ثم استلقت على سريرها المصنوع من الحبال. نامت خلال لحظة، من فرط

الإرهاق.

صباح اليوم التالي، كان "تشاندر" باردًا وصامتًا. لم تقم "كاملا" لإعداد الشاي أو الإفطار.

جلست على سريرها وقد التزمت الصمت. لم يطلب "تشاندر"، من ناحيته، أن تحضر له أي

طعام.

قبيل خروجه من باب المنزل، التفت نحوها وقال بوحشية:

- ولدك مات. وزوجك كان موشكًا على الموت. وأنتِ؟! أنتِ نائمة كما الملكة، طوال الليل.

لم تنطق "كاملا" بأيّ كلمة.



اعتاد "تشاندر" أن يحتفظ بزجاجة "روم" في البيت، رغم حرصه على تناول الخمر مع أصدقائه، خارج دكان صغير للمشروبات الكحولية؛ إلا أنه لم يجد سبباً يمنعه من الاحتفاظ بزجاجة في متناول اليد، يخبئها تحت السرير حيناً، وخلف المكينة حين آخر.

في بعض الأحيان، كان يستيقظ ليلاً، ليأخذ منها بضع رشقات.

بدأت "كاملا" في ارتشاف القليل من هذه الزجاجات التي يحضرها زوجها بانتظام. وحتى لا يلاحظ ذلك، كانت تضيف بعض الماء عقب انتهائها، ثم تمسح سطح القنينة وغطاءها الفليني، بطرف ثوبها، في حرص شديد.

ثم صارت تأخذ القليل من النقود المعدنية من جيب قميصه، وهي تعلقه ليلاً. تنتظر إلى أن يستغرق في النوم، ثم تتسلل بهدوء إلى حيث علقت ثيابه. تمدّ أصابعها، وتنتقي أصغر العملات الموجودة، حتى لا يلاحظ اختفاءها.

إذا تحرك، أو تقلّب على فراشه، تقف ثابتة كالصنم، إلى أن يتعالى صوت شخيره ثانيةً. حين يتجمّع لديها مبلغ معقول، تذهب إلى سوق الخمر المحلية، وتشتري زجاجة من النوع الرخيص.

كان "تشاندر" يقضي أغلب ساعات يومه خارج المنزل، باحثاً عن وظيفة جديدة؛ لكن "كاملا" - من جانبها - لم تفكر أبداً في العثور على أي عمل، ولو كخادمة في البيوت، مثلما كانت قبل الزواج. أصبحت تصرف كل طاقتها في التفكير والتدبير لشراء زجاجة الخمر التالية. واكتشفت أن بداخلها قدرة هائلة على المكر والاحتتيال، هي نفسها لم تكن تعلم أنها تمتلكها؛ وبفضلها، تمكنت من

ألا تحرم نفسها من المشروبات الرديئة، حتى في أسوأ وأحلك الظروف المادّية. حتى حين لم يعد بإمكانهما تناول أكثر من وجبة هزيلة واحدة في اليوم.

كان "تشاندر" يعود إلى البيت كل ليلة وقد تملكه اليأس والإحباط. وكنيّراً ما عاد ثملاً، فيتشاجر معها ويصفعها على وجهها، ويدفعها تجاه الحائط، قبل أن يرمي على السرير. لم يلحظ أبداً أنها هي نفسها في حالة سُكر بين. لم يلحظ ابتسامتها حين كان يضرب رأسها في الجدار بقوة. ابتسامة مخيفة. كفيلة ببث الرعب في أي رجل عادي، عاقل. كان هذا يحدث يومياً، حتى أصبحت جبهتها صلبة وقاسية وملئية بالتواءات.

لم يستوعب عقلها الثمل خبر حصول زوجها على وظيفة جديدة في دكان لبيع "السواري". بالتمها بأنها لم تسعد لأجله. حدّقت فيه طويلاً. لم يعرف "تشاندر" أين ذهبت الفتاة الجميلة التي تزوجها.. لم يدر من يكون هذا الوحش، ذو العينين المتحجرتين، الجالس أمامه. في أحد الأيام، عاد من عمله في الدكان في ساعة مبكرة. كانت الأشهر التي أمضاها في توتر، وشرب الكثير من الكحوليات، وندرة الطعام، قد أثرت كثيراً على صحته. أحس بدوار أوشك بسببه على السقوط من على السُّلم. حين نظر "مهاجان" إلى وجهه بالغ الشحوب، أمره بالعودة إلى المنزل.

حين بلغ البيت، رأى الباب مشرعاً. دلف مسرعاً، فوجد "كاملا" تجلس على الأرض، ممسكةً بالزجاجة.

لم ينطق من هول المفاجأة.

ألقت عليه نظرة عابرة، ثم واصلت ارتشاف الخمر.

أصيب "تشاندر" بصدمة عظيمة من هذا المشهد. ضربها بقسوة بالغة، أكثر من المعتاد. ثم ذهب ليجلس في معبد "هانومان"، محاولاً إخفاء دموعه. منذ ذلك النهار، أصبحت "كاملا" تشرب علانية. صارت عيناها زائغتين، واستحال لسانها بذيئاً. امتنعت عن تنظيف البيت، وتوقفت عن الصلاة للإله "شيفا" الذي كانت قد وضعت له تمثالاً من الصلصال في ركن من الحجرة؛ والذي اعتادت أن تقدم له أكاليل الزهور، بمنتهى الحب، صباح كل يوم.

لم تعد تستحم، أو تغير ثيابها المتسخة. صارت رائحة المنزل كريهة. عينا "تشاندر" حملتا نظرة واحدة لا تتغير، نظرة مهمومة. أما عيناها هي، فقد أحاطت بهما الهالات السوداء؛ وأصبح وجهها شديد الشحوب، وصار شعرها يتساقط بغزارة.

كانت تنتحب وتشرب. وكان "تشاندر" يضربها يومياً، إلى أن يشعر بالإرهاك. كلما ارتفع صياحه، اتسعت ابتسامتها اللامبالية. وكلما اشتد في ضربها، شربت أكثر، وثلت أكثر.

استسلمت لصمت تام، ولم يعد يسمع صوتها إلا فيما ندر. تشابهت ظروف حياتها مع الآلاف من النسوة في المجتمع. لكنها، ولسبب غير معروف (إذ لم تكن حتى متعلمة) كان لديها صعوبة في تقبل هذه الظروف، وهذا القدر. بدأت تدرك أن هناك أشياء أخرى، بالإضافة إلى بقع "الكركم"، لا تزول أبداً. كانت روحها ممتلئة بسم شديد المرارة، وحين يختلط هذا السم بالكحول، تتحول إلى كائن يفيض بالغضب العارم والطيش والتهور.

حين يؤجج الخمر إحساس الغضب في دمها، تقتحم الحياة بعينين حمراوين ناقمتين، وهي توزع شتاؤها وسبابها على كل من تراه أمامها. الضرب الذي تتلقاه ليلاً من "تشاندر"، لم يكن يخفف من حدة هذا السم، بل كان يزيدا توحشاً كحيوان مفترس. كانت تكشف عن أنيابها للسيارات في الشوارع، إذا لم تهدئ من سرعتها، انتظاراً لمرورها. وتصيح في وجوه الرجال الذين يحاولون استغلال سُكرها، ويمدّون أيديهم إلى أجزاء من جسدها.

في إحدى المرّات، صاحت في وجه كاهن المعبد القريب، الذي اعتاد إظهار تأففه من منظرها كلما رآها في الطريق. أعلنت رأيها فيه، بكل صراحة، بصوت مرتفع جداً. قالت صارخة إنه ما صار سميئاً هكذا إلا بسبب التهامه للأرز وجوز الهند الذي يقّمه زوار المعبد كقرايين للآلهة.

كان يخشاها، ويخاف لسانها الذي ينطق بكل ما هو محرّج أمام الحارة كلها. تتسلّى بالسخرية منه، بأن تضمّ أصابعها كأنها تقبض على حجر، وتمثل بأنها ستقذفه به. ترعبه هذه الحركة تحديداً، وتثير صخب الصغار المتواجدين في الشارع الذين تتعالى قهقهاتهم مدوية. صارت "كاملا" عاراً على كل فرد في الحارة.

أحسّ "تشاندر" بالارتياح حين حصل على وظيفة في دكان "السواري". لكنه رفض أن يخبر "كاملا" باسم وعنوان الدكان، حتى لا تقتحم المكان وتتشاجر مع "مهاجان". لم يعد يشرب بإفراط، كما كان يفعل، وإن لم يتوقف نهائياً. سعادته بالوظيفة الجديدة جعلته يقرر المحافظة عليه قدر المستطاع.

سرعان ما بدأ "تشاندر" في تجاهل زوجته تجاهلاً تاماً. أهملها بشكل كامل، واندمج في حياته الجديدة بعيداً عنها، واعتمد على المطاعم الصغيرة والأكشاك في تناول طعامه. صار من النادر أن يتبادل مع "كاملا" أي حديث.



اليوم.. شربت "كاملا" أكثر من المعتاد. جلست على الأرض في بيتها القذر. كانت في حالة ثمالة بالغة، تبكي وتغص بالبكاء والنحيب. الثياب القذرة ملقاة بإهمال على الأرض. الروائح العطنة تنبعث من الأواني غير المغسولة. لم تستحم "كاملا" منذ ثلاثة أيام، وانبعثت منها - هي أيضاً - رائحة كريهة جداً. كان جلدها ملتهداً في بعض الأماكن، لشدة الحرارة؛ وشعرها مهوشاً وعيناها وحشيتين.

تلاحقت الأفكار العشوائية في رأسها، إلا أن فكرة واحدة ظلت هي المسيطرة عليها. نعم! لقد توصلت أخيراً إلى الأشخاص المتسببين في كل هذه المشكلات.

لن تدعهم يعيشون في سلام بعد اليوم.
اندلع الغضب المعتاد داخل جسدها.
حاولت أن تقف على قدميها.





في منزل مسز "جوبتا"، اكتشفت "شيلبا" المتزوجة منذ خمسة أشهر أنها حامل. حين دخلت "شيلبا" على أهل زوجها، عقب زفافها، كانت قلقة ومتخوفة، كأبي عروس. أدركت أنها لن تواجه أي متاعب مع زوجها "تارون". رجلٌ طويل ووسيم، ولديه مصنع كبير يقضي فيه معظم ساعات اليوم، بصحبة والده. لا خوف منه أو من أبيه. لكن أمه مسز "جوبتا" هي مصدر القلق. هل ستواجه معها المشكلات التقليدية؛ الاضطهاد ومحاولات السيطرة وفرض الرأي، ونظام تسيير المطبخ؟

لكن، حتى لو لم تتسبب المرأة الكبيرة في إثارة المشكلات، كيف لها أن تصل لمستواها في الذكاء والحكمة والفتنة وسعة الاطلاع؟ كل من في المدينة يعرف عنها تلك الصفات. أما "شيلبا" فتعرف قدراتها المحدودة جيداً. كانت تنجح في المدرسة بصعوبة، دون اهتمام حقيقي بالتعلّم أو استذكار الدروس. والعام الوحيد الذي أمضته في الجامعة، مرّ بالطريقة نفسها. طوال عمرها، كانت في انتظار الزيجة الرائعة التي سيدبرها لها أبواها.

لم يكن للدراسة والشهادات أهمية تذكر، لها أو لغيرها من بنات رجال الأعمال الكبار. لكنهن - على كل حال - يملكن صفات ومهارات أخرى، تعوّض عدم تميزهن الأكاديمي. أما هي، فتفتقر لخفة ظل بنات عمها وقربياتها، ومرحهن التلقائي، ومواهبن المتعددة. كما أنها ليست باهرة الجمال، وشعرها خفيف بعض الشيء؛ والأسوأ من كل ذلك هو لغتها الإنجليزية الضعيفة.

ميزتها الكبيرة، والوحيدة ربما، هي أن والدها رجل أعمال معروف وواسع الثراء. كانت متيقنة تمامًا من أن أسرتها ستنجح في أن تعثر لها على عريس ممتاز. ولقد نجحوا في ذلك فعلاً.

اختار والدها "تارون جوبتا"، الابن الأكبر للعائلة الشهيرة. ليس في الإمكان الحصول على زوج أفضل منه. كما أن بنات عمها صرّحن بأنه يشبه على نحوٍ ما النجم السينمائي "سلمان خان". لم تره سوى مرة واحدة، حين ذهب لزيارتهم مع والدته. تبادلًا حديثًا مقتضبًا لخمس دقائق، ثم أعلن كل منهما موافقته على الآخر.

تميز حفل العرس بتكاليفه الباهظة. دُعي إليه كبار رجال الأعمال والصناعة في "أمريتسار"، بمن في ذلك "رافيندر كابور"، الذي أعلن لأهل العروس بأن ابنته "رينا" ستتزوج بعد ثلاثة أسابيع. أسرّ لهم بأنه غير مرحّب بتلك الزيجة، لأنها ستتزوج عن حبّ، وليس بالطريقة التقليدية المعتادة. أضاف بعدم رضاه أن العريس ضابط في الجيش.

كان "رافيندر كابور" لا يزال مصدومًا من اختيار ابنته، إلا أنه حاول جاهدًا إخفاء خيبة أمله. قال للضيوف الآخرين إن لديه من المال ما يكفي

للإنفاق على أسرتين، بل على ستّ أسر! وأضاف أن كل ما يهمه هو أن تدوم سعادة ابنته، فقط. أردف بفخر أنها فتاة ذكية، ولذلك فإنه من غير المعقول فعلاً أن يزوجها برجل أعمال، لتبقى حبيسة المنزل.

انزعج والدا "شيلبا" لهذا التعليق، لكن أحدًا لم يجرؤ على إعلان رأي مناقض. اختتم حديثه بالقول إنه سيعمل على أن تظل "رينا" في المستوى المعيشي نفسه الذي اعتادت عليه، حتى بعد زواجها.

في حفل زفاف "شيلبا" تمّ عقد مجموعة من الصفقات التجارية المهمة، وتوثقت صلات عمل بين المجموعات التجارية المختلفة. وبشكلٍ عامّ. يمكن القول إن الحفل كان ناجحًا جدًّا. أهدى والدا العروس سيارة "أوبل آسترا" لعريس ابنتهما، كما قاما بإحضار مهندس ديكور ليصمّم حجرتهما في بيت عائلة "جوبتا" على نفقتهما الخاصّة. قام الأخير باختيار اللونين الـ"بيج" والأخضر الفاتح جدًّا، للتصميم الذي نقله عن مجلة أجنبية. اختار الستائر وغطاء الفراش من هذين اللونين. وضع بالغرفة أريكة وثيرة، زينها بوسائد مختلفة، وطاولة حديدية ذات سطح زجاجي، وسجادة ضخمة تغطي الأرضية بأكملها. حرص الوالدان أيضًا على تركيب مكيف هواء جديد في الحجرة.

وبالإضافة إلى تصميم الديكور، وقطع الأثاث الفاخرة، وجهاز التكييف، والسيارة الجديدة، قاما أيضًا بإعطاء ابنتهما مبلغًا ماليًا ضخمًا، والكثير من المجوهرات والملابس الجديدة؛ وحرصا على إهداء العريس وأسرته ثيابًا غالية، وقطع مجوهرات ثمينة.

دخلت "شيلبا" حياتها الجديدة برأسٍ مرفوع.

ومع ذلك، هناك حسابات أخرى على الدوام، حين يتعلّق الأمر بالحموات.

لكن مخاوف العروس الشابّة لم يكن لها أيّ أساس، إذ إن مسز "جوبتا" أكثر دهاءً من أن تبدأ بعداء لا مبرر له مع زوجة ابنها. كانت تعرف الكثير من العائلات التي يريزح أفرادها تحت وطأة خلافات وانقسامات لا سبب حقيقيّاً وراءها. حرصت على أن تعامل "شيلبا"، كما كانت تردد لصديقاتها في الحفلات، كأنها ابنتها.

حرصت على توجيه الفتاة في جميع الأمور؛ الثياب، المكياج، السلوك والتصرفات، ووصفات الطعام أيضاً. فرغم المعاملة الودودة، وضعتها دومًا تحت المراقبة، بنظراتها الحادة؛ كما أحكمت حولها قبضتها الحديدية، في كل ما يتعلق بمظهرها وملابسها وتعاملها مع الآخرين.

لاحظت "شيلبا" ذلك، لكنها تقبّلت الوضع برضاء تام، لأنه أفضل بكثير من تلك المشكلات التي تسمع عنها دومًا، بين الحموات وزوجات أولادهن. وبالإضافة لذلك، أدركت العروس أن مسز "جوبتا" - إن عاجلاً أو آجلاً - سيتقدم بها العمر، وسيكون المصنع والبيت وجميع الممتلكات من نصيبها هي.

وهكذا، امتدت علاقة حسّاسة بين الاثنتين، وتوجب عليهما أن تبقيا طرفي المعادلة متساويين على الدوام، بلمسة هنا وأخرى هناك، وعدم اتفاق على أمرٍ ما.. وموافقة تامّة على غيره؛ وابتسامات متبادلة في كل الأحوال.

بدأت كل منهما في فهم شخصية الأخرى، ورغم أن شيئاً قليلاً من التوتر شابَ علاقتهما، ورغم أن ذلك التوتر سيظلّ مستمرّاً بينهما إلى الأبد، فإنهما

كانتا تمضيان أوقاتهما معًا بلطافة ومودّة. فبعد أن يذهب الرجلان إلى المصنع، وتأتي الخادمتان ويغادرن بعد أداء مهامهن اليومية، وعقب الانتهاء من طهي وجبات اليوم، تجلسان معًا لمتابعة المسلسلات المعادة على قناة "ستار بلس". وخلال الفواصل الإعلانية الكثيرة، تقومان بإعداد الشاي وتبادل النميمة.

شخصية مسز "جوبتا"، بطبيعتها، توافقة إلى المنافسة والكمال، عليها أن تكون الأفضل في كل شيء؛ فضمن دائرة صديقاتها وقربياتها، تحب أن تكون صاحبة أبهى ملامح وتقاطيع، وأنظف منزل، وأجمل ملابس. ونجحت في أن تنقل هذه الصفة إلى كتنها ذات الشخصية الجامدة. استطاعت أن تصقل طباعها، وتدفعها للتحسين من نفسها ومن كل ما تقوم به. وهكذا وجد هذا الثنائي متعته في التفوق على أي امرأة تعرفانها. كانتا تجرّبان الوصفات الجديدة، ثم تعبئان الطعام في علب صغيرة، ترسلنها إلى المنازل المجاورة كـ"بادرة طيبة" - كما ترددان - وتتقبلان بعدها ثناء الجارات بمنتهى اللطف. كما تتشاركان في إعداد أقنعة من مكوّنات طبيعية، للحفاظ على نضارة بشرتهما، وتضعانها على وجهيهما وهما تتابعان مسلسل "كايونكي ساس بي كاي باهو تي"؛ وفي كل مرة تتساءلان عن طريقة اعتناء مسز "ساندو" ببشرتها لتصبح بهذا الصفاء الأخاذ، واللمعان غير المألوف. ومعًا، تمارسان بانتظام رياضة المشي للحفاظ على قواميهما من الترهل. وبين الحين والآخر، تترددان معًا على متجر بيع المنتجات الصينية التقليدية، لشراء قطع ديكور مزينة بنمنمات دقيقة، لإضفاء مظهر جَدَاب وغير تقليدي على غرفة الجلوس.



هذا الصباح، أعدت "شيلبا" طبقًا من المخبوزات للإفطار. كانت قد أخذت دروس طهي لأربعة أشهر قبل زواجها. "مسز سينج كونتيننتال كوكينج كلاس". كانت متلهفة لأن يثير الطبق إعجاب زوجها ووالديه. وهو ما حدث بالفعل.

قامت برفع الصحون عن مائدة الإفطار، فيما كانت حماتها تشرف على قيام الخادمة - التي تأتي يوميًا - بالتنظيف.

قبيل مغادرته للمصنع، أعلن "مستر جوبتا" أنه يشعر ببعض التوعك:

- لستُ على ما يرام. ربما أنا مصاب بشيء ما. نزلة البرد المنتشرة هذه الأيام، على الأرجح. أعتقد أنه من الأفضل ألا أذهب للعمل اليوم.

ظهر الإنزعاج على وجه زوجته، رغم محاولتها إخفاء شعورها هذا. تنهدت بضيق بالغ. وجوده سيعطلّ الروتين اليومي المعتاد، ولكن عليها تقبّل الأمر.

وصلت الخادمة الثانية، التي تتولى إعداد وجبتي الغداء والعشاء، وغسل الأواني والصحون. رافقتها مسز "جوبتا" إلى المطبخ، لتباشر مهامها.

رتّبت "شيلبا" الأسرة، ثم قامت بمسح الغبار عن التحف المصنوعة من الكريستال، والتماثيل الصينية، وهي الأشياء التي يمنع على الخادما لمسها. حين انتهت، حملت كوبًا من الشاي لوالد زوجها في غرفته. ثم توجهت إلى حجرتها وجلست على السرير وأمامها كومة من ثياب زوجها. بدأت في طيها بتمهل، قطعة.. قطعة.

تحب أن تمضي في هذه الغرفة أطول وقت ممكن، فقد صممت بشكل يبعث الراحة في النفس. لم يبخل والداها في إعدادها وتجهيزها.



كانت لا تزال تطوي قمصان زوجها الفاخرة، حين اتصل الطبيب همسز "جوبتا" ليخبرها
بنتيجة التحاليل التي أجرتها زوجة ابنها مؤخرًا.

أسرعت حماتها لتبشّرها، وقد أشرق وجهها بالسعادة.

تفاجأت "شيلبا" بعض الشيء، رغم أن جانبًا بداخلها كان يتوقع الأمر. ابتسمت لحماتها

التي احتضنتها وقالت:

- سأذهب الآن لأخبر عمك.

أضافت وهي تربّت على كتفها:

- سنتناقش في كافة التفاصيل لاحقًا يا "شيلبا".

قالت "شيلبا" وقد احمرّ وجهها خجلًا:

- حاضر.

أحست بالسعادة لنجاحها في تنفيذ الخطوة المنتظرة، وتمنت بشدة أن يكون المولود ذكرًا،

فذلك - وحده - كفيل بتعزيز مكانتها في العائلة.

حين هبطت مسز "جوبتا" إلى الطابق السفلي لإخبار زوجها، وجدته يغالب النعاس أمام

شاشة التلفزيون، التي كانت تعرض برنامجًا على قناة "زي تي في".

استغرقت "شيلبا" في التفكير بموضوعات مختلفة تتعلق بحملها؛ كيف ينبغي

على الزوجة أن تتصرف حين تكتشف أنها بصدد إنجاب طفل؟ ما الذي يتوقعه

الآخرون منها؟ عليها أن تتبع نظامًا غذائيًا معيّنًا بالطبع. وسوف يتم الاتفاق مع

امرأة معينة لتمسّد لها ساقها كل يوم. كانت تعرف كل هذه الأمور من ملاحظتها لبنات عمها وقريباتها. لكن هناك أشياء أخرى ولا شك. ما هي يا ترى؟

في عائلتها، يقيمون احتفالات خاصة عند إعلان الحمل وعقب الولادة. تساءلت إن كانوا يهتمون بإقامة مثيلاتها في هذه الأسرة؟ لو كانوا يفعلون، فإن عليها الاستعداد بملابس جديدة، وطقمين من المجوهرات. فكرت ثانيةً بأن المولود يجب أن يكون ذكراً، فذلك سيجعل حياتها أكثر سهولة. لم تكن تريد بنتاً.

تواصلت الأفكار في رأسها، الواحدة تلو الأخرى، بينما انهمكت يداها في ترتيب القمصان بعناية. إلى أن سمعت صرخة قوية، بدا أنها آتية من مكانٍ ما. لا يبعد عن البوابة الخارجية للمنزل.

قامت "شيلبا" من مكانها، واتجهت نحو النافذة. أزاحت جانباً من الستائر الخضراء، ونظرت للأسفل.

بجوار البوابة، وقفت امرأة غريبة الشكل، بشعر أشعث. بدا جلياً أنها تنتمي للطبقات الدنيا، بثيابها الرخيصة المصنوعة من قماش نيلون رديء.. "ساري" بنفسجي بورود ضخمة بيضاء اللون. ظلت ترسل نظرات غاضبة من عينيها الحمراءين تجاه جميع النوافذ. كان لها منظر كلب ضالّ.

صاحت بصوت مرتفع جداً، وقد غطى الغضب وجهها القبيح:

- أنتم السبب في كل هذا.. أنتم السبب في الشقاء الذي نعانيه. هل تظنون أن بإمكانكم

أن تعيشوا في سلام بعد أفعالكم تلك؟

أحست "شيلبا" بدهشة بالغة.. من هذه المرأة؟

حرصت على أن تتابع الموقف وهي متوارية خلف الستارة، حتى لا يلمحها أحد.
فجأة.. بدأت المرأة الواقفة خارج البوابة بإطلاق سيل من السباب البذيء والشتائم،
بصوت مرتفع. كلمات مخجلة، لم تسمع "شيلبا" بعضها طوال سنوات عمرها أبداً، وسمعت
البعض الآخر بأصوات هامسة من سيدات العائلة المتقدّمات في العمر، كنموذج للكلام الذي
ينبغي عدم ترديده أبداً. لأن البنات الطيبات.. المهذبات.. لا يقلّنه تحت أي ظرف.
والآن، ها هي تلك المرأة تنطقها وتصيح بها بأعلى صوت، ليسمعها كل الجيران.
أسرعت "شيلبا" بالنزول إلى حيث وقف مستر ومسز "جوبتا"، وهما في حالة من التوتر
البالغ والانزعاج.

لم يكن السائق موجوداً بالمنزل، كما خرج الخادم لشراء الخضراوات من السوق.
ازداد صياح المرأة بشكل غير معقول، وبدأت ترجّ البوابة بيديها.
صمتت قليلاً. ثم عاودت توجيه الإهانات لهم:
- آل "جوبتا"!! هه! تظنون أنه اسم عظيم؟ لستم إلا مجموعة من الشحاّذين. حيوانات
حقيرة تعيش على الجيّف. أنتم أسوأ منا بكثير.

نظرت مسز "جوبتا" لزوجها وقالت بضيق بالغ:
- افعل شيئاً! أرجوك.. أي شيء! لقد سمع الحي بأكمله كل كلمة تفوهت بها هذه
المخلوقة! من تكون؟ ماذا تريد؟
كررت رجاءها:

- افعل شيئاً.

خرج زوجها. وقف على مسافة بعيدة من البوابة، وصاح:

- هيه! من أنت؟ اذهبي من هنا.. هيا.. ابتعدي.

ثم لاحظ أن العديد من سكان البيوت المجاورة كانوا يراقبون الموقف من شرفاتهم

وحداتهم، باهتمام بالغ؛ فانسحب على الفور وعاد إلى الداخل.

واصلت "كاملا" صياحها:

- عسى أن يحرقكم الرب داخل بيتكم الكبير هذا. أو داخل تلك السيارة الكبيرة. عسى أن

تموتوا وأنتم عطاشى. تتوسلون شربة ماء.

حين دخل إلى المنزل، وجد زوجته تحاول الاتصال بابنها في المصنع، وقد تملكته العصبية،

وشحب وجهها بشكل مخيف. كان الرقم مشغولاً.

واصلت المرأة صراخها:

- ابنكم نذلٌ وشريرٌ مثلكم تمامًا. ترى كيف سيكون الحفيد؟ شيطان؟ هل في أي منكم

نقطة دم آدمية؟

واصلت المرأة صراخها الهستيري، بصوت مرتعش.

استحال ذهول "شيلبا" إلى إحساس بالخوف. نظرت بخوف إلى والدي زوجها.

حاولت مسز "جوبتا" الاتصال بابنها مرة أخرى، وهي توشك على البكاء. سألت

زوجها:

- من تكون هذه المرأة؟ لماذا تتلفظ بهذه الكلمات الجالبة للنحس في هذا اليوم تحديداً، بعد بشرى الحمل؟ علينا أن نقدم القرابين للنار المقدسة لتتخلص من حسدها وشؤمها. وأنتِ يا "شيلبا". ابتعدي عن الباب والنوافذ.

وأومات "شيلبا" في طاعة، وقد اصفرّ وجهها من فرط القلق. قالت لحمايتها:

- إذا كان رقم المصنع مشغولاً، اتصلي بـ"تارون" على الموبايل.

أجابت:

- آه.. نعم.. صحيح.. كيف لم أفكر بذلك؟

راقب مستر "جوبتا" زوجته وهي تبلغ ابنهما بكل ما يحدث، وقد انسابت دموعها. صمتت قليلاً، وأومات برأسها عدّة مرّات، وهي تصغي لما يقوله على الطرف الآخر. لاح شيء قليل من الطمأنينة على وجهها. وضعت السماعة وقالت لزوجها بصوت متهدج:

- "تارون" يقول إن علينا جميعاً أن نظل بالداخل. يقول إن المرأة قد تؤذينا جسدياً، إذ ربما كانت مختلة عقلياً. سوف يتصل بالشرطة، أكد أنه يعرف شخصاً ما هناك، في القسم. وقال إنه سيعود إلى المنزل الآن.

قاما بتنفيذ تعليمات ابنهما، الذي اتصل بالشرطة. انتظروا داخل البيت، كفئران مذعورة؛ فيما استمرت المرأة في الصياح وتوجيه الإهانات والسباب لهم.

بعد عشر دقائق تقريباً، وصلت سيارة "جيب" تحمل شرطيّين. أسرعاً بإلقاء القبض على "كاملا"، وتقييد يديها بالأصفاد، ثم دفعاها داخل السيارة. قبل أن ينطلقا بلحظة، اقتربت سيارة "تارون" الذي غادر المصنع على عجلة.

بدا قلقًا، لكنه كان يتصرف بثبات وروية. صافح الشرطين، وشكرهما، ومنح كل واحد منهما خمسمائة روبية، تعبيرًا عن امتنانه لإسراعهما بالحضور.

أخيرًا، ابتعدت سيارة الشرطة، وأحس الجميع بارتياح عظيم.

حين عاد الخادم وهو يحمل كيسًا يمتلئ بالخضراوات، قابله الجميع بنظرات غاضبة، كأنها ارتكبت خطأً جسيمًا بذهابه للسوق. لكنهم لم يقولوا له شيئًا، واكتفوا بإعطائه أمرًا بإعداد فناجين شاي لهم جميعًا.

قالت "شيلبا" التي لا تزال قسماتها تحمل قدرًا غير يسير من التوتر، وهي تضع يدها على بطنها، كأنها تحتضن طفلها القادم:

- لا أدري كيف قالت عنك تلك المرأة كل ذلك الكلام الفظيع؟! أنت أطيّب وألطف رجل

في هذا العالم!

ابتسم لها زوجها بمحبة. لم يشعروا بالهدوء، إلا حين حمل لهم الخادم الشاي المعطر في فناجين خزفية بديعة، وبدأوا في ارتشافها.

ثم قاموا بزقّ البشرى إليه، وأخبروه بأنه سيصبح أبًا بعد بضعة أشهر. ابتسم ناظرًا إلى زوجته، التي تورد وجهها حياءً.

قرر "تارون" أن يعتبر بقية اليوم إجازة. حين اختلى بزوجه، قال لها:

- لا تقلقي من شيء.

ارتاع من آثار الصدمة التي لا تزال ظاهرة على ملامحها المرتبكة. شعر نحوها بالكثير من الحنان، وقال لنفسه بأنها بالغة الرقة. لماذا كان على تلك المرأة الرهيبة، أيًا من كانت، أن تأتي

اليوم تحديديًا، دون بقية الأيام؟

لمس "تارون" وجه زوجته بإحدي يديه، ورفع ذقنها نحوه باليد الأخرى:
- لن أسمح لأحد بأن يجرحك أو يضايقك أبدًا. أنتِ معي في أمان، على الدوام. وتذكري
بأن القلق والتوتر سيؤثران سلبياً عليكِ وعلى الجنين.
أضاف مبتسماً:

- انسِ تمامًا ما حدث اليوم.
أومأت "شيلبا" بابتسامة عريضة وعينين دامعتين، وقالت:
- ما كان يمكنني أبدًا أن أتمنى زوجًا أفضل منك.
تلك الليلة، اصطحبها للعشاء في المطعم الصيني الجديد، الذي كان رئيس الطهاة فيه من
قرية لا تبعد كثيرًا عن "أمريتسار". ارتدت "الساري" الأزرق ذا التطريز المعقد، الذي أهدهته
إياها حماتها. خلال العشاء، أكد "تارون" لنفسه أن زوجته تتمتع في بيت عائلته بالحياة
المرفهة التي تستحقها. كانا قد نسيا الموقف المزعج الذي تعرضوا له جميعًا ظهيرة ذلك اليوم.
وبينما كانا يتناولان عشاءهما، كانت "كاملا" تتعرّض للاغتصاب. من الشرطين اللذين
أحضراهما.

بعدها غادر أحدهما (المتزوج) ليعود إلى بيته وزوجته، بينما بقي الآخر في القسم، يشرب
خمراً رخيصةً، ويستمتع إلى أغاني الأفلام على الراديو، وهو يمني نفسه بالمزيد من الجنس مع
"كاملا" قبل إخلاء سبيلها صباحًا.

صباح اليوم التالي، عادت "كاملا" بخطوات ثقيلة، مترنحة، إلى بيتها.

كان "تشاندر" في انتظارها. قال بغضب: "هل وصلتِ لهذا المستوى المنحط الآن؟" صفعها بقوة، وانسابت الدموع الغزيرة من عينيه الحمراوين.

- تقضين الليل بطوله خارج البيت، وتشرين وتسكرين في مكان لا يعلمه أحد. إن كان لا يزال لديك بقية من الحياء يا "كاملا".. اقتلي نفسك.

غادر البيت، وقد أحاطت الهالات السوداء بعينه الغاضبتين.. الشاردتين.. المهزومتين.

أحاطت الهالات السوداء بعيني "كاملا" أيضاً، إلا أنهما كانتا خاويتين.. فارغتين.





ذلك الصباح، كان شديد الحرارة في "أمريتسار". أكثر حرارة من جميع الأيام التي انقضت من شهر مايو. توجه "رامتشاندر" للدكان وهو يشعر بانعدام طاقته بسبب الجو. كان قد ربى شاربته ثانية، لأنه أحس أن شكله يبدو هزليًا دونه. حين أعاده، أحس أن وجهه قد استعاد تواضعه القديم. أفقدته حرارة الجو شهيته، فصار أكثر نحولًا عما كان عليه في الشتاء.

بدأ عمله ذلك الصباح وهو يشعر بكمول شديد. عند الظهيرة، صعد "مهاجان" وهو يتميز غيظًا. لم يأت "تشاندر" للعمل، ثانية!! ما الذي يحدث بالضبط في هذا المكان؟ هل هذه طريقة للعمل؟ أي شخص آخر، غيره، كان سيترد "تشاندر" منذ زمن. على "رامتشاندر" أن يذهب إلى بيت "تشاندر"، ويجره جبرًا إلى الدكان، أيًا كانت حالته.

وقف "رامتشاندر" مصغيًا لخطبة "مهاجان" الطويلة، الغاضبة، باحترام بالغ. لكنه شعر بغيظ شديد لاضطراره لأن يسير كل هذه المسافة إلى بيت "تشاندر". فكر بأن يتذرع بأي حجة حتى لا يذهب، لكنه حين لمح الشرر

المتطير من عينيّ "مهاجان"، عدل عن الفكرة فورًا. هبط السُّلم وهو يشعر بانزعاج بالغ. حين خطا خارج الدكان، لفتحته الشمس بكل قوتها.

تذكر المرة الأخيرة التي ذهب فيها إلى بيت زميله. تمنى ألا يكون الرجل ثملًا مثل المرة الماضية. تزايد غيظه، وفكر بأن "مهاجان" أحمق كبير! كيف يتوقع منه أن يجرجر شخصًا ثملًا من منزله إلى باب الدكان؟!

لكنه، في نهاية الأمر، استسلم لما أمر به، وسار بخطوات متناقلة. سلّطت الشمس أشعتها الساخنة عليه. سال العرق على وجهه، وغطى ظهره وصدره، حتى التصق قميصه بهما. تراحمت أسراب الذباب في محل الحلواني. انبعثت السخونة من أكشاك الشاي التي مرّ بها خلال سيره، من المواقف الصغيرة بداخلها.

جرّ قدميه المتناقلتين على الدروب المتربة، وهو يشعر بجفاف بالغ في حلقه. لقد بدأ يومه بداية سيئة. فمئذ اشترى صاحب البيت غسالة ملابس جديدة، قبل بضعة أسابيع، و"سودها" تملأها بالثياب وتشغلها في أي ساعة من ساعات اليوم، غير مبالية بالضجيج الفظيع الصادر عنها، إذ كانت ذات طراز قديم. صار "رامتشان" يستيقظ بسببها نحو السادسة صباحًا في أيام كثيرة، واليوم كان أحدها.

كلما توغل في الحارات المتداخلة، مقترّبًا من بيت "تشاندر"، كلما ازدادت الأماكن قذارة وفقراء، وأصبحت الدكاكين أقل فخامة عن مثيلاتها الموجودة في السوق الرئيسي. لكنها كلها - رغم ذلك - تملؤها لافتات تحمل أسماءها. أخذ "رامتشان" يقرؤها بصوت مسموع: "بابو لصيانة السيارات". "صيدلية ديباك". "دورجا للأجهزة الكهربائية". "جيلمیل للأعراس". صار يقرأ بمنتهى السهولة الآن، دون أن يخطئ أو يتلعثم. كان قد قضى الأشهر الخمسة المنصرمة

في القراءة وتحسين قدرته على كتابة الكلمات بطريقة صحيحة، باجتهاد كبير. في غرفته، لا تزال كتبه ودفتره وقاموسه تعتلي المنضدة، وإن بدت أكثر قدمًا وتهالكًا عمًا كانت عليه في الشتاء. انكسرت زجاجة الحبر الأزرق، فاستبدل بها أخرى من اللون الأسود. صحيح أن حماسه قد فتر بعض الشيء، ولم يعد يدرس بالحماس القديم نفسه، إلا أن اجتهاده ظل قائمًا، وواصل مشروعه الدراسي. شيئًا فشيئًا، أخذ يفك طلاسم الكلمات الغريبة. لا يزال يعاني من عدم فهم الكثير من الكلمات الصعبة، لكنه ظل يتسلح بالأمل. انتهى أخيرًا من حفظ جميع الكلمات التي تبدأ بحرف الـ (A). استغرق الأمر وقتًا طويلًا. أطول بكثير مما كان يتوقع. خمسة أشهر كاملة. لكنه لم ييأس أو يستسلم. أحسَّ بارتياح هائل حين وصل للكلمة الأخيرة تحت هذا الحرف: "آزور". حفظ معناها من القاموس: "لونٌ أزرق".

منح نفسه بعدها إجازة دراسية امتدت لثلاثة أيام، ثم بدأ بحرف الـ (B).

واظب على قراءة موضوعات التعبير، ولم يعد يقرأ "فن كتابة الرسائل" إلا فيما ندر، إذ أصبحت الخطابات عديمة المعنى أكثر فأكثر. ابتاع كتابين آخرين، وكان يقرأ أجزاءً منهما بانتظام، رغم حرارة الجو الخانقة هذه الأيام، التي أوهنت عقله، فلم يعد قادرًا على التركيز أو التفكير. وبعد استماعه لتعليقات "مهاجان" المتبرمة، وتأنيبه لهم طوال اليوم، كان يجد صعوبة في قراءة كتبه عند عودته للبيت مساءً. وضايقه أنه لم يتمكن من صبح جدران حجراته حتى اليوم. لكنه أحسَّ بالسعادة حين استطاع قراءة لافتة جديدة: "ماهيش كيربانا ستور". قال لنفسه مواسيًا إنه نجح على الأقل في التمسك بشيء ما وتنفيذه للنهائية.



خلال الأشهر المنصرمة، انشغل بالكتابيين اللذين اشتراهما.

حين انتهى من قراءة "بانديت جواهر لال نهرو"، أو "قائدنا المفصل"، في "موضوعات التعبير البراقة"، أدرك أن هذا الكتاب و"فن كتابة الرسائل" قد أصبحا يثيران الضجر والسأم في نفسه؛ فقام بغزوة جديدة على سوق الكتب القديمة ليختار مؤلفات جديدة.

بدا أول كتاب لمح، مشوقاً للغاية. كاد أن يشتريه من فوره. لكنه حين قرأ الغلاف الخلفي لـ"حسن إنجليزيتك" والذي وضعه "د. آجاي راي".. وجد أن لغته الإنجليزية متكلفة بعض الشيء:

"القدرة على معرفة واستخدام الإنجليزية، هي الوسيلة الصحيحة والمناسبة لنجاحك في مهنتك، وإيجاد مكان ملائم لقدراتك في المجتمع.

النجاح في استخدام الكمبيوتر، مرهون بنجاحك في استخدام الإنجليزية، حيث إن تسعين بالمئة من المعلومات المخزنة في الأجهزة باللغة الإنجليزية".

توقف "رامتشانند" عن القراءة على الفور. فأولاً، كانت الكلمات المستخدمة باللغة التعقيد. وثانياً، أثار ذكر أجهزة الكمبيوتر فزعاً عظيماً داخل عقله الذي ما زال يناضل من أجل تعلّم أسس القراءة والكتابة على الوجه الأكمل.

تصفح الكتاب وتأكدت شكوكه، إذ كانت المحتويات أصعب من مستواه، على الأقل في هذه المرحلة؛ فكل فقرة تتبعها أسئلة وعبارات من نوعية "أجب عما يلي"، أو "صحح العبارة التالية"، أو "أضف علامات الترقيم".

أعاد "رامتشانند" الكتاب مكانه، وقد فقد بعض حماسه.

لم يكن يعرف معنى "علامات الترقيم" أصلاً!

حوّل انتباهه إلى المطبوعات الأخرى. وجد كتاباً اسمه "اقتباسات لكل المناسبات". لم يفهم معنى كلمة "اقتباسات"، لكنه كان متأكداً من أنه سيستطيع الحصول عليه بثمان رخيص. قرأ الغلاف، ففهم أن المقصود هو الطرائف والحكم والعبارات التي قالها بعض عظماء التاريخ. أعجبه أن تلك الـ"اقتباسات" تتكون من جمل قصيرة. ليس بحاجة إلى التفرغ ليوم كامل من أجل القراءة، أو إمضاء نهار الأحد بأكمله في الدراسة. سيكون بإمكانه أن يقرأ اقتباساً واحداً على الأقل، وهو ينتظر نضوج الأرز مثلاً أو خلال تدفئة ماء الاستحمام أعلى الموقد.

اشتراه "رامتشانند" بعد أن ساوم البائع طويلاً، حتى وصل بالسعر إلى عشرين روبية. كان متأكداً من أنه سيقضي وقتاً ممتعاً في قراءة هذا الكتاب، واستخلاص الحكمة منه، والاستمتاع بالطرافة التي تضمها صفحاته.

وبحسب الحروف الأبجدية، تم ترتيب الموضوعات المختلفة؛ المقدرّة، المِخَن والشدائد، التملُّق، الثقافة والآداب، اللباقة، الشباب، الحماس.

أثارت الاقتباسات مشاعر متناقضة في نفس "رامتشانند". لم يفهم بعضها، فتجاوزها لما بعدها. في بعض الأحيان، تخطى موضوعات بأكملها. إما لأنه لم يفهمها على الإطلاق، أو لأنه وجدها غير مثيرة للاهتمام.

اتفق مع بعضها تماماً، وعارض بعضها بشدّة وبشيء من الغيظ.

قرأ عبارة أعجبت به بشدة: "لا قيمة للمقدرة دون فرصة - نابليون". فكّر بأسى أن ذلك صحيح تمامًا. تساءل عمّن يكون "نابليون". خمن أنه شاعر أجنبي. يا للرأي الصائب! كان بإمكانه أن يذهب لمدرسة إنجليزية، لولا وفاة أبويه.

قرأ بشيء من الشك مقولة منسوبة لشخص يدعى "أوجيه"⁽⁸⁾ وأيًا من كان "أوجيه" هذا. فإنه تحدث عن الـ"محنة". بحث "رامتشانند" عن الكلمة في القاموس، فافتشف أنها تعني الشدائد وسوء الحظ.

تنهّد "رامتشانند"، وواصل القراءة: "الربّ يلقي بالإنسان في المياه العميقة، لا ليغرقه، ولكن لينظفه". فكّر "رامتشانند" بغيظ: "نعم.. صحيح! وفي بعض الأحيان، ينساهم في تلك المياه إلى أن يتجدد جلدهم، كأيدي النسوة الغسّلات، فلا يعود لهم أي فائدة في الحياة.. لا لأنفسهم ولا لغيرهم".

تخطى "رامتشانند" جميع الاقتباسات التي جاءت تحت عنوان "أمريكا". حين قرأ المقولات المتعلقة بالـ"استدانة"، لم يملك إلا الإعجاب بها والموافقة عليها. قال شخص يدعى "كارلايل": "الدين بحرٌ بلا قرار". كان هذا تقريبًا ما اعتاد والده أن يقوله لزوجته، حين كانا يمران بضائقة مالية. "لا تقلقي، يمكننا تدبر الأمر بما لدينا، مهما صَغُر؛ لكنني لن أستدين مالا من أحد. لا يمكن للإنسان أن يتوقف عن ذلك ما إن يبدأ. سيصبح الأمر عادة سيئة تحيل حياتنا جحيمًا". كما أن "جوكل" يؤمن بالأمر ذاته، ولطالما ردد: "إنها دوامة يا "رامتشانند"، لا تسمح لها أبدًا بأن تجرفك. دبّر حياتك وفق ما تملك. لا تجعل احتياجاتك تتجاوز حدود النقود التي تحملها داخل جيبك. ما إن يحكم

(8) "أوجيه" هو James H. Aughey (1828 - 1911) فس تعرض للسجن والتعذيب، وحكم عليه بالإعدام خلال الحرب الأهلية الأمريكية، لكنه تمكن من الهرب.

المرابون وأمثالهم قبضتهم حولك"، وهنا كان يهز رأسه في خوف، دون أن يكمل عبارته. وكثيراً ما كان ينصحه: "ولنفترض أنك لم تقترض منهم، بل من أصدقائك ومعارفك وأقربائك، سيظل هناك دوماً نوع من الضغوط عليك. من الأفضل للإنسان أن يلبس ثياباً بالية، ويكتفي بوجبة طعام واحدة في اليوم، وهو مرتاح البال، على أن يعيش في رغد معتمداً على أموال غيره". بحلول شهر فبراير، وصل "رامتشاند" إلى الاقتباسات المتعلقة بالـ"ظلام"، بعد أن تجاوز "رأس المال" و"العمل" و"القطط". تساءل عن سرّ الكلام الغريب، غير المفهوم، الذي ورد تحت هذا الباب..

"لا مجال لقطعة"⁽⁹⁾ - سموليت، همفري كينكر.

"حتى الملك قد يضطر لمواجهة قطة"⁽¹⁰⁾ - جون هيوود.

الكلام الذي قاله رجال، يفترض أنهم عظماء، عن القطط.. لم يثر إعجاب "رامتشاند".

في شهر أبريل، ابتاع "رامتشاند" كتاباً آخر.

لم يكن ينوي الشراء. كان يقلّب بعض الكتب القديمة في أحد الأكشاك، حين وجده ووقع في غرامه من النظرة الأولى، "كتاب الجيب - العلوم للأطفال". صغير الحجم، له ورق مصقول شديد اللمعان، ويحتوي على صور ملونة ورسوم جميلة، والكثير جداً من المعلومات. انجذب له "رامتشاند" بقوة.

(9) "لا مجال لقطعة": cat هنا بمعنى سوط (كرباج) من تسع عُقد؛ والمعنى أن المكان شديد الضيق لدرجة يستحيل معها تحريك السوط في الهواء.

(10) "حتى الملك قد يضطر لمواجهة قطة": المعنى أن جميع المخلوقات متساوية، حتى الملك والهرة.

سأل عن ثمنه. كان بمئة وخمسين روبية. أحس بالاضطراب. المبلغ ضخّم. لكن البائع قال له بأن الكتاب مستورد، وأعلن تمسكه بهذا السعر. وحتى بعد أن ساومه "رامتشاند" طويلاً، لم يستطع أن يخفض من ثمنه سوى ثلاثين روبية فقط؛ لكنه لم يستطع المغادرة دونه. ثم إنه لم يشترِ كتاباً منذ أكثر من شهرين، حين ابتاع "اقتباسات لكل المناسبات". من حقه الآن أن يصرف شيئاً من النقود، بالتأكيد. لم يكن بحاجة لمزيد من التفكير. دفع ثمنه على الفور.

كان الكتاب مثيراً ومبهجاً، لدرجة أن "رامتشاند" أصبح ينتزع نفسه انتزاعاً من أمامه كل صباح، للذهاب إلى عمله. والفكرة الوحيدة التي تسيطر عليه في طريقه للبيت كل مساء، هي أنه على وشك قراءة الكتاب مرة أخرى. حتى "سودها"، تمّ إهمالها قليلاً، بسبب "العلوم للأطفال".

يحتوي الكتاب على صور نجوم وكواكب وآلات ونباتات، وصور تشرّحية لجسم الإنسان. ويشرح بكلمات، صار بإمكان "رامتشاند" أن يفهمها الآن، كيف تتولد الكهرباء وكيف تعمل فرامل السيارة، وكيف تطير المناطيد، ولماذا تتوسط آلة الجيتار فتحةً دائرية، وكيف تتكون أقواس قزح في السماء. يشرح أيضاً كيف تسبح طيور البطريق. لم يكن قد رآها أو سمع عنها أبداً. تمعّن في صورتها طويلاً، وهو يشعر بالدهشة. هناك تشابه ملحوظ بينها والنُدُل الذين ارتدوا سترات سوداء وقمصاناً بيضاء في حفل زفاف "رينا كابور".

وضّح الكتاب سرّ بريق الماس، وأورد معلومات أثارت دهشة "رامتشاند" مثل أن جسم الإنسان به ستمائة وأربعين عضلة، وأن البشر يستهلكون الموارد الطبيعية على الأرض بسرعة فائقة، حتى إنه لا أمل في بقاء شيء في المستقبل القريب.

أحبّ "رامتشاند" هذا الكتاب، أكثر من بقية المؤلفات التي اشتراها، وإن أبي الاعتراف بذلك. حين انتهى من قراءته، وضعه أعلى مجموعة الكتب الخمسة التي صار يمتلكها. خمسة! بدأ يعرف إحساس الإثارة الذي يشعر به محبّو وجامعو الكتب. بدأ يفكر في شراء "مختصر تاريخ العالم للصغار"، لكنه تردد حين عرف أنه مئة روبية؛ وأخيراً. قرر أن ينتظر بضعة أشهر قبل الإقدام على هذه الخطوة. تمنى ألا يأخذه أحد حتى حلول شهر أغسطس.



والآن.. خلال سيره باتجاه مسكن "تشاندر"، أحس "رامتشاند" بالرضا عن نفسه وهو يقرأ لافتات الدكاكين، الواحدة تلو الأخرى، دون تباطؤ أو لعثمة، ولا لمرة واحدة. "ساندرام للآلات النحاسية"، "مخزن سوكتيندر للمعدات"، "مخزن شيف شانكار العام". تلاشت اللافتات قبل وصوله للحى الذي يقطنه "تشاندر" بمسافة طويلة. ظهرت بيوت صغيرة جداً، أقرب ما تكون للأكواخ. دكاكين ضيقة، بائسة، وشبه مظلمة. كانت المنطقة في حال سيئة حين أتى إليها في الشتاء، أما الآن، فإن الصيف حوّلها إلى جحيم لا يطاق. امتلأت الحارات بروائح عطنة، فظيعة. فاضت أنابيب الصرف الصحي بالقاذورات النتنة المقلزة. حين وصل "رامتشاند" إلى معبد "هانومان"، أحس بأنه يسير منذ زمن. دخل الزقاق المجاور للمعبد. في كوة تتوسط جداراً متهاكاً، ثبتّ صنوبر البلدية العمومي. بجواره، وقفت امرأتان تتشاجران، وكل منهما تلوّح بذراعيها في الهواء وتصح في وجه الأخرى. لم يتمكن "رامتشاند" من المرور، لأن نسوة أخريات، بالإضافة للعديد من الأطفال، كانوا يسدّون الطريق. صرخت إحداهما:

- هل تظنين أن هذه الحنفية ملك السيد الوالد؟ نحن لا نجد ماءً نشربه أو نطبخ به.

وسمو الملكة هنا تحمم أميرها الصغير!

وقف ولد عارٍ، لا يزيد عمره على خمس أو ست سنوات بين المرأتين، وقد غطت رغبة الصابون جسده بالغ النحول، بما في ذلك ركبتيه بعظامهما الناتئة، وقدميه اللتين امتلأتا بآثار جروح قديمة. غطت الرغوة أعلى رأسه أيضًا، ولم يظهر منه سوى وجهه بائس. أحكمت أمه قبضتها على كتفه، حتى لا يهرب منها، وصاحت:

- إن كنتِ لا تمنعين أن يملأ القمل رؤوس أولادك، أو أن تظل ركبهم سوداء كما "السُّخام".

فهذا لا يعني أن نكون جميعًا مثلك!

وضعت المرأة المعترضة يدها على الصنبور بقوة، وصاحت:

- لا داعي لأن تمثلي علينا دور المرأة النظيفة، أو المتدبنة مثلًا. كلنا نعرف أنك تتخلصين

من القمامة بالقائها في عرض الطريق.

أجابتها الأخرى:

- وماذا أفعل إذًا؟ لست مثل غيري.

أضافت بلهجة ذات مغزى:

- يعني بعض الناس يصادقون أصحاب دكاكين الأدوات المنزلية فيتلقون منهم مختلف

الهدايا مثل صناديق القمامة البلاستيكية.

شهقت وصاحت بغیظ:

- يا "مومس"! ماذا تعنين بالضبط؟!

قالت أم الولد:

- لا شيء. أنا فقط أقول إنني أعرف جيداً ما يحدث يومياً عقب مغادرة زوجك للبيت،

حين يذهب لبيع الموز؛ ولكن لا تدعيني أفتح فمي!

تعالى صراخهما بشكل هستيري.

ردت الأخرى:

- على الأقل، زوجي لا يقيم علاقات مع الأخريات. أنا أيضاً أعرف ما يدور في بيتكم،

ولذلك يستحسن أن تخربي وتقفلي فمك القذر.

بدأ الطفل أكثر بؤساً الآن. لم يكن يريد الاستحمام أساساً. بدأ الصابون يجف على جسده.

وقفت خصلات شعره المغطاة بالرغوة، في كل اتجاه، وأحسّ بالحكة في كل جسمه. كان الجو

شديد الحرارة، حتى إن العرق بدأ يتكون تحت طبقة الصابون. ظلت أمه ممسكة بكتفه،

فيما وضعت الأخرى يدها على الصنوبر بإحكام. بدأ بعض الصغار الواقفين في الضحك عليه

والسخرية منه. ألقى عليهم نظراته الغاضبة.

سيشهد الزقاق ذلك اليوم المزيد من الشجارات.

شقّ "رامتشان" طريقه بين جموع النساء والأطفال المتلاصقين. تمّ دفعه من جميع

الاتجاهات، وجاهد طويلاً للخروج من بينهم.

أحسّ بالراحة حين وصل إلى باب "تشاندر". قرعه بشيء من التوتر. لم يجب

أحد. دق الباب ثانيةً. دفع الباب برفق. لم يسمع أي صوت. أحس بجراحة أكبر.

فتح الباب. في البداية، ظن أن لا أحد بالداخل. ثم رآها. تجلس على الأرض،

وهي تسند ظهرها إلى إحدى زوايا الحجر، وقد أحنّت رأسها في صمت تام. كانت تقبض بأصابعها على زجاجة روم، نصف ممتلئة.

الزجاجة ذاتها التي تركها "تشاندر" حين خرج من البيت غاضباً منذ ساعات.

اقترب "رامتشاند" بحذر من "كاملا"، وهو يغالب شعوره بالصدمة لرؤية امرأة تمسك بقنينه خمر. لم يكن قد شاهد سيدة تشرب من قبل. فتح فمه ليحدثها. كان على وشك أن يناديها بـ"باي"⁽¹¹⁾. لكنه لم يفعل. بدا من الغباء أن يخاطبها بذلك اللقب. "باي" تقال للسيدات المهذبات، المحترمات، اللاتي يقدمن لك فناجين الشاي، ويزعجنك بأحاديث مطولة عن أبنائهن، ويسألنك بابتسامات ماكرة عن السر في عدم زواجك حتى الآن.

أما هذه المخلوقة الثملة، التي تحملق بعينين لا تريان شيئاً في الحائط المقابل. كيف ينبغي له أن يخاطبها؟

ثم لاحظ هيئتها غير المرتبة، وآثار الدموع على خديها، ووجهها الذي يعتصره الألم. فأدرك مدى تعاستها.

مال تجاهها، ووضع ذراعه على كتفيها، هزّها برفق. لم يصدر عنها أي ردّ فعل. ظلت عيناها الميئتان تحدقان في الهواء. للحظة، أحس "رامتشاند" بالفزع. هل ماتت؟ لكنه يسمع صوت أنفاسها. هزها برفق بالغ، مرة أخرى.

تذكر حين تركها آخر مرة، بعد أن ضربها "تشاندر". عاوده الإحساس بالذنب. كان ذلك المنظر يلاحقه بين الحين والآخر، فيتعمد أن يدفعه بعيداً إلى أعماق أعماقه. لكن ذلك الإحساس لم يفارقه أبداً. ظل باقياً بداخله.

(11) "باي": صيغة احترام لمخاطبة زوجة الأخ الأكبر.

استجمع شجاعته، وجلس على الأرض بجوارها. تحدّث إليها برقة، بصوت مرتجف: "ما الأمر؟ هل أنتِ مريضة؟".

واصلت تحديقها في الفراغ. أحسّ "رامتشاندر" بشعور غريب وهو يجلس بجوار امرأة لا يعرفها. ماذا لو عاد "تشاندر" الآن ورآه في هذا الوضع؟ ما الذي سيظنه؟ لكن شيئاً في وجه "كاملا" أسرّه، وجعله يواصل الجلوس بجانبها في صمت. مرّت دقائق. كان هناك سكونٌ معلق في جوّ الحجرة. ارتفعت الحرارة، وغرق "رامتشاندر" في عرقه، لكنه استمرّ في الجلوس دون أن يفهم شيئاً. لكنه عرف شيئاً واحداً فقط. عليه ألا يغادر، لأن هذه المرأة بحاجة إليه.

تنامي الخوف بداخله. لم يعد قادراً على المغادرة، ولا على البقاء.

لكنه ظل منتظراً في الحجرة، التي ذكرته بالقبور. عالم منفصل تماماً عن الشوارع في الخارج، وعن المدينة بأكملها. عالم مثقل بالقنوط، وبالكلمات غير المنطوقة، والدموع غير المسكوبة. كأنك ترتحل إلى الظلام، ثم تصل إلى أعماقه. أصبح عقل "رامتشاندر" خاوياً، وجسده ساكناً. كان ينتظر.

بعد برهة، تحركت. أحدثت عظمة في جسمها صريراً مسموعاً.

تحدث "رامتشاندر" وهو يشعر بالدهشة من جرأته المباغتة: "يمكنك أن تصارحيني بما يضايقك. ربما استطعت مساعدتك".

حتى وهو يتكلم، تمنى في أعماقه أن تواصل التزامها بالصمت، وأن تستمر في التصرف كجثة، حتى يتمكن من التسلسل خارجاً، بضميرٍ مستريح.

لكن ما إن خرجت الكلمات من فمه، حتى بدأت المرأة تستعيد شيئاً من إحساسها بما حولها. ثم أبدت تجاوباً، فبطء شديد أدارت رقبتها تجاهه، دون أن تحرك بقية جسدها، ونظرت إليه. عينان عميقتان، سواد حالك لا نهائي.

حاول الهروب من نظراتها. لكنه لم يستطع النظر بعيداً. شيء ما في وجهها جعله يواصل الجلوس بجوارها، في سكون تامّ. تحركت شفتاها الياستان، دون أن يصدر عنهما أي صوت. لاحظ وجود بقعة جافة من القيء أسفل شفيتها. كانت تلبس "ساري" من النايلون الرخيص، لونه بنفسجي وعليه رسومات لورود بيضاء كبيرة. مال طرفه عن كتفها.. فظهرت آثار المزيد من القيء على بلوزتها أيضاً. غطى الزغب ذراعيها؛ وامتد جرح قديم، طويل، في ثنية ذراعها اليسرى.

و أخيراً، تكلمت. بدا صوتها الأجش قادماً من مكان بعيد جداً..

قالت وهي تفتح فمها بالكاد:

- تساعدني؟

عندها فقط، لاحظ على زاويتي فمها جروحاً قطعية ممتدة إلى الخارج، ترسم شبح

ابتسامة على شفيتها.

ثم اشتعلت عيناها المبيتتان وهي تحرق به. ارتفعت شفتها العليا كاشفة عن أسنانها

ونابيهها. بدت كحيوان شرس. راقبها "رامشانند" بخوف. كررت سؤالها بغضب:

- تساعدني؟ أنت تريد أن تساعدني أنا؟!

أحس بالفرع. تمنى لو كان باستطاعته الوقوف، ليهرب من أمامها؛ لكنه

شعر بأنه فقد القدرة على تحريك أي عضلة في جسمه. العينان المفطرتان في

السواد كقطعتي فحم، جعلتاه يثبت في مكانه دون حراك. ظل يحملق فيها برعب، وقد أسند إحدى يديه إلى الأرض. تكلمت مرة أخرى. قالت من بين أسنانها المطبقة:

- ما الذي يمكنك فعله؟ أخبرني. ماذا ستفعل؟

ارتفع صوتها فجأة، وصاحت وهي تنتحب:

- تساعدني؟! كيبييف؟

تملّك الرعب "رامتشاندا" تمامًا. لم يعرف كيف يتعامل مع هذا الموقف. تسارعت دقات قلبه. لم لا يستطيع أن يتركها ويفرّ من أمامها؟ يهرب من هذه المرأة وعينيها وسوادهما

الرهيب؟ ومن الروائح المقززة التي تحيط بها؟

لكنه لم يستطع. ظل جالسًا أمامها في جمود.

جسدها، تصرفاتها، الطريقة التي استند فيها جسدها إلى الحائط، كلها أمور جعلتها أقرب

لحيوان يحتضر. صاحت بصوت مرتعش، وقد انبعثت رائحة كحول قوية من أنفاسها:

- هل تريد مساعدتي؟ هل تريد أن تعرف ما فعلوه بي؟ هل تظن أنهم اكتفوا باغتصابي

ثم جعلوني أغادر؟

أضافت وهي تشير بإصبعها إلى حجرها:

- انظر!

تمعن بنظراته إلى حيث أشارت، دون فهم.

ثم تمّلكه رعبٌ حقيقي، لم يعرف أبداً أنه قادر على الإحساس بمثله. لاحظ أخيراً أن معظم الورد على الجزء الواقع أسفل منطقة الحوض من الرداء البنفسجي لم تكن بيضاء، بل حمراء. أحمر صديء. يقع دم جافة.

كلماتها، عيناها، الورد الحمراء الصدئة، اجتمعت بالترتيب داخل رأس "رامتشان" وفهم أخيراً.

بدأ يرتجف بقوة.

كررت ثانية:

- هل تظن أنهم اكتفوا باغتصابي؟! ذاك الآخر. فعل ذلك بعصاه الغليظة، عقاباً لي لأنني ركلته في بطنه.

ظهر شبح ابتسامة ملتوية على وجهها.

زحفت كلماتها لأذنيه، كديدان صغيرة، واستقرت داخل عقله.

أوجعته يده اليمنى، التي كان يستند عليها في جلسته. أحس بألم في رسغه، لكنه لم يستطع أن يتحرك. غابت ابتسامتها غير المكتملة فجأة، وبدأت في البكاء بصوت مرتفع. قالت مرة أخرى:

- عصاه الغليظة.

رفعت الزجاجاة إلى فمها، وراحت تشرب منها.

أحس "رامتشان" بلبل في راحة يده التي يتكئ بها على الأرض. لم يتحرك. عيناه أيضاً لم تتحركا. رعب. هل يقع الدم على ثيابها قديمة، أم أنها لا تزال تنزف؟ هل هناك بركة دماء حولها لا يراها؟ هل البلبل في كفه ناتج عن عرقه، أم عن دماؤها؟ داهمه غثيان قوي. بدأ يرتجف بعنف، وأدرك بعد فترة أن وجهه رطب. فهم أنه كان يبكي

دون أن يشعر. نظر ببطء إلى يده. الألم يمتد في أصابعه، التي أصبحت مفاصلها شديدة
البياض. رفع يده ونظر إليها. مجرد بعض الروم الذي انسكب من الزجاجه.
تفحص يده من جديد.

مجرد خمر.

ليس دمًا.

صاحت مرة أخرى:

- تريد أن تساعدني؟

سمع "رامتشانند" صوت بكائه وأنفاسه المتهدجة.

نجح أخيرًا في الوقوف على قدميه. ثم خرج مسرعًا، بأسرع ما في طاقته، إلى الشوارع
المزدحمة.

لم يتوقف عن الجري إلى أن وصل إلى حجرته الصغيرة، الآمنة.





في ذات الأسبوع، صدرت رواية "رينا كابور".

لو كانت مؤلفة الرواية فتاة غير متزوجة، من أسرة عادية، ما كان العمل سيلفت الأنظار، وبخاصة في مدينة مثل "أمريتسار"، التي لا يزيد عدد المكتبات الجيدة فيها على واحدة فقط. ولكن بما أن "رينا" كانت عروسًا جديدة، من أسرة ثرية ومعروفة، وامرأة بالغة الأناقة، وتجعّد شعرها وفق أحدث طراز، ولديها رغبة ملحّة في لفت أنظار أرقى عائلات المدينة. فقد كان لصدور كتابها صدى واسع. أقيم حفل لتوقيع الكتاب في "نيودلهي"، بالإضافة إلى مؤتمر صحفي، وعدة لقاءات وحوارات في مجلات مختلفة. وحين عادت إلى "أمريتسار"، أقام لها والدها "رافيندر كابور" حفلًا ضخمًا، استقبل فيه رجال الصناعة والأعمال، وكبار الموظفين. كما دعت "رينا" جميع معارفها في الجامعة من أساتذة وطلبة. في هذا الحفل، قدّمت أطيب الطعام التي أعدّها كبير طهاة جُلب خصيصًا من العاصمة، وامتلأت الموائد بأصناف متنوعة من الأجبان المستوردة، وأنواع عديدة من الشوكولاتة الفاخرة.

ارتدت "رينا" ساري من "الشيْفون" الأسود الشفاف، المزين بقطع فضية برّاقة. وبدا زوجها وسيماً بمشيته المستقيمة، وسترته الـ"بليزر" الكحلية. رجل جيش حقيقي حتى النخاع. علّق الجميع بأنهما يشكّان ثنائياً مبهراً.

في اليوم التالي، شاهدت العديد من الزوجات الجميلات اللاتي يقاربن "رينا" في العمر، صورها في جريدة "أمريتسار نيوز لاين"، وأحسنن جميعاً بالغيرة والحسد.

خطرت لها فكرة الرواية في يوم زفافها، حين رأت بائع "السواري" يقف مرتعداً بين رجلَي الأمن، ويدّعي كذباً أنها هي من وجّه له دعوة للحضور. كم ضحكت مع "تيننا" حين عادت لغرفتها! ثم بدأت تفكر به وقد غمرها الفضول. ذهبت لتراه، وتحدثت معه، لتكوّن ملامح الشخصية الرئيسية للكتاب. بدأت تخط المسودات الأولى للعمل خلال شهر العسل، وانتهت من الكتابة بعد خمسة أشهر.

يدور العمل حول شاب يدعى "سيتارام"، يعمل بائعاً في دكّان "سواري". رجل مرح وذكي ومحبوب ويؤمن بالخرافات. شخصيات الكتاب الأخرى تتكون من رجل زاهد صاحب معجزات، وكلب معتوه، وسيدة في منتصف العمر تعاني من داء السرقة. والشخصية الأساسية الأخرى هي لفتاة قروية يحبها البطل، لها عينان لوزيتان تزينهما بالكحل، وتضع في شعرها عقوداً من الياسمين. تتمايل في مشيتها، وتبتسم ابتسامات فاتنة. ترى أن "سيتارام" تافه بعض الشيء، لكنها تجده حبّوباً في الوقت ذاته. يلجأ البطل إلى الشيخ الزاهد ليساعده بسحره وأعشابه على الفوز بحبّ الفتاة ورضاها.

الرواية مكتوبة بطريقة جيدة. تبدأ وتنتهي كما يجب. وتتوالى فصولها بانسيابية وتشويق. كما تحتوي على خط كوميدي ظريف.

لاقى العمل ترحيبًا من الصحافة والنقاد، دفع مسز "ساتشديفا" لقصّ أفضل التعليقات الصحفية ووضعتها بفخر بالغ على لوحة الإعلانات في قسم اللغة الإنجليزية. وفي كل مرة، تقف أعداد كبيرة من الطلبة لقراءتها بشغف وإعجاب.



"رجل الشرطة يلعب دورًا هامًا في خدمة المجتمع".

قرأ "رامتشاندا" الجملة في كتاب التعبير، بقلب أثقله الهمّ والألم،
واصل القراءة.

"واجباته صعبة للغاية. يعمل بالنهار أحيانًا، وفي أحيانٍ أخرى يقوم بدوريات ليلية. يحمي رجل الشرطة حياتنا وممتلكاتنا. يلاحق الجناة ويقبض عليهم. أمّا رجل الشرطة المسؤول عن المرور، فيقوم بتيسير وتنظيم الحركة في الشوارع. يبدأ يومه بطواير عسكرية، وهو ما يساعده في الحفاظ على لياقته البدنية. يرتدي زيًا من اللون الكاكي، وفي أغلب الولايات يضع أيضًا عمامة من اللونين الأحمر والأزرق. حذاؤه لامع دائمًا. جسمه متناسق وطويل. يلبس حزامًا جلدًا عليه رقمه ومنطقة الخدمة التابع لها. يحمل بيده أداة غليظة اسمها "باتون".

رفع "رامتشاندا" القاموس بجهد. شعر بثقل في أطرافه. وبطريقة آلية، بحث عن معنى كلمة "باتون".

وجد أنها تعني "عصا".

فكّر بعقل متعب: مجرد عصا.

هذه المرة، لم يكن البحث عن معنى كلمة جديدة في القاموس يحمل أيّ قدر من التشويق والترقب. مجرد عصا. "فعل ذلك بعصاه الغليظة" تردّد الصوت المعذب داخل رأسه. هاجمته رائحة ذلك اليوم.

زيت طهي أعيد استخدامه مرات كثيرة، مختلط برائحة قيء جافّ. نعق غراب في الخارج. التفت نحوه، حيث يقف على إطار النافذة، فنظر إليه الطائر بعينيه الصغيرتين. تحرّك "رامتشاند"، فطار الغراب بعد أن أطلق صيحة رعب. عاود قراءة الموضوع.

"واجه الحفاظ على النظام والأمن في منطقة عمله. دائم البحث عن الشخصيات الشريفة، مثل السكارى ولاعبى القمار، والنشالين، إلخ.. كما يحرص على تمشيط المنطقة ليلاً. يلقي القبض على اللصوص والمجرمين، ويسجنهم في قسم الشرطة". لم يستطع "رامتشاند" أن يقرأ المزيد.

كانت الحجرة حارة وخانقة. وجود شباك فيها، لا يغير شيئاً. فحين يبقيه مفتوحاً، تهاجمه أشعة الشمس القوية بنورها الساطع، إلى أن يشعر بالصداع. ويؤلم الهواء الساخن، المندفع عبرها، عينيه ورئتيه. أما حين يغلقه، يصبح الجو خانقاً جداً.

دارت المروحة ببطء. لها منظم سرعات دائري، مثبت على لوحة الكهرباء، له خمسة خطوط محيطية بقرصه الأسود - كأنها أشعة الشمس التي يرسمها "مانوج" في كراسته - ولكل منها رقم مكتوب بالطريقة الرومانية. إلا أنه -

ولقدمه الشديد -ليس له تأثير يذكر على سرعة المروحة، التي تصدر أزيزًا رتيبًا، خلال دورانها

البطيء، الذي يصبح أكثر بطئًا حين يضعف التيار الكهربائي.

أحس "رامتشانند" بألم ينتشر في جبينه. لم يعد بإمكانه مواصلة القراءة أكثر من ذلك.

تطايرت الكلمات الجوفاء أمام عينيه وداخل رأسه، كأنها ذباب أسود مزعج.

عينا "كاملا" لم تتركاه أبدًا، مهما حاول نسيانهما. لم يعد هناك معنى أي شيء. صار لا يرى

إلا هاتين العينين، في صحوه وفي منامه. فقد القدرة على التركيز في كل الأمور. حين كان

"مهاجان" يخاطبه اليوم، لم يرَ "رامتشانند" أمامه إلا وجه ينم عن الضحالة، والفظافة، والغباء

الشديد. وقف صامتًا دون أن يفهم كلمة واحدة.

عاد الصداق ليهاجمه بضراوة، بعد انقطاع شهور.

حملق دون وعي في كتاب التعبير. جلس على حافة السرير، واستغرق في التفكير. أفكار

متداخلة، لا رابط بينها، عن أسنان مبقعة بالـ"بان"⁽¹²⁾، وعن أقمشة حريرية، وذهب،

وطاووس راقص. عن ورود بيضاء مرسومة على "ساري"، تحولت دون أن يلاحظ العالم إلى

ورود لونها أحمر صدئ.

أخيرًا، قام من مكانه وأغلق الكتاب. بوجهٍ جادٍ وحركات بطيئة يملؤها التصميم، جمع كل

ما كان قد اشتراه بحماس منذ بضعة أشهر: "موضوعات التعبير البراقة"، و"فن كتابة الرسائل"،

و"اقتباسات لكل المناسبات"، و"كتاب الجيب: العلوم للأطفال"، والدفاتر، وزجاجة الحبر

والقلم.

(12) Paan/بان: أوراق نباتية تُحشى بخليط من جوز الأريكا والتبغ، ويتم مضغها.

أحس بغصّة وهو يضعهم بطريقة مرتبة فوق الرف العلوي المرتفع، الذي لا يستخدمه
أبدًا، حتى لا يعود بإمكانه رؤيتهم أبدًا.
قرر أن يقوم بغسل ملاءة السرير التي تعلوها القذارة. نظر إلى الوسادة فوجدها مبقعة
بزيت جوز الهند الذي استخدمه لتصفيف شعره. نزع الغطاء عنها. أعاد تسوية انبعاجاتها
ببعض الضربات السريعة من قبضتيه.
بعدها بلحظات، كان يجلس على أرضية الحمام، يفرك غطاء الوسادة بكل ما أوتي من
قوة، مستخدمًا صابونة غسيل زرقاء.
رکز كل تفكيره في إزالة البقع. لم يعد يرغب في التفكير بأي شيء آخر.





لاحقًا، خلال ذلك الأسبوع، عرف "رامتشاند" كيف ذهبت "كاملا" إلى منزل عائلة "جوبتا"، وكيف ألقى القبض عليها هناك.

امتلاً الدكان بالزيونات ذلك النهار. تقاطرن في مجموعات متوالية، داخلات وخارجات. وكما يحدث أحيانًا، كانت حركة الشراء بطيئة رغم زحام السيدات، اللاتي رحن ينظرن للبطاعة باستياء. يطلبن أشياء عديدة مختلفة، ويقلبنها بأصابعهن، ثم يغادرن بعد نحو نصف ساعة دون شراء شيء.

ازدادت الأمور سوءًا حين تشاجر "جوكل" و"راجيش".

حمل "جوكل" تشكيلة من "السواري" المنسوجة من قماش بالغ الرقة والخفة، ليضعها داخل الخزانة الخشبية. حين فتح بابها، فقد توازنه ووقعت المجموعة بأكملها من يديه. قال "راجيش" بنفاد صبر:

- هل بإمكانك أن تنتبه لما تفعل؟

اقترب منه ليساعده في رفعها عن الأرض، فلاحظ وجود "ساري" من نوع مختلف. رفعه أمام وجه "جوكل" وقال بحدّة:

- ما هذا؟ كيف تهمل في إعادة كل "ساري" إلى مجموعته الأصلية؟ ولم أوقعتهما على الأرض بهذه الطريقة؟! أين عقلك؟

لم يهتم أحد بعصية "راجيش"، ولم يلاحظوا الطريقة التي خاطب بها زميله، ولذلك لم يتوقع أيّ منهم ردّ فعل "جوكل" الذي أجاب بكبرياء:

- عقلي دائماً في عملي، وهو ما لا يفعله بعض الناس هنا.

أجابه "راجيش" بنبرات بدت هادئة، وإن اتسعت طاقتا أنفه في غضب:

- ما الذي تعنيه بالضبط يا "جوكل"؟ ما الذي ترمي إليه تحديداً؟

رد الآخر وهو يستدير عائداً إلى مكانه:

- أعني ما قلته بالضبط.

- اسمعني، لا يمكنك أبداً أن تتفوه بمثل هذه العبارات، ثم تعطيني ظهرك، وكأن شيئاً لم

يكن! أنا أفهم جيداً ما ترمي إليه.

- عظيم! ما دمت تفهم، فلم تسأل؟

- دعني أخبرك شيئاً يا "جوكل". نحن - وأعني بذلك نفسي و"شيام" - نعمل في هذا المتجر

منذ زمن طويل، قبل أن يأتي أيّ منكم هنا. فإن كنت تظن أن بإمكانك أن توجه لنا إهاناتك

الحمقاء، وأن علينا أن نتقبل ذلك برحابة صدر، فأنت مخطئٌ حتماً.

- أعلم جيدًا أنكما هنا منذ أعوام بعيدة، ولعل ذلك هو الذي جعلكما تنسيان كيفية العمل! أنا وحدي أبذل ضعف المجهود الذي تقدمانه أنتما مجتمعين.

هنا.. بدأ الجميع في الإصغاء بانتباه تام.

صاح "راجيش" غاضبًا:

- كفى! هذا يكفي جدًا! لطالما كنا نحن الاثنين لطيفين معكم جميعًا، ومع ذلك هأنت

توجه لي مثل هذا الكلام الذي..

قاطعته "جوكل" بحدة:

- إذا فأنت تعتقد أنه طالما قمتما بالتعامل معنا بشكل ودود، وقمتما بالتربيت على رؤوسنا كما يفعل الواحد مع حيواناته، فإن هذا يخولكما لتوزيع مهامكما علينا؟ نعم نحن كالحمير، بينما تدخنان أنتما السجائر في الخارج! وفي آخر الشهر، تأخذان راتبًا أعلى مما نأخذه نحن.

- لن يمر هذا الموقف بسهولة. صدقني. تذكر ذلك جيدًا.

شعر الجميع بدهشة بالغة للعصبية التي تبادل بها الرجلان عباراتهما الجارحة، رغم ما عُرِفَ عنهما من طباع هادئة.

لكنهما اضطررا إلى تناسي شجارهما، والانهماك في العمل، إذ سرعان ما دخلت مجموعة كبيرة من الفتيات، ومعهن مشرفة ذات جسد ضخم.

بين صخب الفتيات وضحكاتهن المرتفعة، استطاع "رامتشانند" أن يفهم من أحاديثهن المتواصلة أنهن طالبات بالسنة الأولى في كلية البنات الحكومية. كن جميعًا من القرى المجاورة المحيطة بـ"أمريتسار". يقبل الأهالي على إلحاق

بناتهن بتلك الكلية تحديداً، لما عُرف عن رئيسة المشرفات على سكن الطالبات من صرامة وحزم وقوة شخصية، وإيمانها بأن الأخلاق أهم من العلم. لم يكن هناك أي مجال لأن تتخذ أي من الفتيات الموجودات تحت إدارتها، صديقاً أو حبيباً، أو تعرّض سمعة عائلتها لأي سوء. اتضح أن رئيسة المشرفات مريضة اليوم، وأن التي أحضرت الفتيات هي إحدى مساعداتها. بدت المرأة مرهقة ومنزعجة.

أخبرت ذلك لـ"جوكل"، الذي أظهر تعاطفه معها. قالت أيضاً إن فتاتين من المجموعة تريدان شراء ثياب جديدة تحضران بها الحفل الذي يقام سنوياً للطالبات الجديديات. أضافت معتذرة بأنها لولا ذلك، لما أتت بهن للدكان. أوماً "جوكل" متفهماً. حين وجدته مصغيّاً، راحت تثثر معه. أخبرته كيف أن السيطرة عليهن أمرٌ بالغ الصعوبة، وبخاصة أن هذه هي نزهتهن الشهرية الوحيدة. فبعد أن يُحبسن في غرفهن لمدة شهر كامل، يصبن بالجنون حين يرين الشارع والأسواق. أسرت له بأن إحداهن كانت على وشك الوقوع تحت عجلات سيارة مسرعة منذ قليل، لأنها كانت مستغرقة في الضحك وهي تقطع الطريق، دون النظر يميناً أو يسرة. "أخبرني.. لو أن حادثاً وقع لها أو للأخريات.. من غيري سيتحمل مسؤوليته؟".

وفيما راحت تبتُّ "جوكل" شكواها ومعاناتها مع البنات، كن هن يتراكن في أرجاء الدكان كحيوانات مسعورة. أضافت المشرفة أن هذه المجموعة هي الأسوأ في السكن بأكمله.

أضافت وهي تتنهّد:

- ولكن حين يكرّ مع الرئيسة، فإنهن يلتزمن الصمت والهدوء التام. كفئران مذعورة!

ليتني أعرف كيف تفعل ذلك؟

تراوحت أعمار الفتيات بين السادسة عشرة والسابعة عشرة. رحن يوزعن ابتساماتهن

للبنائين. وكلما نهرتهن المشرفة، انفجرن في قهقهات متواصلة.

أحس "رامتشاند" ببعض الاطمئنان، لأنه لم يكن الوحيد الذي يشعر بالارتباك وعدم

الارتياح؛ فقد وقف "هاري" محمّر الوجه، وهو يبادلهن الابتسام. وحتى "جوكل" نفسه، بدا

مضطربًا بعض الشيء.

أوشك "رامتشاند" بدوره على الابتسام، متأثرًا بكل المرح والصخب الذي يعمّ المكان، لكنه

تذكر فجأة الجدران المغطاة بآثار الدخان الأسود، واستعاد منظر "الساري" البنفسجي. تساءل

ما إذا كانت زوجة "تشاندر" قد عرفت الضحك والمزاح وهي في السادسة عشرة.

ماتت الابتسامة على شفثيه، من فورها.

وزع "هاري" ابتساماته الساذجة على المراهقات من حوله، إلى أن ضربه "جوكل" على

رأسه، ضربة خفيفة، وقال ناصحًا:

- أزل تلك الابتسامة من على وجهك حالًا، وألقِ بها من هذه النافذة يا عزيزي. إياك أن

تنظر إلا إلى الأقمشة والأثواب. أنت لا ترغب بالتورط في أي مشكلة، أليس كذلك؟

طلبت الفتيات أن يرين أعلى المنسوجات الخاصة بحفلات الزفاف، وأجود

أنواع الحرير الطبيعي، وأفضل نوعيات أقمشة الـ"كريب". كان ثمن كل قطعة

منهم، هو أضعاف ما يأخذنه كمصروف جيب، لمدة عام كامل على الأقل. بعد أن يتفحصن

"الساري"، باهتمام مصطنع، تقول إحداهن للأخرى:

- خذيه أنتِ. ستبين جميلة حين ترتدينه.

- كلاً.. كلاً.. كيف أحرم صديقتي، حبيبتي، من "ساري" بهذه الروعة؟

- إذًا عليكِ بـ"الساري" الأخضر ذي الحواف الذهبية. مناسب جدًا لحضور امتحان الأدب

الإنجليزي! لا يهم بعدها إن سقطتِ ولم تنجحي! على الأقل.. سيتذكرك الناس بعدها لسنوات

عديدة!

- اسمحي لي إذًا أن أقترح عليك شراء ذلك "الساري" الوردية. سيلفت نظر حارس السكن

لكِ، وسوف يتزوجك من فوره! وعندها ستخرجين وتدخلين متى أعجبك!

- لا طبعًا!!! لا يناسبني إلا هذا الحرير البنفسجي! ما أحلاني وأنا أرتديه عندما أسلق

حبات البطاطس في منتصف الليل!

لم يعدن يستطعن السيطرة على ضحكاتهن، وترددت فههقاتهن المرتفعة في أرجاء الدكان.

قالت المشرفة بحزم:

- شيء من الاحترام يا بنات! سأضطر إلى تقديم شكوى مكتوبة للرئيسة عن

هذا السلوك المشين. ثم ما موضوع البطاطس المسلوقة؟ أنتن تعلمن جيدًا أن

الطهي داخل الغرف ممنوع منعا باتًا. نقدم لكن طعامًا جيدًا، فما الداعي

لأن تقمن بإعداد مأكولات أخرى بأنفسكن؟ وتعرفن أيضًا أن قائمة الممنوعات

تشمل استخدام الدفايات الكهربائية، ومواقد الغاز. والآن، أخبرني بصراحة تامة، من منكن قالت إنها تطهو البطاطس بعد انتصاف الليل؟ من منكن تعد طعامًا داخل حجرتها؟ أشاحت كل واحدة منهن بوجهها، كأنها لم تسمع كلمة واحدة. وأخيرًا، قالت إحداهن ببراءة مصطنعة:

- كلاً يا سيدي.. لم نذكر شيئاً عن البطاطس أبدًا. كنا نقول إن المشرفات الطيبات يبذلن مجهودًا خارقًا في خدمتنا، ويحرصن على ألا نشرب إلا الماء النظيف الذي سبق غليه. مقولة إن السكن يقدم للفتيات المقيمات به ماءً نظيفًا مغليًا، ليس إلا إحدى الأكاذيب التي تروّج لها الإدارة؛ ولذلك صمتت المشرفة على الفور.

قالت إحدى البنات العنيدات:

- كنا نتكلم عن الماء المغلي، وليس البطاطس. الماء!
- حسنًا.. هذا يكفي. إن كنتن تردن الشراء، فافعلن ذلك بسرعة. لا تضيعن وقت الجميع.
لكن الفتيات فعلمن عكس ذلك تمامًا.

انهمك العاملون كلهم في خدمتهن، إذ رحن يطلبن المزيد من الأقمشة الحريرية باهظة الثمن، ذات التطريز الكثيف. أخذن يضعن أطراف السواري على أكتافهن ويتأملن أنفسهن في المرايا، وهن يتضاحكن.

في نهاية الأمر، اشترت فتاتان منهن "ساريين" من أرخص الأنواع التي يعرضها "سيفاك" - بيت الساري". أحدهما قطني، والآخر من النايلون، وكلاهما بألوان فاقعة للغاية. خرجن بهرح، تتبعهن المشرفة المنزعجة. وهن يتخطين باب الدكان، قمن جميعاً بتحية "مهاجان" بتهديب مبالغ به، وسعدن حين رأين وجهه الذي احمرَّ خجلاً.

خفف وجودهن من الأجواء العدائية التي خلّفها شجار "جوكل" و"راجيش"، وإن لم يقضِ عليه تمامًا.

و أخيراً، خفّ الازدحام بحلول الساعة الواحدة.

ذهب "رامتشانند" ليجلس بجوار "جوكل". انتظر أن يبدأ زميله الحديث. قال الرجل الأكبر سنّاً بعد قليل:

- لا يهمني ما يقوله أحد. أن الأوان أن يصارح أحداً "راجيش" و"شيام" بأنهما ليسا رؤسائنا. ليسا سوى بائعين هنا، مثلنا جميعاً.

رَبَّت "رامتشانند" على كتفه، وقال:

- انس الأمر يا أخي "جوكل". انس الأمر برمته.

أجابته بقلق:

- قال "راجيش" بأن الموقف لن يمرَّ بسهولة.. هل تظن بأنه سيشكوني لـ"مهاجان"؟

قال "رامتشانند" بثقة:

- لا أظنه سيفعل. لن يجرؤ. سيخاف من أن يكشف "مهاجان" تصرفاتهما. صحيح أنه يعرف كل ما يحدث هنا، لكنه يتغاضى عما يفعلانه؛ فإن اشتكى أحدهما، فسوف يضطر للمواجهة والحساب. رأيي أن تهدأ وتنسى ما حدث.

نظر إليه "جوكل" بامتنان بالغ، ثم سأله:

- ماذا عنك؟ تبدو مهمومًا. لم ألمح ابتسامتك منذ أيام.

قال "رامتشان" على الفور:

- لا شيء. لا شيء على الإطلاق.

نظر إليه زميله بعدم تصديق، لكنه أثر ألا يعلّق. قال بعد برهة وهو يطلق تنهيدة عميقة:

- يبدو أن حظنا لن يكون جيدًا هذه الأيام. كل من حولنا يعانون من مشكلة أو أخرى.

حتى "تشاندر" في أكثر حالاته بؤسًا. يعاني الأمرين من تلك الزوجة. إن كان يمكن أن نطلق على مخلوقة مثلها لقب "زوجة"!

تجمّد "رامتشان" في مكانه لدى ذكراها، وتساءل بلهفة:

- لماذا؟ ما الذي حدث؟

لم يلاحظ "جوكل" تلهف "رامتشان" لسماع الإجابة. قال بعد لحظة:

- الأمر يا عزيزي يسير من سيئ إلى أسوأ. لا أدري كيف يستطيع هذا المسكين

تحمل وجودها في حياته! هل تعلم ما فعلته مؤخرًا؟ لقد أمضت الليل بطوله خارج

بيتها. الليل بطوله!! تخيل؟! وحين عادت صباحًا، رجعت بلا مبالاة. ودون أدنى إحساس بالعار من تصرفها المخزي. ووقفت تنظر إليه. كأنها لم ترتكب خطأ! قام بصفحها ثم غادر البيت. بعدها، تم استدعائه لقسم الشرطة. أحس بقلق بالغ طبعًا، ولم يعرف التهمة الموجهة إليه. أمثالنا من الفقراء ليس لديهم القدرة ولا الشجاعة على التعامل مع أفراد الشرطة، كما تعرف. أوماً "رامتشاندر" برأسه، موافقًا. تابع "جوكل":

- توجه إلى القسم، قابله أحد رجال الشرطة. "تشاندر" المسكين لا يعرف حتى الفرق بين الرائد والعقيد! المهم أن ذلك الشرطي كان في أقصى حالات الغضب. أخبره بأن زوجته قد توجهت إلى منزل عائلة "جوبتا"، وهي في أقصى حالات الثمالة. تخيل أن تكون في موقفه!! تقف أمام ضابط يخبرك بأن زوجتك أفرطت في الشرب، وقامت بارتكاب فضائح! الأمر كفيلا بأن يحطم أقوى الرجال. أخبره الضابط بأنها أساءت التصرف جدًّا، بل وقامت بإتلاف بعض ممتلكاتهم. كسرت بعض النوافذ، كما يبدو، وهشمت زجاج سياراتهم. شيء من هذا القبيل. إنهم أشخاص محترمون، كما تعلم. لم يعرفوا كيف يتصرفون. وحين أعيتهم الحيل، قاموا أخيرًا بإبلاغ القسم، فتوجه إليهم هذا الشرطي وزميل له، على جناح السرعة، وقاما بإلقاء القبض عليها.

أضاف:

- هل تتخيل كيف كان يشعر وهو يقف هناك، والضابط يقص عليه كل هذه الفضائح التي ارتكبتها زوجته؟ الزوجة التي اختارها ليمضي معها بقية حياته في وئام؟ ولحسن الحظ، صرفها رجل الشرطة بعد أن وجه لها تحذيرًا شديد اللهجة. طلب منها أن تذهب لبيتها. هذا ما قاله لـ"تشاندر"، كما طلب

منه أن يسيطر عليها، وأن يحرض على أن لا يتكرر منها مثل هذا التصرف الأحمق، حتى لا يتعاملوا معها بعنف.

قال بعد برهة:

- تصرفوا معها بشكل محترم، وراعوا أنها في نهاية الأمر مجرد امرأة، ولعلها أيضًا المرة الأولى التي ترتكب فيها هذه التصرفات المشينة. صرفوها فورًا لتعود إلى بيتها. لكنها فضلت أن تقضي طوال ساعات النهار والليل في الخارج! هل تصدق ذلك؟!

هزّ "رامتشاند" رأسه. واصل "جوكل" كلامه:

- بطبيعة الحال، أحسّ "تشاندر" بغضب عارم. فكما قلت لك فإن أمثالنا من الفقراء لا يستطيعون التعامل مع أفراد الشرطة. أعني أنها لو كررت تلك الفعلة، فقد يتورط زوجها معهم، دون ذنب. ماذا يفعل؟ إنه دائم التأنيب لها، ويضربها كثيرًا دون فائدة. إنها عنيدة جدًا. شعر باستياء بالغ، فتوجه للصلاة في المعبد القريب من مسكنه. ومن فرط اضطرابه، لبث هناك ما يزيد على الساعتين، ثم عاد للبيت وقام بضربها ضربًا مبرحًا. ما الذي يستطيع فعله أكثر من ذلك؟ أخبرني. ما الخيارات الأخرى المتاحة أمامه؟ على أي حال، أشك أنها ستغيب. لا عجب أنه كثير التغيب عن العمل، مما يضعه في مأزق دائمة مع "مهاجان".

صمت "جوكل" قليلًا. سعل للحظة، ثم قال:

- صباح اليوم التالي، حضر "تشاندر" للدكان في ساعة مبكرة، هربًا من وجهها. كما أظن. أنا أيضًا جئت ذلك النهار قبل مواعي المعتمد، لأن "لاكشمي" كانت ترغب في الذهاب لزيارة إحدى قريباتها، لتبارك لها على مولودها الجديد.

أحضرت لي إفطاري بسرعة، لأخرج وتنتهي هي من مهامها المختلفة قبل موعد الزيارة. يعوقها وجودي عن إنجاز بعض الأعمال المنزلية. فتشعر بضيق بالغ. يزعجني ذلك أحياناً، ولكنني حين أقارن بينها وزوجة "تشاندر". أحمد ربي كثيراً على شريكة حياتي. عيوبها قليلة. فعدا عن كونها ثرثارة وعصبية، فإنها امرأة محترمة، طيبة القلب.

سأله بابتسامة خفيفة:

- ألسنتُ محظوظاً؟

أوماً "رامتشاند" مؤكداً كلامه. واصل "جوكل" سرد أحداث ذلك الصباح:

- على أي حال، كنا هنا في الدكان أنا وهو فقط. لن تصدق ما حدث يا "رامتشاند". راح الولد المسكين يقص عليّ كل ما ذكرته لك وهو منخرط في بكاء مريع. قلت له بأن الحل الوحيد لمشكلاته مع تلك الساحرة هو أن يهجرها، ويتزوج من أخرى. قال إنه سيفكر في الأمر.

لاحظ "جوكل" امتقاع وجه "رامتشاند"، فسأله باهتمام:

- ما الأمر؟ لم تبدو حزينا هكذا؟ كلاً.. تبدو مريضاً. وجهك شاحب جداً. ربما أنت بحاجة

إلى بعض الهواء النقي.

أضاف بمرارة:

- لكن في هذا الدكان، فإن شم الهواء النقي وفترة راحة لتناول الغداء، لمدة ساعتين

كاملتين، هي مزايا لا يحظى بها سوى "شيام" و"راجيش" فقط!

لم يعلق "رامتشاند، وظل صامتاً. نظر إليه "جوكل" بدهشة بالغة، وسأله باهتمام:

- ماذا بك؟ هل كل شيء على ما يرام؟ ما الذي حدث؟

قال "رامتشاندر" بهدوء:

- لا شيء.

لكنه، هذه المرة، لم يتمكن من رسم ابتسامة زائفة على شفثيه.

الآن فقط، استطاع أن يخمن ما حدث بالضبط. ظل شاخصًا ببصره في شروء، ثم سأل

"جوكل" بصوت مضطرب:

- ولكن لماذا؟ أعني لماذا ذهبت إلى منزل عائلة "جوبتا"؟ ما علاقتها بهم؟

- الأمر كالتالي. قبل عدة سنوات قامت هذه العائلة بمشاركة عائلة "كابور" في إنشاء

مصنع للملابس. وقبل أن يأتي "تشاندر" للعمل معنا في الدكان، كان عاملاً هناك. على أي

حال، لم يستمر نجاح المصنع طويلاً، وبدأت صفقاته تتعرض للفشل والخسارة، فاضطروا

إلى إغلاقه. وكانوا قد توقفوا عن دفع رواتب العمال لثلاثة أشهر متوالية. وكان "تشاندر"

في حالة إفلاس تام. ثم لا أدري ما الذي حدث بالضبط. مرض أحدهما، لا أعرف إن كان

هو أم زوجته، ومرت حياتهما بمرحلة صعبة للغاية. وبلغني أنه ذهب للسيد "جوبتا"

والسيد "كابور" طالبًا منهما بعض النقود، ولو على سبيل الدين، إلى أن يعثر على وظيفة

جديدة. تعاملًا معه بلباقة واحترام، لكنهما أفهماه بأنه يستحيل فعل ذلك، لأنهما إن

منحاه شيئًا من المال في صورة قرض، فإن بقية العمال سيتوافدون عليهما للمطالبة بالمثل،

وهو ما يعجزان عن فعله. وعدهما "تشاندر" بأنه سيحتفظ بالأمر لنفسه، ولن يخبر أحدًا

عنه. لكنهما لم يتزحزا عن موقفهما، وكانا بالغي الصرامة. يمكن لنا أن نفهم وجهة

نظرهما. ففي نهاية الأمر لا مجال للعواطف في صفقاتهما. كل ما يفكران فيه هو المكسب والخسارة فقط.

أردف قائلاً:

- الحقيقة هي أنني غير ملمّ بالتفاصيل، لكنني سمعت أنه وزوجته كانا يعانيان الكثير في تلك الفترة، واستمرت معاناتهما لمدة طويلة.. إلى أن نجح في الحصول على وظيفة هنا. لكن "تشاندر" تصرف بحماقة، حين أفرط في الشرب مرة، وعاد لبيته ثملاً تماماً. ذكر لزوجته اسمي أصحاب المصنع، وأخبرها خلال حديثه أين يقطن الرجلين مع عائلتيهما. كان هذا هو كل ما تحتاجه ليشتعل غضبها نحوهما. لم يكن هو مهتماً بالأمر على الإطلاق. فمثل هذه الأمور تحدث دائماً، والناس يتناسونها، ويواصلون حياتهم. هذا هو حال الدنيا على الدوام. لكن تلك المرأة الشيطانية، ما زالت رغم مرور تلك الأعوام تحمل في داخلها حقداً كبيراً تجاه من اضطروا لإنهاء عقد زوجها كعامل لديهم. ما هذا الجنون؟ إنها لا تتوقف عن سبّ الرجلين أمام الجميع. وأنت تعلم جيداً أنهما من الشخصيات البارزة والمؤثرة في "أمريتسار"؛ ومن تكون هي؟! لا أحد! تصرفاتها رعاء وغير مسؤولة. كان عليها، على الأقل، أن تفكر في مصلحة زوجها، أليس كذلك؟ أعني أن الجميع يعلم أنه ليس في مصلحة السمكة الصغيرة معاداة التمساخ، طالما أنها تعيش معه في المياه نفسها. ولكن من يستطيع إفهام تلك المرأة هذه النقطة؟ إنها مختلة عقلياً، كما أنها لا تتوقف عن شرب الخمر. يا للعار!! الأمر بأكمله شديد الوطأة على نفس "تشاندر". الرب وحده يعلم أي حماقات أخرى ترتكبها حين تثمل.

أنصت "رامتشاند" في صمت. فكر فيها. في المرأة ذات "الساوي" البنفسجي، بعظامها

الناتئة، وعينيها الخاويتين.

و لأول مرة، يشعر باشمئزاز شديد من نفسه. من تعامله العادي مع مسز "جوبتا"، ومن حرصه على حضور عرس "رينا كابور"، ومن سعادته لاهتمامها به. اشمئزاز من كونه مَن هو.



في الأيام التالية لهذا الحديث، أصبح "رامتشاند" أكثر انزعاجاً مما كان عليه. تسرب إلى قلبه إحساس دائم بأن كل ما حوله خاطئ. شعور مزعج، لا يهدأ أبداً. وفي بعض الأحيان، يشعر بالذنب الشديد. ربما كان عليه أن يتكلم. أن يكشف السر. لكن، لماذا لم تفعل زوجة "تشاندر" ذلك بنفسها؟ ربما أرادت أن تبقى الموضوع طَيِّ الكتمان. في هذه الحالة، عليه هو أيضاً أن يحافظ على السر، ويبقى صامتاً.

انعدمت شهيته تماماً. في بعض الأحيان، سببت له رائحة الطعام حالة من الغثيان. رافقه إحساس دائم بالقذارة، حتى بعد أن يستحم بالصابون جيداً، ويلبس ثياباً نظيفة. صار يشعر بالمرارة في فمه، طوال الوقت. أصبح يشرب كميات أكبر من الشاي، ولم يعد يتحدث إلى أحد إلا فيما ندر. حين يخاطبه أحد، يصغي إليه صامتاً.

كما فقد رغبته الجنسية في "سودها". وفي غيرها أيضاً؛ فكلما أغمض عينيه وحاول الاستسلام لخيالاته المحمومة المعتادة، ومداعبة جسده، علّه يتخلص من كآبته. هاجمته صورة واحدة: بقع القياء اليابسة على بلوزة "كاملا"، والدم الجاف على ثوبها البنفسجي. بعدها يشعر بأن دموعه الحبيسة توشك على حرق عينيه، ويفقد رغبته تماماً.

في أحد الأيام، شاهد مذعورًا مسز "جوبتا" وهي تدخل الدكان، ومعها - كالعادة - مسز "ساندو". كان الجميع مشغولين بخدمة الزبونات عداه و"جوكل".
لم يرغب "رامتشاند" في خدمة مسز "جوبتا"، فقام بهدوء وانزوى في أحد الأركان، متمنيًا ألا يلاحظه أحد.

جلست المرأتان أمام "جوكل"، الذي قدم لهما أفضل ابتساماته.

قالت مسز "جوبتا":

- يا إلهي! الجو حار جدًّا.

أخرجت من حقيبة يدها منديلًا ورديًا معطرًا، بأطراف محلاة بالدانتيل، مسحت العرق عن وجهها بحرص شديد، وبخاصة حول شفيتها المصبوغتين. ربّتت بالمنديل حول عينيها بحركات خفيفة، حتى لا يفسد خطوط الكحل السائل المحيطة بهما.

تحولت بشرة مسز "ساندو" البيضاء إلى اللون الأحمر. حركت طرف وشاحها الأزرق

المطرز، أمام وجهها كمروحة. سألهما "جوكل" بتهديب بالغ:

- هل تسمحان لي بتقديم بعض الماء لكما؟

هتفت مسز "جوبتا" من فورها:

- كلاً.. كلاً! هاك..

أخرجت من شنطتها ورقة من فئة العشرة روبيات، وناولتها لـ"جوكل"، وقالت:

- أرسل أحدًا يشتري لنا زجاجة مياه معدنية. باردة. ماركة "بيسليري" فقط.. انتبه!
أشار "جوكل" لـ "هاري"، الذي كان قد انتهى للتو من بيع "ساري" لسيدة نحيفة، عصبية المزاج. اقترب "هاري" بسرور وخيلاء، لأنه قام أخيرًا ببيع "ساري" بمفرده، دون أن يساعده أحد زملائه.

ناوله "جوكل" الورقة المالية، وكرر على مسامعه تعليمات السيدة، ثم أضاف هامسًا:
- وعد فورًا. خلال دقيقة واحدة. لا تقم باللهو في الطرقات، ولا تذهب لشراء "الباكورا" المقلية.

قال "هاري" بمسكنة:

- ومنذ متى أتصرف أنا بهذه الطريقة يا أخي "جوكل"؟

أضاف مسرعًا:

- ربما يعني فعلت ذلك مرة أو مرتين. لكنني كفتت عن هذه التصرفات منذ زمن بعيد.

دعني أؤكد لك أنني أصبحت مثلًا يحتذى به في النشاط، لعلك لم تلاحظ ذلك مع إنني...

قاطعته "جوكل" بصبر نافذ:

- اخرس! لا داعي لهذه التمثيلية الآن. اذهب حالاً ونفذ ما قلته لك.

التفت إلى السيدتين وهو يتتسم ابتسامة عريضة. قالت مسر "جوبتا":

- أحضر لنا بعض "السواري" الصيفية الخفيفة، على ألا تكون من النوع الذي يتجدد بسهولة.

أضافت مسز "ساندو":

- نريدها قطنية. أفضل وأجود المنسوجات القطنية.

أوماً "جوكل" في طاعة، وأشار إلى "تشاندر" الذي كان مشغولاً مع زبونة لحوحة، تساومه على سعر "ساري" مطرز الحواف. فهم "تشاندر" المطلوب، رغم انهاكه في الردّ على المرأة؛ مدّ يده إلى الرف وراءه، وأخرج بضعة "سواري" مطوية بعناية ومحفوظة داخل أكياس بلاستيكية شفافة. ألقاها الواحد يلو الآخر باتجاه زميله الأكبر سنّاً، بمنتهى المهارة، فوق رؤوس السيدات. تلقفها "جوكل" بأيدي خبيرة. أخرج كل "ساري" من كيسه، وهو يعدّد مزاياه.

عاد "هاري" بزجاجة الماء المعدني المثلج. ظلّ "رامتشاندر" جالساً في الركن، يراقب ما يحدث بصمت، وهو يفكر بزوجة "تشاندر".

هل يعلم "تشاندر" ما حدث بالضبط؟ هل يخبره؟ هل يسأله إن كان يعرف أم لا؟ ولكن كيف يحدث الرجل في موضوع خاص وحميم يتعلق بامرأته؟

نظر إلى وجه مسز "جوبتا" المفعم بالحيوية، وهي تثرثر. هل يخبرها هي؟ ما هو التصرف الأمثل؟

تنهّد في أسي، ضم ركبتيه إلى صدره وأحنى رأسه عليهما. أحس برغبة في البكاء، في النحيب بصوت عالٍ، حتى يجتمع حوله كل من في الدكان، وعندها سيخبرهم بالموضوع كما حدث. لا شك أن هناك شخصاً ما يمكنه فعل شيء.

هل حقًا سيهتهم أحد بما جرى؟

ظَلَّ "رامتشاند" جالسًا على الفرشة، غارسًا أصابع قدميه العشرة في إسفنجها اللين.

- "رامتشاند!"

أفاق من شروده على الصوت المفزع الذي ينادي اسمه. رفع رأسه.

وقف "مهاجان" أمامه كعملاق بالغ الضخامة.

- ما هذا؟ المتجر ممتلئ بالزبونات، والجميع منشغل في خدمتهن على قدم وساق، وأنت

تجلس هنا مسترخيًا! هل تظن نفسك في حديقة "كومباني باغ" مثلًا؟!

- سيدي.. أنا..

- حسنًا.. حسنًا.. لا أرغب في سماع أعذارك المعتادة. إن لم يكن لديك ما تفعله، فعلى

الأقل قم وساعد "جوكل".

استدار "مهاجان" فجأة، وغادر المكان. راقب "رامتشاند" ظهره المترهل، وغمرته موجة

جديدة من الكراهية نحوه.

كان على وشك الذهاب إلى حيث يجلس "جوكل" حين دخلت مسز "بنداري" مع مسز

"ساتشديفا". بدا الأمر كحلم. يتذكر يومًا مماثلًا. هل كان ذلك ظهرًا أم صباحًا؟ كان شتاءً.

حضرت نفس السيدات الأربع إلى الدكان، في ذات اليوم، وقام هو بخدمتهن جميعًا.

أحس بقدر ضئيل من الارتياح، فعلى الأقل هو غير مضطر لخدمة مسز "جوبتا" اليوم. اقترب من الوافدين الجديدين، وهو يرسم على وجهه ابتسامة مغتصبة. لم تنظرا إليه. طافتا بأعينهما على كافة الرفوف، قبل أن تجلسا أمامه وهما تتهاامسان؛ على عكس مسز "جوبتا" ومسز "ساندو" اللتين كانتا تتبادلان الحديث بصوت مرتفع ومزعج، يمكن سماعه من أي ركن في المتجر.

قالت مسز "ساتشديفا":

- أرنا بعض "السواري" المطبوعة بطريقة "الباتيك".

أوماً وهو يقوم ليحضر ما طلب منه. تحاشى أن يطلب من "هاري" - الأقرب لرف المنسوجات المطبوعة - شيئاً، حتى لا يضطر لتحمل ابتساماته ودعاياته وصخبه.

بحث قليلاً في محتويات الرف. فيما انتظرت المرأتان. نظر إليه "شيام" نظرة ذات مغزى، مصحوبة بتعبيرات وجه مكفهرة، حتى يذكره بأن ترك الزبونات في حالة انتظار أمر غير مسموح به، على الإطلاق. سياسة الدكان هي إغراقهن بأصناف وألوان عديدة من المنسوجات، حتى يضطرن إلى الشراء، ولو كان ذلك لمجرد التخلص من الموقف.

فهم "رامتشان" النظرة، فسحب عدة أكياس من "السواري" المطوية، وعاد إلى مكانه مسرعاً.

بدأت المرأتان بالطقوس المعتادة. تحسستا الأقمشة بأطراف أصابعهن. تبادلتا بعض التعليقات الهادئة، بأصوات تكاد تكون غير مسموعة. تفحصتا

حواف كل "ساري" بدقة بالغة. لم يقل "رامتشانند" الكثير، ولم يحاول لفت أنظارهما إلى مميزات أي "ساري". جلس صامتًا، يناولهما قطعة تلو الأخرى.

نظر إليه "شيام" مرة أخرى. علا العبوس وجهه، ورفع حاجبيه متسائلًا.

في غياب "مهاجان"، يعتبر "شيام" و"راجيش" نفسيهما مديري المتجر في الأوقات التي لا يكونان فيها يشربان الشاي أو يدخان السجائر.

تعهد "رامتشانند" ألا ينظر إليه، وأشاح بوجهه عنه. حاول أن يحافظ على هدوئه.

تناولت مسز "ساتشديفا" "ساري" بني اللون، وقالت لرفيقتها بشيء من الامتعاض:

- انظري.. إنه مثالي، لولا هذه الحواف العريضة جدًا. أليس كذلك؟

تذكر "رامتشانند" اليوم الذي جلس فيه في منزل عائلة "كابور"، شركاء "جوبتا" في المصنع.

هؤلاء الذين لم يعطوا "تشاندر" أجره لثلاثة أشهر متعاقبة. هم من فجروا غضب زوجته بتلك

الطريقة.

انتزعه صوت مسز "ساتشديفا" من أفكاره، كانت تسأله بحدة بالغة:

- هل سمعت ما قلته لك؟ سألتك إن كان لديكم قماش مماثل، اللون نفسه والتصميم

ذاته، ولكن بحواف أقل عرضًا.

هزّ "رامتشانند" رأسه. نظرت إليه بضيق بالغ.

تمعن في التجاعيد التي تعلو جبهتها. ترى ماذا ستقول حين تعرف بالأمر؟ إنها سيدة متعلمة ومثقفة. ثم عبرت رأسه فكرة أخرى: هل تعرف "رينا كابور" أن والدها لا يدفع رواتب العاملين لديه، في بعض الأحيان على الأقل؟

هل يخبر هذه السيدة بتفاصيل ما حدث؟ لكنه متشكك في جدوى ذلك. من سيصدق؟ فبالنسبة لمسز "ساتشديفا" فإن "رافيندر كابور" هو الأب المثالي لتلميذتها النجبية.

أحس بألم شديد بين عينيه، فضغط على تلك المنطقة بإصبعيه. لقد أصبح كل شيء مظلمًا ومشوشًا، فجأة. ماذا يفعل؟ كيف يتصرف؟

"راجيش" وجّه بدوره نظرات مؤنبة لـ"رامتشانند". أحس الأخير نحوه بموجة غامرة من الكراهية. ما هو إلا رجل ثرثار. يتكلم، ويتكلم، ويتكلم. دون أن يتوقف للحظة ليفكر فيما يقوله.

حاول "رامتشانند" أن يتمالك أعصابه، وأن يكون أكثر انتباهًا في تعامله مع السيدتين الجالستين في مواجهته. أخرج المزيد من "السواري".

هتفت مسز "جوبتا" فجأة:

- أوه! هيللو مسز "بنداري"!

رفعت الأخرى رأسها، متظاهرةً بالدهشة:

- آه! هيللو! لم أرك حين دخلت. هنا للتسوق؟

فكر "رامتشانند": "يا للسخافة!!... ما هذا السؤال؟ كل النساء في الدكان جئن ليتسوقن

ويشترين ثيابًا جديدة بالطبع".

قالت مسز "جوبتا" وهي تشير بأصابعها تجاه رفيقتها:

- هل تعرفين مسز "ساندو"؟ زوجها هو كبير المهندسين في مجلس إدارة شركة الكهرباء.

أجابتها مسز "بنداري" بعدم اهتمام ملحوظ:

- أوه.. جيد.

ثم أضافت:

- ولا شك أنك تعرفين مسز "ساتشديفا"، رئيسة قسم اللغة الإنجليزية في...

قاطعتها الأخرى بابتسامة مفتعلة:

- آه.. نعم بالطبع. أتذكرها. لقد تقابلنا جميعًا في الحفل الذي أقامه "رافيندر كابور"

بمناسبة زفاف ابنته، أليس كذلك؟

علقت مسز "ساتشديفا" مصححة:

- لكن تلك الفتاة تملك من الذكاء والتميز ما يجعل جميع الناس يعرفونها على الفور إن

ذكرت اسمها كما هو "رينا كابور". لقد خلقت لنفسها شخصية ناجحة ومستقلة، تجعل

الناس بغنى عن تعريفها بـ"ابنة رافيندر كابور".

استسلم الجميع لصمت منزعج للحظات، قطعته مسز "بنداري" حين قالت:

- وكيف حالك يا مسز "جوبتا"؟ ما أخبارك؟ كيف زوجة ابنك؟ "شيبرا" كما أظن؟!

ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتي مسز "جوبتا" وقالت بسرور:

- بل "شيلبا". الربّ كريم. كريم جدًّا جدًّا. فلنمسك الخشب! إنها حامل. في الشهر الثالث.

ابتسم الجميع عند سماع الخبر السعيد. قالت مسز "بنداري":

- عظيم.. مبارك. إذًا ننتظر منك حفلًا كبيرًا لهذه المناسبة السارة، وليكن ذلك بعد قدوم

المولود بالسلامة.

- نعم.. نعم. بالطبع. إنها فتاة لطيفة جدًّا. هادئة الطباع، وبالغة التهذيب. والعمل داخل

مصنع ابني "تارون" يسير بنجاح، نشكر الربّ. وابني الأصغر يتصل بنا أسبوعيًّا من أمريكا.

حدّقت بها مسز "ساتشديفا" لوهلة، ثم حولت نظرها إلى "الساري" المفروود أمامها،

وقالت بصوت يقترب من الهمس: "جميل جدًّا". ابتسمت مسز "جوبتا" بسرور.

التفتت مسز "بنداري" إلى مسز "ساندو"، وسألتها بصوت ودود:

- وكيف حال أولادك؟

أجابتها بتمهّل وبنبرات هادئة:

- إنهما بخير. ابني الأكبر "مانو".. اسمه "مانديب" على فكرة، ولكننا نناديه "مانو"، انتهى

من أداء امتحاناته. سيلتحق بكلية الطب، في جامعة "أمريتسار". وأخيرًا، يمكنني الآن

استخدام الخلاط الكهربائي والمطحنة وغسالة الملابس، دون قلق من أن ينزعج من أصواتها.

الفضل للربّ طبعًا.

- نعم، الشهادات الجامعية في غاية الأهمية هذه الأيام. ابنتي "روزي" تدرس في "دهلي" لنيل شهادة الماجستير. حاولت إقناعها بأن تقدم أطروحتها في الجامعة هنا، دون فائدة. أصرت على الذهاب إلى "دهلي". هناك عروض زواج كثيرة تقدم إلينا، للاقتران بها، لكنها تؤكد أنها ليست مستعدة نفسياً للزواج الآن. تردد بأن الحياة لا تنحصر في الزواج والمال.

أطلقت مسز "جوبتا" تهيدة ساخرة. قالت رفيقتها بعض التحفظ، وهي تبسم بلطف:
- ولكن، صدقيني، شباب هذه الأيام يريدون كل شيء. ومهما أنكروا وكابروا، فإنهم جميعاً يسعون وراء المال. ابني الأصغر، الطالب في الصف العاشر، لديه طلبات كثيرة لا حصر لها. وآخر ما يلح في طلبه هذه الأيام هو دراجة بخارية! كيف يتعامل الأهل مع ذلك؟
علقت مسز "جوبتا":

- لكننا لا نقلل سوءاً عنهم، أليس كذلك؟
أضفت ضاحكة:

- منذ بضعة أيام، ابتعت فرن ميكروويف. وهأنذا الآن أفكر في شراء وحدة شواء كبيرة، من النوع الذي يستخدم في الحدائق المنزلية.
قالت مسز "ساندو" باستسلام:

- ماذا نفعل؟ لا يمكن حل هذه المشكلة. كلنا بحاجة للمال، على الدوام، مهما ادعينا

عكس ذلك!

قالت مسز "ساتشديفا" بنبرات رصيئة:

- هذا صحيح. للمال أهمية كبرى في حياتنا، وبخاصة للحفاظ على مستوى معين من أسلوب المعيشة. ولكن هذا لا ينفي أن هناك أمورًا أخرى، لها الأهمية نفسها في الحياة. ودعوني أضرب مثلاً هو "رينا كابور". لا شيء ينقص هذه الفتاة. تمتلك الثروة، والجمال، والأصل العريق؛ لكنها حرصت، مع ذلك، على خلق شخصية متميزة من نفسها عبر تأليف رواية ناجحة، جعلت لها بصمة في عالم الأدب.

نظرت إليهما وسألتهما:

- هل قرأتما كتابها؟

هزتا رأسيهما نافيتين، وتساءلت مسز "جوبتا" ببعض التهكم:

- ومن يملك الوقت لقراءة الأعمال الأدبية؟! بالنسبة لك، الأمر جزءٌ من مهنتك. لكننا، وغيرنا، مشغولات بإدارة منازلنا ومتطلباتها التي لا تنتهي، كما تعرفين.

تكهرب الجو. وعمّ الصمت للحظات. قطعتة مسز "ساتشديفا" بسؤال وجهته لمسز

"جوبتا"، بأسلوب بالغ اللطف:

- زوجة ابنك صغيرة في السن، أليس كذلك؟

- نعم، عمرها إحدى وعشرون سنة.

- صحيح؟ وماذا فعلت حتى الآن؟

أجابت السيدة الأخرى بارتباك ملحوظ:

- ماذا تعنين؟ لم أفهم السؤال.

- أعني، ماذا حققت؟ ما مؤهلاتها الدراسية؟

- كانت في بداية دراستها الجامعية، لكنها لم تكمل. أعني تمّ الاتفاق على الزواج..

وهكذا...

قاطعتها مسز "ساتشديفا" ببرود:

- أوه..

ثم التزمت الصمت.

ظهر الانزعاج على وجه مسز "جوبتا"، لكنها سرعان ما تماكنت أعصابها، وقالت:

-على أي حال، إنها تعرف جيداً ما يجدر بها معرفته. ليست من الفتيات اللاتي

يعرفن أسماء جميع عواصم العالم، لكنهن يجهلن أنواع البقوليات المختلفة التي

يأكلنها!

علقت مسز "بنداري" من فورها:

- وما الذي يمنع أن تكون الفتاة على دراية بالأميرين معاً؟ "روزي" حبيبتي طباحة

ماهرة، وطالبة متفوقة في الوقت نفسه. كم اشتقت إليها!

قالت مسز "ساندو" بتعاطف:

- بالتأكيد. لا شك أن غيابها عنك، يسبب لك الحزن، وبخاصة أنها وحيدتك.

أضافت بعد برهة:

- أنا محظوظة لأن الولدين يطيعانني دائماً.. أعني.. أغلب الأحيان.

خلال هذا الحوار، جلس "جوكل" و"رامتشاند" يغالبان الإرهاق والإحساس بالعجز. راقبا

السيدات الأربع، وتابعا حوارهن، في انتظار أن يتذكرن السواري المفرودة أمامهن.

كثيراً ما يتكرر هذا الموقف في الدكان، حيث تلتقي الزبونات بنساء من معارفهن،

فينغمسن في تبادل أحاديث مختلفة، فيما ينتظر البائعون انتهاءهن. ليس هناك ما يمكن

فعله في مثل هذه المواقف.

في جلسته الصبورة، سرح "جوكل" بخياله، وهو يفكر ويحاول التوصل لقرار بشأن موقد

الغاز الذي تطالب به "لاكشمي" منذ شهرين، بإلحاح وغضب شديدين. هل يشتريه لها أم لا؟

بينما استغرق "رامتشاند" في الإنصات إليهن، بمنتهى الحرص. بدا الكلام سخيماً، وتعجب

من تفاهة الحياة التي يعشنها. تذكّر عبارة كتاب التعبير: "لكلّ عملة وجهان".

لم يكن في حياتهن متسعٌ لزوجة "تشاندر".

حملق فيهن.

أحس بفراغ، في المكان الذي كان ينبغي أن يمتلئ بالتفهم والمعرفة. ثم هاجمه ألمٌ عاجز

في قلبه أو في الجانب الأيسر من صدره، حيث يفترض أن يقع قلبه.

فجأة، التقطت نظرات مسز "بنداري" عيني "جوكل"، ثم نظرت إلى الساري البني الذي كانت قد وضعتة فوق ساقها. ضحكت قائلة:

- انظرن إلى حالنا!! لقد نسينا عملية التسوق تمامًا!

قالت مسز "ساندو" بضحكة مماثلة:

- وهو أمر نادر الحدوث!

واصلن عملية الشراء. انتهت مسز "ساتشديفا" ومسز "بنداري" من خطوة اتخاذ القرار. اختارت كل منهما "ساري" واحدًا برسوم "الباتيك" التقليدية. أحدهما بنفسجي فاتح، والآخر أزرق سماوي؛ وخلال ذلك عاودتا التهامس. قالت مسز "ساتشديفا" باستياء:

- هؤلاء النسوة!! كلهن سواء. لا شيء داخل تلك الرؤوس سوى المال والتفاهات. لماذا

ينبغي علينا أن نبادلهن الحديث، في الأساس؟

لم ينجح "رامتشاندي" في التقاط كل ما أجابت به مسز "بنداري". لكنه سمع العبارة الأخيرة

فقط:

-.. ففي نهاية الأمر، نحن نعيش معهن في المدينة ذاتها. نلتقي بهن مصادفة، في أوقات

كثيرة. علينا أن نتعامل معهن بشكل يتسم بالرقي والتحضر.

أومأت مسز "ساتشديفا" باستسلام، وأشارت إلى "رامتشاندي" أن يضع لهما "السارين" في

كيسين.

قبل أن تغادرا المتجر، لوحتا بأيديهما للمرأتين الأخريين، وخرجتا مبتسمتين. وعلى الفور،

التفتت مسز "جوبتا" لمسز "ساندو" قائلة بانزعاج شديد:

- يا لهاتين المخلوقتين! لا أجد سببًا لهذا الغرور والتعالي اللذين تتعاملان بهما مع الناس. مسز "سانشديفا" هذه مجرد امرأة عاقر، وزوجها ليس أكثر من أستاذ جامعي مثلها تمامًا، لا أدري في أي جامعة. أعني أنها ليست ذات قيمة. وتلك الأخرى. مسز "بنداري"! صحيح أن زوجها نائب المفتش العام للشرطة، لكن ابنتهما "روزي" التي لا تتوقف عن التباهي بها على الدوام في حوالي السابعة والعشرين، كما أظن، ولم تتزوج بعد!! وتظل الأم تتحدث عن "الخطاب الكثيرين" و"عروض الزواج الممتازة"! لا شيء من ذلك صحيح طبعًا. ولذلك أرسلتها إلى "دلهي"، لتنال المزيد من الشهادات عديمة الجدوى. وتصعد رؤوسنا بدرجات ابنتها العلمية! ومع ذلك تمتلكان الجرأة والوقاحة للتحدث معنا وعنا بهذه الطريقة السخيفة!

أضافت بغضب:

- حين فشل الثعلب في الحصول على العنب.. قال إنه حصرم!

حافظت مسز "ساندو" على هدوئها المعتاد، وقالت:

- لا بأس. كل هذا لا يهم. ما لنا نحن وطريقة تفكيرهما أو كليهما؟ إنهما تشعران بالغيظ. علينا أن نشكر الرب على جميع نعمه علينا، وأن لا نلتفت لأي أمر آخر. غادرتا الدكان بعد قليل، وكل منهما تحمل "ساري" باهظ الثمن، بدلًا من "السواري" القطنية التي أتيت لشرائها في الأساس. اختارت مسز "جوبتا" "الساري" نفسه الذي أثار إعجاب طالبات كلية البنات قبل بضعة أيام، بنسبجه بالغ الرقة؛ فيما اختارت مسز "ساندو" واحدًا وريديًا مُزيّنًا بخيوط فضية وذهبية.

ما إن خرجتا، حتى زفر "جوكل" بضيق، وقال:

- يا للكائنات المزعجة!! ما هذا الصداق؟ إن لم يتباهين بمنزلهن الفخمة، تحدثن عن

أزواجهن. إن لم يكن الكلام عن الأزواج الرائعين، فعن الأبناء الأكثر روعة!

التفت إلى "رامتشان" وسأله فجأة:

- هل تظن أن شراء موقد غاز حديث، أمرٌ صائب؟

أجابه بصوت يكاد لا يسمع:

- لا أعرف شيئاً عن مواقد الغاز الحديثة يا أخي "جوكل". أنا أستخدم واحداً يعمل

بالكروسين.

طارده صور موقد الكروسين، و"الساري" البنفسجي بوروده البيضاء. تلك الورود. سارع

بالتوجه إلى الحمام الصغير الملاصق للمخزن العلوي، وأقفل بابه، ثم انخرط في البكاء بحرقة.

حين هدأ قليلاً، مسح وجهه بمنديله، وخرج ليجلس في مكانه المعتاد.





أخيراً، اتخذ "رامتشاند" قراره. سيقوم بذلك. أحس بأنه أهم قرار في حياته. لم يعد يتحمل زيف شخصيته أكثر من ذلك. قرّر - وهو من يشعر بالارتباك حين يعرض الأقمشة الجميلة على الزبونات - أن يستجمع شجاعته الأدبية، وينتزعها من زوايا عقله وروحه، ليقوم بما يتوجب عليه فعله. سينتظر أقرب فرصة تزور فيها مسز "ساتشديفا" بصحبة مسز "بنداري" الدكّان. الأولى سيدة متعلمة ومثقفة جدّاً، والثانية زوجة نائب المفتش العام للشرطة. والأهم، أنهما امرأتان. هذا كفيل بأن تتفهما الموضوع.

تغيّر شكله كثيراً، في الآونة الأخيرة، وصار يسير كما لو كان مريضاً. بعينين غائرتين، ونظرات زائغة، وجسد هزيل. نتأت عظام كتفيه من قمصانه القطنية الخفيفة.

بعد اتخاذ القرار، جاءت مرحلة الانتظار.

فخلال الأيام التالية، شعر "رامتشاند" بالفزع كلما فتح الباب الزجاجي في الطابق العلوي. ينظر بقلق ليرى من سيدخل منه، وقد تسارعت دقات قلبه. وعندما يدرك أنهن زبونات أخريات، ولسن مسز "ساتشديفا" أو مسز "بنداري"، يشعر بشيء من الارتياح. مرت أيام كثيرة دون أن تأتي إحداهما. توقع

"رامتشانند" ظهورهما في أي وقت، فكلتاها من الزبائن الداهمين للدكان، وقد سمع مسز "ساتشديفا" تقول لصديقتها - أكثر من مرة - إنه من غير الممكن ارتداء الملابس بشكل متكرر في مثل كليتها المرموقة، التي تدرّس بها يوميًا.

في أحد الأيام، نظر عبر شباك الدكان إلى بائع الفاكهة في الشارع وهو يشعر بقلق بالغ؛ كان الرجل يقوم بإصلاح عجلة عربته الخشبية، فيما أحس هو بالتوتر خشية أن تتدحرج أكوام البرتقال المرصوصة عليها.

فجأة، سمع صرير الباب وهو يُفتح. التفت بقوة. رآها هناك. مسز "ساتشديفا". ولكن دون رفيقتها المعتادة مسز "بنداري".

أحس بالارتباك. كان يرغب في التحدث إليهما معًا. تمالك نفسه بسرعة. رآها تتجه نحو "تشاندر"، فهتف على الفور:

- تفضلي يا سيدي.. تفضلي بالجلوس ها هنا. ما نوع "الساري" الذي تبحثين عنه؟
اتجهت صوبه وجلست أمامه. أخرجت من شنطة يدها كيسًا صغيرًا من المخمل. فتحته بحرص، وأخرجت طقمًا من الذهب متقن الصنع، مكوّن من عقد دقيق، وقرطين مماثلين له.
أرتهم لـ "رامتشانند" وهي تشير إلى الفصوص الخضراء الصغيرة التي تزينها، وقالت:
- انظر.. مثل هذه الفصوص بالضبط. درجة اللون نفسها. أريده من "الشفون" الجيد. لا يهم إن كان القماش منقوشًا أم لا. المهم ألا تكون حوافه بألوان فاقعة.

أوماً "رامتشانند" بعدم تركيز. حمل بعض "السواري" ذات اللون الأخضر، ثم قال لها:
- هلا تكرمتِ بالجلوس بجوار النافذة؟ ستمكين من مقارنة ألوان الأقمشة بالفصوص
بشكل أفضل في نور الشمس. يصعب فعل ذلك تحت الإضاءة الكهربائية.

بدت سعيدة لاهتمامه بهذه التفاصيل. اتجهت نحو الشباك، ولحقها وهو يحمل بين
ذراعيه الكثير من "السواري" بدرجات متعددة من الأخضر. جلس في مواجهتها. هنا، لن
يستطيع أي أحد أن يسمع ما يقولانه.

أطبقت شفيتها في تركيز، وظهرت التجاعيد على جبهتها، وهي تتفحص كل "ساري" جيداً،
وتحول نظراتها بين لونه ولون الفصوص، عدة مرات.

هذه هي اللحظة المناسبة.

تسارعت دقات قلبه، وتلاحقت أنفاسه في اضطراب. لكنه لن يتهرب هذه المرة.. فعليه
أن يفعل شيئاً.

قال بصوت مختنق:

- سيدتي.. أريد أن أتحدث معك في أمر معين.

ظهرت الصدمة على وجهها. أضاف:

- أمر مهم للغاية.

سألته بارتياح:

- ما هو؟

قال وهو يشير إلى "تشاندر":

- هل ترين ذلك الرجل؟ في أقصى القاعة.

- لا أرى أي رجل هنا.

- أعني البائع يا سيدتي. ذاك الطويل.

- آه.. البائع! نعم. ماذا به؟

- اسمه "تشاندر". أردت أن أخبركِ شيئاً يتعلق بزوجته.

نظرت إليه كما لو كان مجنوناً.

لكنه تجاهل نظراتها، وتكلم. تلعثم قليلاً.. وارتبك في بعض المواقع، لكنه حافظ على

ترتيب أفكاره. احمرّت أذناه تمامًا، لكن قلبه امتلأ بشجاعة لم يعرفها أبدًا. قصّ على مسز

"ساتشديفا" القصة الرهيبة، الكريهة، بأكملها. ملأ فراغ المواضع الناقصة بعبارات تكمل

الصورة.

حملقت فيه مسز "ساتشديفا" بصمت تام.

بعد أن بدأت في استيعاب ما يقول، تحركت الخطوط العميقة التي تغطي وجهها، كماءٍ

راكد ألقى فيه حجر. حاولت أن تقاطعه، إلا أنه رفع يده محاولاً أن يكون حازماً وقويًا، وقال:

- دعيني أكمل.. أرجوك.

واصل كلامه، ومع مرور كل لحظة، كان انزعاج مسز "ساتشديفا" يتفاقم. لمح "رامتشاندا" دموعها الحبيسة.

مع نهاية القصة، أحس بإرهاق شديد، ولم يستغرب الاضطراب الذي علا وجهه مسز "ساتشديفا". لو تعرّض هو نفسه لهذا الموقف، وحكى له أحدهم مثل هذه القصة، لانزعج أيضاً. لكنه لم يكن أبداً مستعداً للغضب العارم الذي اندفع تجاهه منها، وقد احمرّ وجهها من الغيظ الهائل الذي شعرت به. قالت بحدّة، بصوت كالفحيح:

- كيف تجرؤ؟ بياع مثلك يجرجرني إلى هذا الركن القصي ليخبرني حكايات قدرة عن نوع

منحط من النسوة اللاتي يخالطن!!

حاول أن يتكلم، لكنها قاطعته على الفور:

- أفراد عائلة "جوبتا" أشخاص في غاية الاحترام، وهم أصدقاء عائلة "كابور" التي لا تقل

عنهم احتراماً. هل تعني ما تقول أساساً؟ وهل تملك دليلاً واحداً على ما تفوهت به للتو؟

ولماذا تخبرني أنا تحديداً؟ ما شأني بهذه القصص الحقيرة؟!

جعلها السخط تتلعثم وتُتأتئ، وبدت على وشك البكاء.

- سيدتي.. اسمعيني من فضلك. ربما لم تكن عائلة "جوبتا" تعلم أن كل هذا سيحدث

للمرأة المسكينة، حين أبلغوا الشرطة عنها. لكنني أؤكد لك بأن الشرطين...

قالت بصوت هامس وهي تكثرُ فكيتها:

- اخرس!

كانت تخشى أن يسمع من في المتجر حديثهما. أضافت:

- لا أود سماع هذه البذاءات المنحطة، مرة أخرى. هل فهمت؟! لماذا تزعجني بحكاية

مثل هذه؟ الأمر لا يعنيني بأي حالٍ من الأحوال.

أعقبت باستنكار ودهشة، كأنها تحدث نفسها:

- ويقول لي هذا الكلام باللغة الهندية!!!

أجابها بياس:

- قصصت الأمر عليكِ لأنكِ سيدة محترمة، ذات شأن؛ ولأنكِ صديقة مسز "بنداري"، وهي

متزوجة من....

قاطعته بغلظة:

- آه.. هكذا إذًا! تقومون بأفعال مخجلة ومُزرية، ثم تحاولون توريث الأشخاص المحترمين

في تفاصيلها القذرة؟!

أضافت مهددة:

- سأقول لك أمرًا واحدًا فقط، فاستمع إليّ جيدًا. إن كررت فعلتك هذه مرة أخرى،

فسوف أضطر لإبلاغ مدير الدكان، وقد تخسر وظيفتك جراء ذلك. هل فهمت؟

أعدت مجوهراتها إلي الكيس المخملي بعناية، وأزاحت "السواري" الخضراء من على

ركبتها، وخرجت من الدكان مسرعة وهي تخشى أن تخذلها ساقاها.



مرّ شهران. حلّ يوليو، لكن "أمريتسار" ظلّت جافة ومليئة بالغبار. تأخرت الأمطار الموسمية. في صباح أحد الأيام شديدة الحرارة، سعد "رامتشانند" السُّلم الخشبي، ودفع الباب الزجاجي الكبير، ودخل. فوجئ برؤية الجميع يقفون في دائرة صغيرة وهم يتهامسون، وقد ظهر عليهم الوجوم. بدا "شيام" مستغرقاً في التفكير، فيما ظل "راجيش" يومئ برأسه موافقاً على كل ما يقوله "مهاجان". استسلم "جوكل" للصمت وهو ينصت لـ"هارى" الذي كان يهمس في أذنه.

لم يهتم أحد بفتح النوافذ، ما جعل المكان حاراً وخانقاً. لاحظ "رامتشانند" غياب "تشاندر". غلبه الخوف. خشي أن يرسله "مهاجان" لتلك الحارات الضيقة، ليحضره. قرّر وقد تملكه الرعب أن يرفض، مهما كلفه الأمر. لن يذهب إلى ذلك البيت مرّة أخرى. سيّدعي أنه يعاني من ألم شديد في رأسه. سيقول إنه مريض، وأنه سيعود إلى مسكنه لينال قسطاً من الراحة.

لكن أحداً لم يوجه له الكلام، وظلوا واقفين يتبادلون الكلام بأصوات غير واضحة. أشار له "جوكل" بالاقتراب. دنا منهم ببطء، وقد استبدّ به الهلع. سأل زميله:

- ماذا حدث؟ لماذا يتحدث "مهاجان" بهذه الجديّة؟ وأين "تشاندر"؟ هل تمّ فصله من وظيفته؟

أسكته "جوكل":

- اهدأ.. "تشاندر" بخير. لكن زوجته. تتذكرها. أليس كذلك؟ "كاملا"؟ كنت قد حدثتك عنها.

انتظر "رامتشانند" في سكون..

تدخل "مهاجان" مستكماً حديث "جوكل":

- لقد قُتلت مساء أمس، ولذلك فإن "تشاندر" سيتغيب عن العمل اليوم.

همس "رامتشاند":

- ماذا؟!

أحسّ بدوار شديد:

- لكن، من الذي قتلها؟

لم يجبه أحد، إذ انهمك "جوكل" في تبادل الهمسات مع "هاري".

لم يستوعب عقله ما سمعه. جذب طرف كمّ "جوكل" بإلحاح:

- هل "تشاندر" هو من... أعني.. من الذي قتلها؟

أحسّ بسخافته. ها هو يتكلم بشكل منطقي في أمر كهذا، ويسأل أسئلة عقلانية.

- كلاً.. لم يقتلها "تشاندر". انتظر. سأفرغ لك حالاً.. وأخبرك كل شيء.

بدا لـ"رامتشاند" أن شعر "جوكل" اليوم خفيف أكثر من المعتاد، وأنه أكثر بياضاً.

في تلك اللحظة، دخلت سيدة ممتلئة الجسد، ومعها زوجة ابنها التي تماثلها في الحجم.

طلبتا "سواري" قطنية مزركشة. تعامل معهما "جوكل" بمودة ولطف وتهذيب، أكثر بكثير مما

هو معتاد. أوماً له "مهاجان" برأسه إعجاباً بسلوكه في الاهتمام بهما، ونزل إلى الطابق السفلي

راضياً.

حين هدأ سيل الزبونات في الدَّكان، مع اقتراب الظهيرة، قام "جوكل"

بإخبار "رامتشاند" بما حدث. وفقاً لحكايته، فإن "كاملا" واصلت تصرفاتها

الطائشة حتى النهاية. شربت إلى أن ثملت تمامًا، وأصبحت في حالٍ مُزرية، ثم توجهت إلى منزل "كابور" شخصيًا، هذه المرة.

هناك، وقفت أمام البوابة، تصيح بأعلى صوتها. وحين خرج لها السائق والبستاني وبقية الخدم ليمنعوها من مواصلة ذلك السلوك، ويبعدها عن المكان، قامت بتوجيه السباب لهم. ثم أطلقت المزيد من الشتائم لعائلة "كابور". توقفت المارة، ليستطلعوا الأمر. صار الأمر محرّجًا جدًّا، واضطر "رافيندر كابور" لأن يخرج إليها بنفسه. وما إن لمحته، حتى تناولت حجرًا وقذفته به. أصابه الحجر في جبينه، وأحدثت أطرافه المدببة جرحًا عميقًا في رأس الرجل، الذي راح ينزف. تساقطت قطرات الدماء على قميصه الحريري الأبيض. وقف دون حراك، وقد ألجمته المفاجأة.

في تلك اللحظة، كان مصيرها قد تقرر. خرج الأمر عن السيطرة، ولم يعد بإمكان "رافيندر كابور" أن يظهر أي قدر من التسامح. أصبح الموضوع متعلّقًا بكرامته، وصورته في عيون المجتمع. كيف يترك امرأة سوقية مثلها، تواصل حياتها دون عقاب يناسب الجرم الذي ارتكبه؟ نعم، يتلخص الأمر برمته في كرامة هذا الرجل، وشرفه الذي أهين.

حدث كل ذلك صباح الأمس. في السابعة مساءً، اقتحم أربعة رجال مسكن "تشاندر". كانت "كامالا" في البيت بمفردها، في ذلك الوقت. أمسك بها واحد منهم، فيما تفرغ الثلاثة الباقون لتحطيم كل ما في البيت، بما في ذلك جرّة الماء الفخارية. قاموا بإلقاء أدوات المطبخ خارج المنزل، وأفرغوا محتويات برطمانات الأرز والعدس في مقلب القمامة القريب من هناك. كسروا باب البيت، وهشموا زجاج النافذة، والمصباح الكهربائي الوحيد؛ ثم قاموا بسكب الكيروسين الذي كان بداخل

موقد الطهي في أنحاء المكان. تجمع عدد كبير من الناس لرؤية ما يحدث، لكن أحدًا منهم لم يجرؤ على الاعتراض. واصل الرجال الأربعة مهمتهم، بطريقة آلية، دون أي مشاعر. وخلال عشر دقائق فقط، كانوا قد قضاوا تمامًا على كل ما في ذلك المسكن المتهالك الذي لم تشهد جدرانها سوى البؤس والشقاء.

ثم تفرغوا لضرب "كاملاً".

كسروا الترقوة، وركلوها بقوة إلى أن كسروا لها ضلعين. قذفوها بقوة إلى الحائط، فشج رأسها من الخلف، وتركت دماؤها أثرًا يشبه الجرس، على الجدار ذي اللون الحائل.

ثم قيدوا يديها خلف ظهرها، وجروها إلى الخارج، وطافوا بها في الحي، ليعرف الجميع المصير الوحيد الذي ينتظر من يتخطى حدوده.

وحين خارت قواها تمامًا، أعادوها إلى بيتها، وأغرقوا المكان بالمزيد من الكيروسين، ثم أشعلوا فيه النار.

حين عاد "تشاندر" إلى منزله، عقب خروجه من الدكان، لم يجد سوى بقايا زوجته المتفحمة.



كانت قصة قصيرة ومختصرة، كمشهد مبتذل في فيلم هندي رخيص.

حكاية صغيرة، يمكن سردها في كلمات معدودة.

لكن الكلمات هاجمت "رامتشنند" مرة واثنين، وثلاثًا؛ كالأمواج التي تستمر في العودة..

لتنحطم على الشاطئ.

لَفَّ السكون أرجاء المتجر. اهتزَّ الرماد على طرف عود البخور. حاولت ذبابة حبيسة أن تطير خارج النافذة المغلقة. تحول الناس إلى أصنام. الزقاق في الخارج، استحال إلى صورة فوتوغرافية مثبتة داخل الإطار الخشبي للشباك. ليس حقيقيًا. كصورة الكوخ المعلقة في حجرته منذ انتقاله إليها. الكلام فقط هو الذي تغيَّر. بدلًا من "بيتك.. أينما يكون قلبك"، أصبح "ولداي الصغيران.. لقد ربطوا أيديهما خلف ظهريهما مستخدمين العمائم التي كانا يلبسانها.. بقايا زوجته المتفحمة.. في تلك اللحظة كان مصيرها قد تقرر".

أدارت الصدمة رأسه لنحو نصف ساعة، بعد سماعه القصة. أعاد سردها على نفسه. اختلطت الجُمَل بعبارات قديمة في عقله. لاحظ بصعوبة أن الباقي كانوا لا يزالون يتبادلون تفاصيل الحكاية بأصوات هامسة.

ثم رأى وجه "هاري" وهو يبتسم ابتسامة ماكرة، أعقبها بالقول: "هل تعرفون ما سمعته أنا؟ لست متأكدًا يعني.. ولكن يقال - كما أخبرني شخص من تلك المنطقة - بأنهم قبل أن يحرقوها، قاموا بجرجرتها في الطرقات وهي عارية تمامًا".

ثم ألقى برأسه للخلف، مطلقًا قهقهة رنانة. لمعت أسنانه المنتظمة. بدا فمه من الداخل وريدًا للغاية.

بعد ثوانٍ معدودة من ضحكة "هاري"، تعجب الجميع من الصوت الذي أصدره "رامتشان".. نصف شهيق ونصف صرخة. ثم التفت تجاه الباب، وأسرع خارجًا من الدكان. سمعوا وقع أقدامه على السُّلم الخشبي، وعلى عتبة الدكان. أعقب ذلك صمت مطبق.

"هاري" يضحك!

"هاري" يضحك!

سيطرت هذه الفكرة على عقل "رامتشانند" المصدوم. "هاري" المرح، الذي لا يعرف معنى الهمّ.. يضحك. صديقه يضحك. حين خرج "رامتشانند" بخطواته المسرعة من "سيفاك - بيت الساري" وهو يكاد لا يبصر شيئاً أمامه، سيطرت عليه فكرة واحدة فقط. لن يعود لهذا المكان أبداً. وقف في الشارع، تحت اللافتة التي تعلو الدكان. يتحرك الناس من حوله. مئات البشر يطوفون في الطرقات. غرباء بوجوه جامدة. لا يمكن أبداً تخمين ما يدور خلف تلك الملامح العادية.. الطبيعية. كان يتنفس بصعوبة، لكنه لم يبطئ من خطواته. تدافع وسط الناس المتزاحمين، منكبيه. هذا هو اسمها إذًا.. "كاملا". لم يكن يعرفه حتى اليوم.

حين وصل إلى أول الزقاق الذي يقع فيه الدكان، بدأ العرق الغزير يتصبّب منه. أراد أن يبتعد.. بعيداً عن الجوّ الخانق داخل الدكان.. بعيداً عن "هاري" الضاحك.. "هاري" غريب الأطوار.

تباطأ قليلاً حين خرج من الزقاق. لم يعرف ماذا يفعل. منعه عواطفه المتضاربة من العودة إلى حجرته.

شعر بأحاسيس قوية. خوف غير عقلائي، وغضب غير مألوف. ملأت تلك الأحاسيس قلبه وعقله، وغطت لسانه. مشاعر قوية ولاذعة.. خلّفت طعمًا معدنيًا في فمه. احتلت مكان الارتباك والاعتراب اللذين شعر بهما طوال عمره تجاه حياته، وتجاه العالم من حوله.

طاف في السوق بلا هدف.. باحثًا عن شيء يصب عليه غضبه. لأول مرة في حياته، يشعر برغبة عارمة في التشاجر مع أحد؛ وفي الوقت ذاته أحس بشيء من الحنان والعطف، والرغبة في حماية كل الضعفاء. امتلأ بالقوة.

نظر إليه كلب ضال.. أجرب، نظرة توحى بأنه يفهمه جيدًا. ملأت القاذورات التي خلفتها عربات الخضراوات أنحاء الشارع.

حاول "رامتشان" أن يمنع نفسه من البكاء. يكره أن يبكي أمام أي شخص.

مرت ساعة. واصل طوافه في الطرقات بطاقة مكبوتة، داخل كل خلية من خلايا جسده. لم يعد باستطاعته السيطرة على قدميه، كانتا تسيران وفق هواهما. أخذتاه إلى نفس الشوارع والمعابد والحوانيت.. مرات عديدة.

ثم وقع نظره على مكان مألوف. مطعم "لاكان"، بمدخله الذي يعج بالناس، والروائح المتداخلة للـ"باكورا" الساخنة والخبز الطازج، ورائحة الشاي الدافئ الذي يبعث الراحة في النفس. الشخصان الوحيدان اللذان يفتقدان راحة النفس في هذا المكان هما الرجل ذاته وزوجته. عصفت موجة من التعاطف الشديد بقلب "رامتشان" المرتبك، حيال الرجل السيخي الطويل وزوجته المستسلمة لأحزانها.

اندفع داخل المطعم، وهو لا يزال يلهث، ويشعر بأن مخه يوشك على الانفجار داخل رأسه.

بحث عن "لاكان"، لكنه لم يجده. رأى رجلين يغمسان قطعًا من الخبز في صحن عدس، وأمامهما أطباق أخرى من الخضراوات المطبوخة. يقوم على خدمتهما رجل شاب من مساعدي "لاكان" الجدد. لم يكن في القاعة الداخلية

للمطعم أشخاص آخرون، عدا الفتى المنهمك في غسل الأكواب. اقترب منه "رامتشاند" وسأله عن مكان "لاكان". أشار الفتى بذراعه المغطاة برغوة الصابون، قائلاً إنه في منزله خلف المطعم. ودون أن يستأذن "رامتشاند" من أحد، سار باتجاه الباب الخلفي. دخل منه، فوجد نفسه في غرفة صغيرة، جلست فيها امرأة نحيلة سمراء، بشعر أشيب، تحصي أوراقاً نقدية أمامها. كانت تلبس ثوباً قصيراً وسروالاً بنقوش متناهية الصغر باللون الأخضر، وتضع على رأسها وشاحاً رمادياً، لا يتناسب مع ثيابها؛ وتضع في أذنيها قرطين كبيرين على شكل حلقة مفرغة.. ذلك النوع الذي تلبسه كل امرأة في عمرها وطبقتها الاجتماعية. بدا أنها تضعهما منذ أعوام عديدة، إذ تحول ثقبا أذنيها إلى خطين طوليين.

و لأنها امرأة عملية بطبيعتها، فإنها لا تكلّ أبداً من محاولة إعادة النظام إلى حياتها التي غمرتها فجأة سيول الفوضى والألم، عبر القيام بعدّ الدخل اليومي للمطعم. وعبر شراء حبات بصل متماثلة الحجم تماماً من سوق الجملة. وعبر الحفاظ على البيت الذي يسوده الصمت والكآبة في حالة نظافة دائمة. بالغ اللمعان والترتيب.

في بعض الأحيان، يشعر "لاكان" بالإجهاد من أسلوبها في المحافظة على النظام.

جلس "لاكان" على كرسي خشبي قصير، دون ظهر، على مقربة منها، يسجل الحسابات في دفتر سميك. الأثاث في الغرفة قليل ومحدود. منضدة، وبضعة مقاعد خشبية، وأريكة عريضة مغطاة بمفرش سرير مطرز، لونه أزرق.

علقت على الجدار صورة لـ"جورو نانك"، يظهر فيها بقسمات مريحة ولحية بيضاء. على الحائط المواجه له، صورتان فوتوغرافيتان مكبرتان لشابين أقرب في عمرهما للمراهقة. أحدهما ينظر للكاميرا، ويتسمم ابتسامة عريضة،

مرتديًا عمامة كحلية وقيميصًا مبربعات من اللونين الأزرق والأبيض. يستند بجسده الطويل، الرشيق، إلى جذع شجرة.

الشاب الآخر، في الصورة الثانية، أصغر سنًا. له وجه متجهم، وعمامة مائلة، كأنه تعلم ارتدائها منذ فترة قريبة.

كلتا الصورتين مؤطرة، ومحاطة بعقود نضرة من الزهور الصفراء.

تفاجأ العجوزان باقتحام "رامتشانند" لمسكنهما، وشعرا ببعض الغضب، لكن قبل أن يتمكننا من قول شيء، عاجلها "رامتشانند" بالقول:

- أتيت فقط لأقول إنني أشعر بالأسف بشأن ابنيكما. ما كان ينبغي أن يحدث ذلك.

أعقب كلامه صمت وذهول.

نظرا إليه بدهشة بالغة. وجه إليهما - بدوره - نظرات لا تخلو من الجنون. كان العرق قد جعل خصلات شعره تلتصق في مجموعات متفرقة. اغرورقت عيناه بالدموع.

في مثل هذا الموقف، كان يجب أن يشعر بالسخف. إلا أنه أحس بكثير من الراحة.

كسر الصمت صوت بدأ ضعيفًا، ثم تحول إلى نحيب عميق. انخرطت المرأة في البكاء. أحاط زوجها كتفيها بذراعه محاولًا تهدئتها.

نظر "رامتشانند" إلى الصورتين مرة أخرى، وأحس بغضب شديد. يا له من ظلم متواصل! يا

لها من طريقة ملتوية للحياة! كل شيء يسير بطريقة خاطئة في هذه الدنيا!

أحس بالشجاعة والقوة والقدرة على فعل أي شيء، والدخول في صراع مع أي أحد لتحقيق العدالة، والوصول إلى الحقيقة.

قال بالباح:

- لم أحضر لأضايقكما بأي شكل. لا تقلقا. سأفعل شيئاً حتماً. لا يمكن أن تستمر هذه الأمور في الحدوث. كل شيء سيتغير في يوم من الأيام.

أضاف مؤكداً:

- سأفعل شيئاً.

هدأت زوجة "لاكان" قليلاً، وإن ظلت الدموع تنسكب من عينيها طوال مدة زيارة "رامتشان" لهما. لم يقل العجوزان الكثير. ظلا ينظران إليه في حزن، بأعين متعبة. قامت زوجة "لاكان" بعد قليل، وهي تمسح دموعها بطرف وشاحها، وعادت بكوب من الحليب لضيفهما. خلال ذلك، جلس "لاكان سنج" و"رامتشان" في صمت. أنهى "رامتشان" كوب الحليب وغادر بعد لحظات، وهو لا يزال يوزع بينهما نظراته الزائغة.

جلس العجوزان عقب ذلك في صمت حائر مرتبك. ثم تنهد "لاكان" بعمق، وعاد لتدوين حساباته في دفتر الكبير، إلا أن زوجته لم تستطع مواصلة عدّ النقود. أمضت بقية اليوم جالسة دون أن تفعل شيئاً، وقد وضعت يديها في حجرها.



حين استطاع "تشاندر" المذعور أن ينتشل بضع حاجات من بقايا الحريق الذي دمر مسكنه، وجد صندوق "كاملا" المصنوع من الصفيح.

فتحه، فوجد فيه - ضمن أشياء أخرى - فستانين. أحدهما وردي، والآخر مبرعات من اللونين الأحمر والأزرق. كما وجد عقدًا من الخرز الزجاجي الأحمر، ملفوفًا بعناية فائقة داخل "إيشارب" من الحرير الصيني. كما رأى دبوس مشبك مستوردًا. أحس بدهشة عظيمة. لم يكن يعرف أن "كاملا" تمتلك هذه الأشياء، عديمة الفائدة. تساءل عن سرّ احتفاظها بها..





الكابوس مستمر. جاء ليبقى..

هو نفس الشخص، يعود إلى حجرته القديمة بجدرانها ذات الطلاء المتقشر. الحارات نفسها، الناس نفسهم.. لكن كل شيء تحوّل فجأة إلى أمر مزعج للغاية. الوجوه المألوفة صارت ملامحها شريرة وسيئة النية. يلقون برؤوسهم للخلف، ويطلقون قهقهات مرتفعة لأي سبب. هو وحده الطبيعي. هل هو كذلك فعلاً؟ أم أنه هو الذي تحوّل و صار مجنوناً؟

أحس "رامتشانند" فجأة بأن هناك من يلاحقه. حين التفت وراءه بغتة، بسرعة فائقة وجدته شخصاً غريباً. من يكون؟ رmqه بريية. انزعج الرجل من هذه النظرات، وتجاوزته بخطواتٍ متعجلة. تسارعت خطوات "رامتشانند" أيضاً، و قد غمره مزيج من الغضب العارم والخوف.

لأول مرة في حياته يشعر بحالة صفاء تسود عقله. بدأ ينظر متمعناً إلى ما كان يتمنى - على الدوام - أن يلقي عليه نظرة خاطفة، لكن هذا لم يمنحه الراحة. تذكّر "كاملا" مرة أخرى. كل تفاصيل الوقت الذي قضاه جالساً بجوارها في ذلك المسكن القذر. المكان الذي عاشت بين جدرانها المسودة، ومقد

الكيروسين، السقف المنخفض، الصندوق الصفيح، الساري البنفسجي ووروده الكبيرة،
والعينان.. لن ينسأهما أبدًا.

بدأ يركض. التفت الناس نحوه في دهشة، لكنه لم يهتم. كانت ضحكة "هاري" لا تزال
تتردد في أذنيه. أخذ يركض، ويركض، تحركه تلك الضحكة، وتلاحقه في إلحاح. وصل لمسكنه.
ركض صاعدًا السلم المظلم. فور دخوله الحجرة، أقفل بابها بالقفل والمفتاح اللذين
يستعملهما لإغلاقها من الخارج حين يذهب للعمل.

أدرك "رامتشانند" لماذا يحتاج لأن يحبس نفسه داخل الحجرة، لأول مرة في حياته يفهم أن
الضعف هو الذي يجعل الناس أقوىاء، أمًا القوة فتضعفك؛ ولهذا أحس في أول لحظات القوة
والفهم الواضح التي خبرها للمرة الأولى، بالعجز التام.

حين ثبَّت القفل الحديدي الكبير في الباب، انقطع التيار الكهربائي. غرقت الحجرة في
ظلام دامس. شعر برعبٍ شديدٍ، لم يعرف مثله قط، حتى في طفولته.

تحسس طريقه نحو الشباك المطل على الشارع، وفتحه. كان كل ما في الخارج مظلمًا. لم
يكن التيار الكهربائي مقطوعًا عن الحي فقط، فقد امتد الظلام على مدى البصر، دون نقطة
مضيئة واحدة. ظهرت أضواء الشموع في عدة أماكن، أشعلها أناسٌ يعيشون بارتياحٍ داخل
بيوتهم الآمنة، محاطين بأسرهم، تحركهم العادات والتقاليد، وترشدهم توجيهات كبار العائلة.
لمح لهب الشموع المتراقص خلف الستائر الخفيفة. تحركت ظلال بعض الأشخاص وراء
النوافذ. نبج كلبٌ في مكانٍ ما.

استدار وفتح الشباك الثاني. رأى أن "سودها" قد أشعلت شمعتين، واحدة في المطبخ،

والأخرى في غرفة الجلوس.

قبل أن يشعل واحدة، هاجمته نوبة فزع. جلس على حافة السريره وهو يرتجف بشدة.

حاصره الظلام. لم يستطع التنفس. لا اسم له. لا لغة له. لا يعرف أين يعيش، ولا لماذا. تزايد ارتجافه، لكنه كان مصحوبًا بغضبٍ شديدٍ هذه المرة. فاضت زوايا الحجرة الضيقة بالرعب. أحس بانعدام الوقت. لا يعرف أي شيء. يعرف كل شيء. لم تدّر هذه الأفكار في رأسه فقط، بل سرت داخل جسده كله، كرعشةٍ قوية. خطرت له فكرة لا علاقة لها بأي شيء.. "لا يمكنك إبقاء الشياطين خارجًا، فهم يضعون أقدامهم على عتبة بابك". سمع صوت عجلات دراجة، يجرها شخص في الشارع. سمع وقع أقدام خفيفة. أثارت هذه الأصوات أعصابه، أحس بخوف. أصبح مجنونًا. نعم، هو مجنون. لا يوجد تفسير آخر.

ركض إلى الحمام. تقيأ. مرة، ثم مرة أخرى بعد خمس دقائق. كان قد أكل القليل من الطعام، لكنه شرب كميات كبيرة من الشاي، الذي راح يندفع من فمه في سيولٍ بنية حامضة الطعم. غسل وجهه وعاد إلى حجرته في الظلام. لم يبحث عن الشمعة، ولا عن علبة الكبريت. في طريقه لفراشه، تعثر وسقط. أصدرت عظامه صوتًا عاليًا عند ارتطامها بالأرض. ظل في مكانه ولم يتحرك. كوّر جسده، وتقيأ مرة أخرى. قيء قليل هذه المرة. انسكب المزيد من الشاي على الأرض. سالت الدموع على وجهه. أراد أن يصرخ بقوة، بأعلى صوت، لكنه لم يقدر. لا يستطيع. لا يمكنك أن تصرخ هكذا في الظلام، في حجرتك، دون سبب حقيقي. لا يمكنك حتى أن تبكي.

كتبه، دفتره، قاموس "أوكسفورد"، كلها في أماكنها على الرف العلوي. الشحاذ الهندي، الشرطي، "فيليس"، "بيجي"، "طيور البطريق"، "جواهر لال نهرو" (قائدي المفضّل).. كانوا جميعًا ينظرون إليه شرًّا من على الرف.

ظل متكورًا على الأرض، مستسلمًا للبكاء، طوال الليل. لم ينم إلا مع اقتراب الصباح، من فرط الإرهاق. في نومه المضطرب، حلم "رامتشانند" حلمًا مشرقًا، كله أضواء وأنوار وظلال وظلام وألوان، وكل واحد منها في مكانه الصحيح. رأى أنه في الدكان، وقت الغروب. كان بمفرده تمامًا، تحيطه السواري، والصمت. كان هناك ظلال وخيالات تتحرك وراءه، لكنه كلما التفت ليراه، اختفت على الفور، مهما أسرع بالالتفات. كانت أسرع منه دومًا. تسربت أشياء صغيرة، حادة، غير مرئية، من الفراش الأبيض الذي يجلس عليه في الدكان، وزحفت على جسده. لم تعضه أو تؤذي، لكنه شعر بها وبالتصاقها على جلده. لم يعرف ماذا تكون. ثم بدأت السواري تتحرك وتفرّد نفسها وترفرف حوله. سرعان ما امتلأت الغرفة بصوت رفرقتها وحركاتها المتطايرة. كانت بعض السواري طويلة جدًا. أطول بكثير من أي ساري في الحقيقة. طارت حوله، ولفت نفسها حول رقبته، حتى كاد أن يختنق. طار قماش كحلي اللون أمام النافذة، كأنه ستارة. كان يخلو من أي زركشة أو تطريز. بدا كعمامةٍ جديدةٍ، ثم طار ساري أخضر فاقع من على الرف باتجاهه - أخضر فاقع، بلون الببغاوات، كالذي فشل مرة في بيعه لـ"مسز بنداري" راقبه وهو يقترب منه، ثم حط على رأسه، وأحاط به كالكنف. التفت حافته السوداء على وجهه وخنفته.

وطوال الحلم، لاحقته عينا امرأة ميتة.



في اليوم التالي، استيقظ من النوم وقد تملكه غضب هائل. لم يشعر بذلك بعد استيقاظه، وإنما أحس به لحظة صحوه تمامًا، وهو مستلقٍ على الأرض الصلبة؛ وبه رغبة شديدة في أن يضرب أحدًا. إحساس لم يعرفه "رامتشان" أبدًا. عليه أن يعتاد عليه، كما يعتاد الإنسان على ارتداء قميص جديد من القطن القاسي، المنشئ.

لم يذهب إلى العمل. ظل يقطع الحجرة بخطواته، وقد استبد الارتباك بعقله. كان يركل الجدران بين الحين والآخر. إحدى ركلاته القوية تسببت في تساقط بعض الطلاء المتقشر في سقف الغرفة السفلية. هب صاحب البيت واقفًا وهو يصيح:

- "رامتشان! اند!"

فتح "رامتشان" الشباك، نظر إلى الأسفل، ولأول مرة في حياته تحدث بصوت مرتفع. صاح

في الرجل:

- اخرس!

ثم بصق عليه مظهرًا ازدراءه.

لمح "سودها"، التي رفعت رأسها ورمقته بعينين مندهشتين. وقفت في الحوش تحمل صحنًا من البازلاء المقشرة بين يديها. كانت تلبس ساري جميل متعدد الألوان، عليه رسوم لزهور.

أغلق الشباك بعنف. لم يأكل شيئًا طوال النهار، ولم يشرب كوب شاي واحد. ابتلع كميات من الماء، بجرعاتٍ كبيرة، و ظل يشعر بالانزعاج.

عند الخامسة مساءً، ارتدى ثيابه ببطء، ثم خرج. سار باتجاه الدكان بخطواتٍ بطيئة، متمهلة، خفيفة، كأنه فهد يوشك على الانقضاض على فريسته.

حين وصل إلى هناك، كان "مهاجان" هو أول من رآه. قال مؤنبًا:

- أه! أخيرًا؟! ماذا حدث لك؟ هل فقدت عقلك تمامًا يا "رامتشاند"؟ دعني أخبرك إبدأ أنه

لو استمر الوضع على هذه الحال...

قاطعهُ "رامتشاند" بنبرات هادئة:

- تظن نفسك ذكيًا، أليس كذلك يا "مهاجان"؟

قال "مهاجان" بارتباك واضح، وقد عصفت به الصدمة:

- ماذا؟! كيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه الطريقة أصلًا؟

بجهدٍ ملحوظ، ظل "رامتشاند" محتفظًا بقبضتيه المكورتين إلى جانبه، دون أن يرفعهما.

أجاب متحدثًا:

- هكذا! أجرؤ لأنني أجرؤ!. وعلى كل حال أنت لست إلهًا.

أوشك "مهاجان" على تعنيفه، لكنه لم يفعل. الموقف بأكمله غير مألوف، لأن "رامتشاند"

شاب هادئ بطبعه، ومطيع على الدوام. تراجع قليلًا، شاعرًا بالحيرة. أمرٌ ما ليس على ما

يرام. "رامتشاند" في حالة غريبة. فكّر "مهاجان" في أن يذهب ليأتي بـ"جوكل". علاقة الاثنين

ببعضهما طيبة، والشاب يُظهر قدرًا ملحوظًا من الاحترام لزميله الأكبر سنًا، لكن وجود زبائن

في الدور العلوي منعه من الإقدام على هذه الخطوة. عليه أن يتعامل مع الموقف بحكمةٍ

أكبر. لكن لا مناص من إحضار "جوكل"، فهذا هو الحل الأسلم. لا يمكن فهم الجيل الجديد.

يمكن أن يتحولوا إلى كائنات شرسة في بعض الأحيان.

حين تكلم، أخيراً، فعل ذلك بصوت قوي يوحي بالسيطرة المعتادة، ولا ينبىء عن الخوف الذي بداخله:

- انتظري هنا. سأرجع حالاً.

أسرع "مهاجان" بصعود السلم. ما الذي حلَّ بـ"رامتشاند"؟

توجَّه إلى حيث يجلس "جوكل". مال عليه ليهمس في أذنه. فتح "رامتشاند" الباب الزجاجي، ودخل. زفر "مهاجان" في انزعاجٍ بالغ. وقف "رامتشاند" في منتصف المكان وهو يحملق في "مهاجان" غاضبًا. تعمَّد أن يطقطق أصابعه بحركات بطيئة للغاية. نظر إليه "مهاجان" في ذهول. ظهر القلق على وجه "جوكل". لم يلحظ الآخرون ما يحدث.

نظر "رامتشاند" حوله، وهو لا يزال يطقطق أصابعه. استقرت نظراته على "تشاندر"، الذي جلس يتبادل حديثًا ضاحكًا مع "هاري". استغرق الاثنان في الضحك، وأشاحا بصرهما عنه. حوَّل نظره إلى الكرسي الوحيد في القاعة، والمخصص للزبونات المسنات اللواتي تمنعهن آلام المفاصل من الجلوس على الأرض. التقطه "رامتشاند"، ورفعَه فوق رأسه، ثم حذفه - بمنتهى القوة - على "هاري" و"تشاندر". صرخا وهبًا واقفين على الفور. توقفت أصوات الزثررة التي كانت تملأ المكان. استدارت جميع الرؤوس تجاه "رامتشاند". قامت أغلب السيدات من أماكنهن ووقفن خائفات، استعدادًا للمغادرة في اللحظة التي سيندلع فيها القتال المتبادل بين البائعين.

قال "مهاجان" بشيء من اللطف:

- "رامتشاند" .. اهدأ يا بني.

لم يستطع "رامتشاند" أن يتحمل صوته اللزج. كان كل ما يرغب فيه في تلك اللحظة هو الضرب.

الضرب والتكسير، والتحطيم والتخريب. وقف يوزع عليهم نظرات غاضبة من عينيه الحمراوين.

همس "جوكل" لمديره:

- إنه مُل.

صاح "رامتشاند" بغیظ، محذراً:

- يمكنني سماعك يا "جوكل"!

كلما طال وقوفه هناك، ارتفع صوته وازداد حدة. بدأت بعض السيدات في مغادرة الدكان بهدوء. بقيت أخريات، يتنازعهن الخوف من جهة، والرغبة في اقتناء السواري الجميلة التي اخترنها بالفعل، من جهةٍ أخرى. حين رأى "مهاجان" النساء وهن يخرجن من الأبواب، استبدَّ به غضب عارم.. الزبونات يغادرن المحل بهذه الطريقة؟! ما الذي سيقوله "بيمسن ست" حين يسمع بذلك؟

استعاد سطوته المعتادة، وقال بحزم:

- "رامتشاند".. اخرج من هنا حالاً، حتى لا تضطرنني لاتخاذ إجراءات أخرى.

قام "رامتشاند" بما لم يتوقعه أحد.

فجأة، اندفع للأمام، وأمسك بياقة "مهاجان" وأخذ يهزه في غضب. صدم "مهاجان" وجحظت عيناه، فيما ترنح جسده بين يدي "رامتشاند"، الذي صاح:

- أغلق فمك هذا، واخرس، وإلا قطعت لسانك!

في تلك اللحظة، تدافعت الزيونات خارج الدكان، وقد نسين السواري البديعة التي تعلقت بها أفئدتهم. وخلال دقيقة واحدة، خلا المكان إلا من البائعين فقط. كان "رامتشاندر" لا يزال يقبض بأصابعه ياقة مديره. تقدّم "هاري" و"تشاندر" للتدخل وتهدئة الموقف. حمل وجهاهما سمت الجدّية، إلا أن أعينهما لمعت بالإثارة والتشوق. وضع "هاري" ذراعه حول "رامتشاندر". التفت إليه الأخير وحاول أن يطبق يديه حول رقبته، وهو ينتفض كالمجنون للتخلص من الذراع المحيطة به. صاح:

- وأنت يا "هاري"! لا تضحك. إياك أن تضحك أبداً.. أبداً.. هل تفهم؟! أقسم بكل إله أعرفه لو أنني رأيتك تضحك مرة أخرى لحطمت جميع أسنانك.
مدّ "جوكل"، هذه المرة، ذراعه.. فدفعها بعيداً عنه. دنا منه "تشاندر" محاولاً الإمساك به.
صرخ هازئاً:

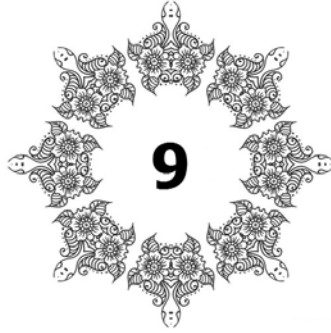
- أوه!.. انظروا! "تشاندر" صار قوياً الآن، أليس كذلك؟! لو أنك تمتلك قلباً، أو شيئاً من الشجاعة، أو حتى بعض الإيمان، لما جلست هكذا تتبادل الثرثرة والنميمة مع من حولك كما لو كنت امرأة عجوزاً.

ثم بصق "رامتشاندر".

استقرت البصقة على سطح ساري فيروزي، بخيوطٍ من الفضة الخالصة، كانت إحدى السيدات اللواتي لذن بالفرار منذ قليل توشك على شرائه.

لمعت البصقة على التطريز الفضي بالغ الرقة.

حرّر "رامتشاندر" ذراعه، وخرج راکضاً من الدكان، دون أن يلتفت ورائه، ولو مرة.



عاد "رامتشاندا" إلى حجرته، وقد بدأ يشعر بالقليل من التعفُّل، عقب ذلك المشهد الذي قام به في الدكان.

بدأت السماء تمطر. حلت الأمطار الموسمية أخيراً.

رفع الناس أبصارهم إلى السماء في سعادة. صعد "رامتشاندا" السلم في كآبة، ودلف إلى حجرته. توجّه إلى الشباك الخلفي على الفور، وفتحته. نظر إلى الحوش. رأى "سودها" وهي تجمع الملابس المنشورة على الجبال، في سرعة. كانت تلبس ثوبًا وسرولاً من اللون الأزرق. زُينت الحواف السفلية للثوب الضيق بالـ"دانتييل". صنعت حبّات المطر بقعاً صغيرة داكنة على سطح القماش، بدت من بعيد كطلقات رصاص تخترق الفستان. تبلبل شعرها. تطايرت أطراف وشاحها في الهواء.

هدأ "رامتشاندا" قليلاً عند رؤيتها.

على أي حال، سرعان ما تبين أن قطرات المطر تلك لم تكن سوى إشعاراً كاذب، فقد سطعت الشمس فجأة، باعثة حرارتها وقسوتها في كل مكان،

واختفت الغيوم القليلة المتناثرة في السماء.

لم تكن هذه بداية الأمطار الموسمية.

عادت "سودها" بكومة الملابس الرطبة، وأعدت نشرها على الحبال، وقد تعكر مزاجها

بعض الشيء.

أحس "رامتشاند" أن مخه يوشك على الانفجار داخل جمجمته. مسح بعض المرهم

المسكّن على جبينه، واستلقى على فراشه. تصاعدت أبخرة المرهم النفاذة إلى عينيه وأحرقت

جفنيه.

أمضى "رامتشاند" الأيام الاثني عشر التالية، على هذا الحال. محبوبًا في حجرته. أيام

غريبة، اصطدم خلالها بحالة من الفراغ الأجوّف، وتلاشى كل الغضب الذي شعر به سابقًا. لا

غضب، لا قلق، لا سعادة، لا طموح، لا رغبة، لا أسى. لا شيء. أحس بالخواء.

لم يخرج ولا مرة. مطلقًا. انقطعت صلته بالعالم الخارجي. لم يهتم بحساب الأيام، ولا

معرفة الليل من النهار. أمضى كل وقته مستلقيًا على السرير، أو جالسًا بمحاذاة النافذة دون

أن يهتم بفتحها. لم يكن يفكر في أي شيء على الإطلاق.

لم يتناول الكثير من وجباته. يتذكر الأكل حين يقرصه الجوع فقط، وحتى حينها.. لم يكن

يطهو الكثير؛ يسلق القليل من الأرز، ويتناوله مع كميات كبيرة من قطع المانجو المخل، التي

صار يأكلها من البرطمان مباشرةً. في بعض الأحيان، كان يمشي الخطوات القليلة التي تفصله

عن الموقد، وهو يشعر بدوارٍ شديد، ليعد لنفسه بعض الشاي الثقيل، الذي يشربه دون

حليب، عقب تناوله لطعامه مباشرة.

عادةً، بعد هذه الوجبات، يشعر بعدم ارتياح في معدته، أو بالحموضة والمغص.

فقد القدرة على معرفة الأيام والتواريخ. لم يعد ينظف أسنانه، أو يخلق ذقنه. مرات استحمامه المتباعدة، تمت بواسطة ماء بارد، لم يهتم بتدفنته مسبقًا. نبتت في ذقنه شعيرات حادة، وأصبح شعره لزجًا و دهنيًا، والتصق بفروة رأسه التي أصبح يشعر فيها بحكة دائمة. طالت أطراف قدميه، واخشن سطحها. لم يلمس كتبه أو دفتريه. لم يأت أحد لزيارته. غطى الغبار جميع الأسطح في حجرتي.. الأرض، الطاولة، الرفوف، أغطية البرطمانات، المرأة، الصندوق المعدني، مجموعة الكتب المصفوفة بترتيب.

راقب عنكبوتًا تصنع بيتًا بين المنضدة والجدار. تابعها، بلا أدنى اهتمام، وهي تغزل بيتها بهمة ونشاط؛ أمّا هو فقد راقبته سحلية من مكانها على الجدار، بعينين ثابتتين. لم تكن تتحرك، إلا إن رأّت حشرة في المكان.

أصبحت الأيام شديدة الحرارة، حتى أن الصهد كان ينبعث من أرضية الحجر. تكرر انقطاع الكهرباء عدّة مرات. لكن "رامتشاند" لم يغادر فراشه ليفتح النافذة أو يشعل شمعة خلال أي من تلك المرات. كان يواصل الاستلقاء حتى بعد عودة الكهرباء، التي عادةً ما تكون ضعيف، تتحرك معها المروحة بالكاد. في بعض الليالي، ينير المصباح الوحيد، فينبعث في الحجر ضوء خافت جدًّا. أما حين لا يهتم بإضاءته، تغرق الحجر في ظلام حالك، وتبدو كالكهف. خلال الليالي الهادئة، يمكنه سماع أصوات الفئران في المكان.

أصبح هواء الحجر عطًا. وكبطنية ثقيلة، غطت الحرارة والغبار أرجاء الغرفة. وبقي "رامتشاند" مستلقًا، مستسلمًا لثقلها عليه.

في اليوم الثالث عشر، استيقظ من نومه شاعرًا ببرد ورعشة في جسده. تساءل في حيرة:

"هل أعاني من الحمى؟".

كانت هذه أول جملة منطقية، ذات معنى، تخطر على باله منذ اثني عشر يومًا.

كيف يمكنه أن يشعر بالبرودة في يوليو؟ هذا شهر يوليو، أليس كذلك؟

أحس بالخوف. غادر الفراش.

كم الساعة الآن؟ أي شهر من السنة؟ أين كان خلال الفترة الماضية؟ ما الذي كان يفعله؟

وكم مضى عليه وهو على هذا الحال ؟

لماذا يشعر بالبرد؟ كان الجو حارًا حتى الأمس.

أحس "رامتشانند" بحيرةٍ شديدة وارتباك تام.

قام واقفًا، وسار بحذر تجاه النافذة. فتحها بأصابع متيبسة. شعر بأن دهرًا قد مرّ منذ

أطلّ منها.

أطلّ منها الآن..

رأى أن سماء الصباح مغطاة بالكامل بغيوم داكنة منخفضة، وباردة. النور في الخارج له

منظر غير مألوف، به مسحة بنفسجية أحالت المناظر المعتادة والأشياء المألوفة إلى أشكال

بالغة الجمال. اندفعت الرياح في كل مكان. لم يشهد "رامتشانند" واحدة بقوتها أبدًا. ربح

هوجاء، تتحرك في المدينة بعنف، كشخص مجنون يشعر بالسعادة. راحت تجلد أوراق

الأشجار، وتطيّر صفحات الجرائد القديمة من على أسطح المنازل، وتتخلل الملابس المنشورة

التي نسيتها ربات البيوت المهملات معلقة على الحبال.

لهذا الصباح طعم مختلف، محبب، جذاب. انخفضت درجة الحرارة فجأة،

بشكل كبير. تطايرت الأشياء في الشارع. أكياس بلاستيكية، قشور فاكهة، أوراق

شجر، خصل شعر أزالها نساء من أمشاطهن صباحًا وألقين بها من النوافذ. تراكض جرو صغير وراء مختلف الأشياء، ثم راح يلاحق كيس أزرق، دون أن ينجح في الإمساك به. جرى الأطفال خلف الجرو، وهم يتصايحون في فرح.

تدثرت البيوت العتيقة بغطاء يمتزج فيه الأزرق مع البنفسجي، وبدت كمشهد في فيلم قديم.

لاحظت نصف ابتسامة على وجه "رامتشاندا" القذر، غير الحليق. أحس بأنه مسحور بتلك الرياح الجميلة، القوية. وقف وراء الشباك الأمامي لبعض الوقت، ثم استدار ليعتصم في حجرته، وقد غمرته الدهشة. المكان في حالة فوضى فظيعة. كل ما حوله قذر ويغويه الغبار. أحس بالارتباك والحيرة. ما الذي حدث له؟ كيف وصل إلى هذه الدرجة من الفوضى والقذارة، هو ومسكنه؟

صحيح أنه كان يشعر بانزعاج بالغ، لكن ذلك ليس مبررًا لما آل إليه حاله. سار باتجاه الباب كأنه مغيب. تفاجأ حين وجد الباب مغلقًا بالقفل. لا يتذكر أنه وضع القفل في الباب. بحث عن المفتاح. أزال القفل ودفع الباب فاتحًا إياه على اتساعه. اندفعت الرياح داخل الحجرة. تطايرت طبقات الغبار، وتحركت ثيابه المهملة. طارت العنكبوت من الزاوية.

ذهب إلى الشباك الخلفي وفتحه. أصدر الخشب أنيبًا. تدافعت الرياح بقوة داخل الغرفة، بين الباب والنافذتين المفتوحتين.

في الحوش، جلست "سودها" ترتق ثياب الإجازة الصيفية بهمة، ممسكةً بين أناملها بإبرة يتدلى منها خيط أسود. كانت تحكم قبضتها حول قميص أزرق، حتى لا يطير.

تطارت بعض الخصلات حول وجهها الممتلئ. كانت تلبس ثوبًا وسروالًا باللونين الأحمر والأبيض. تراكض أطفالها في الحوش، محاولين أن يطيروا طائرتهم الورقية. شجعتهم الرياح على أن ينزلوها من أعلى خزانة الملابس الخاصة بهم، حيث كانوا يحتفظون بها طوال أيام الصيف الحارة. لونها أحمر، ومزينة بالأزرق والأصفر. أمسك بها "مانوج"، بينما حمل الولد الأصغر "فيشنو" بكرة الخيط الضخمة. أخذت "آلكا" تتقافز وتتراقص حولهما، وطرف فستانها الأخضر يضرب ركبتها السمرائين. فاضت وجوه الصغار الثلاثة بالسعادة، لكن الرياح كانت أقوى من أن تسمح لهم بأن يطيروا طائرهم الورقية، فاعتكفوا بالإمساك بها والركض في أنحاء المكان.

نادى "رامتشانند" على الولد الأكبر. توقف الصبي ورفع رأسه في فضول.

سأله "رامتشانند":

- ما تاريخ اليوم؟

ظهرت الحيرة على وجه الولد، ثم انهمك في النقاش مع أخوته. سمع "رامتشانند" جدالهم، الذي استحال إلى خلاف غاضب، إذ سرعان ما ضربت "آلكا" شقيقها "فيشنو" على ظهره، فقام بقرصها أعلى ذراعها.

تذكر "رامتشانند" أنهم في منتصف الإجازة الصيفية، ولا شك. ليس من المنطقي أن يعرف الأطفال التواريخ حين لا يكونون في أيام الدوام المدرسي.

رفع "مانوج" يده، طالبًا منه الانتظار. اختفى، ثم ظهر برونامة صغيرة. تمعن فيها بتركيز للحظات. كان الشبه بينه وأبيه، في تلك اللحظات القصيرة، عجيبيًا. صاح بالإنجليزية:

- السابع و العشرون من يوليو.

ابتسمت له أمه بفخر. لم تكن تعرف كلمة واحدة بالإنجليزية. لم تبتسم لـ"رامتشان" كما

اعتادت أن تفعل. لا بد أنها لم تنسَ كيف بصق في حوش البيت منذ أيام طويلة.

أحس "رامتشان" بضعفٍ وصدمة. آخر يوم يتذكره كان الرابع عشر من الشهر، تقريبًا.

الدَّكَّان!

تذكَّر سلوكه وتصرفاته في آخر يوم ذهب فيه إلى العمل. لقد قام بفضيحة. صاح في وجوه

الجميع، وضرب واحدًا منهم بكرسي، وإن لم يتذكر مَنْ بالضبط. تذكَّر أنه أمسك بياقة

"مهاجان" وراح يهزه ويهدده. لقد سبَّه أيضًا.

خارت قواه.

لا بد أن "مهاجان" غاضبٌ منه. أمرٌ طبيعي، بالتأكيد. لو لم يكن غاضبًا، لأرسل له واحدًا

من زملائه ليتفقد أحواله.

لقد خسر وظيفته!

واليوم هو السابع والعشرين من الشهر! آخر الشهر تقريبًا! عليه أن يسدد إيجار المسكن

بعد بضعة أيام. في الأول من أغسطس.

لن يسامحه أحد!

ما هذا الذي فعله؟ الناس يتقاتلون، طوال حياتهم، لنيل وظيفة جيدة. يسافرون بعائلاتهم وفرشهم وأوانيهم من مدينة لأخرى، بحثاً عن عمل. يرتضون بأن يكونوا عمالاً في مواقع البناء، ويتعدون إلى أن ينتهي تشييد العمارات، ثم يجوعون ولا يجدون عملاً آخر إلا بشق الأنفس؛ أو يعملون كالعبيد لساعات متواصلة في المصانع، إلى أن يشيخوا، ثم يطردونهم منها. أو كحرفيين في مصانع النسيج أو ورش المجوهرات، وحين تناهز أعمارهم الأربعين، يكونون قد أوشكوا على فقد أبصارهم.

وها هو يرمي وظيفة جيدة في الهواء.. هكذا.. بمنتهى السهولة! كيف سيعيش الآن؟
كيف فعل ما فعل؟

سار ذاهلاً إلى الحمام. غسل أنبوب معجون الأسنان من الغبار الذي يعلوه، ثم نظف أسنانه بالفرشاة بعناية. وقف بعدها أمام المرأة الصغيرة المعلقة على الحائط. طالعه وجه هزيل، شاحب، تعلوه لحية خفيفة. غطى ذقنه برغوة وفيرة، ثم قام بحلاقتها، تاركاً شاربه. بحث عن ملابس نظيفة. حين لم يجد قطعة غير متسخة، فتح صندوقه المعدني وفتش فيه إلى أن عثر على قميص بني قديم وسروال أبيض.

قام بالاستحمام، وفرك جسمه جيداً بالصابون، وبخاصة تحت إبطيه. حك كعبه بالحجر، ونظف أصابع قدميه بفرشاة أسنان قديمة.
جفف جسمه بالمنشفة، ولبس ثيابه.

كان على وشك تعليق فوطته المخططة الرطبة على ظهر الكرسي، حين انتبه إلى أنه مغطى بالغبار. أحضر خرقة مبللة ومسح بها المقعد، ثم فرد المنشفة عليه لتجف.

بحث عن ساعته. وجدها على الطاولة. كانت عقاربها تشير إلى العاشرة صباحًا. لا يملك دقيقة واحدة يضيعها. إنه متأخر بالفعل. سينظف الحجرة فيما بعد، حين يعود. مسح القليل من زيت جوز الهند على شعره. مشطه بطريقة مرتبة، وأسرع إلى الدكان. عبثت الرياح برقة بشعره النظيف المغسول، وهو يسير في الأزقة المألوفة.



- جُحود! هذا يدعى جُحود! بعد كل هذه الأعوام؟! جحود! لا توجد كلمة أخرى.. اهتز شارب "مهاجان" من فرط الغضب. وقف "رامتشانند" أمامه في ذل وخضوع، بيدين مضمومتين. في البداية، رفض "مهاجان" مجرد الاستماع إليه. ثم انهال عليه بالتأنيب والتقريع لأكثر من عشرين دقيقة. وقف "رامتشانند" منغّس الرأس، صامتًا، متمنيًا أن يكون مظهره ذليلاً بما يكفي.

بعد انتهاء الموجة الأولى من الغضب، هدأ "مهاجان" قليلاً، ثم راح يكرر ما قاله منذ لحظات بنبرات أقل حدة. واصل "رامتشانند" نظراته البائسة. انهمرت الأمطار بغزارة في الخارج. أول مطر حقيقي في هذا الموسم. ارتفعت المظلات السوداء في أيدي المارة في الطرقات. ورغم شدة المطر، وامتلاء الطرقات بالماء، إلا أن السعادة كانت تعم جميع الناس. جلس معظم الباعة في مداخل محلاتهم، يحتسون الشاي.

كان "رامتشانند" متأكدًا من أن "مانوج" و"فيشنو" و"آلكا" يلعبون الآن في البيت،
ويصنعون زوارق ورقية يدفعونها في برك الماء الصغيرة المتجمعة على أطراف الحوش. اعتادوا
فعل ذلك كلما أمطرت السماء.

كان "مهاجان" لا يزال يوبخه، ثم قال فجأة:

- صارحني يا "رامتشانند".. هل كنتَ سكرانًا؟

نظر إليه "رامتشانند" بدهشة. فسّر "مهاجان" النظرة على نحو خاطيء، فقال بانتصار:

- آه! هذا هو الأمر إداً! وهل كنتَ تظن أنني لن ألاحظ؟

فكر "رامتشانند" قليلاً، إنه لم يذق الخمر في حياته أبداً، لكن كيف يمكن تبرير تصرفاته في

ذلك اليوم إن لم يدّعي أنه كان ثملاً بالفعل؟ كيف يمكن تفسير جذبه للرجل من ياقته؟ وحالة

الغضب التي كان عليها حينها؟

اكتفى بمواصلة تنكيس رأسه في بؤس وأسى.

كرر "مهاجان" في رضا:

- آه! هذا هو الأمر إداً؟

قرر "رامتشانند" أن الوقت يبدو ملائماً للحديث، فقال باحترام:

- حضرتك.. أرجو أن تسامحني.. أعني أنني لا أدري كيف...

هنا، صمت متعمداً. قال "مهاجان" وهو يرتب على كتفه:

- على أي حال، إنها المرة الأولى التي تظهر فيها شيئاً من إساءة الأدب، وأرجو أن تكون الأخيرة. كلنا ارتكبنا بعض الحماقات في شبابنا. يمكنك معاودة العمل في الدكان، من هذه اللحظة إن أردت.

خرّ "رامتشانند" ساجداً، على قدمي "مهاجان".

أحس كل من تابع الموقف بسعادة ورضا، حتى أن "جوكل" مسح دمعة سقطت من عينه. عاد "رامتشانند" إلى وظيفته.



تفرق الجميع، بسبب دخول بعض الزبونات. توجه "رامتشانند" ليجلس في مكانه المعتاد وهو يشعر ببعض الإرتباك. سرعان ما امتلأ الدكان بالأصوات المألوفة. خدم "رامتشانند" ثلاث زبونات، وباع سارين اثنين خلال مدة لا تتجاوز الساعتين.

خرج ليتناول غداءه، وأكل رغيفين من الـ"بوري" في أحد الأكشاك.

في البداية، تعامل معه زملاؤه ببعض الحرج، ولكن مع حلول المساء اشترى "رامتشانند" بعض حبّات الـ"ساموسا" للجميع، ووضع اثنتين في صحن قدمه لـ"مهاجان".

بعد ذلك، عادت الأمور لطبيعتها. لم يشير أي منهم في كلامه إلى النهار الذي أتى فيه للدكان غاضباً، وهاجم الجميع، وكما قال "مهاجان" فإن كل الشباب يرتكبون بعض الحماقات أحياناً.

ليلاً، اقترح "هاري" أن يذهبوا لمطعم "لاكان". كان "تشاندر" قد غادر قبل الجميع. اتفق "شيام" و"راجيش" على تناول العشاء سوياً في بيت الأخير.

ابتسم "جوكل" في سعادة وسأل "رامتشانند":

- ستأتي معنا، أليس كذلك؟

أوماً برأسه موافقاً، فصاح "هاري":

- ماذا ننتظر إذًا؟ هيا بنا! سأموت من الجوع!

توجّه الثلاثة إلى المطعم، وحين جاء "لاكان" ليدوّن طلباتهم، حوّل "رامتشانند" نظراته إلى اتجاه آخر، بعيداً عنه. تناولوا خضراوات مطبوخة مع بعض الأرزغة الساخنة، ثم طلبوا شايًا. حين أمسك "رامتشانند" بالكوب بين يديه وأحس بالدفع المألوف، بذل مجهودًا كبيرًا ليحبس الدموع التي ملأت عينيه.

تناقر "جوكل" و"هاري" وتبادلا تعليقات ساخرة. اكتفى "رامتشانند" بالابتسام، وبضع كلمات متناثرة هنا وهناك.

بعد ذلك، ودّعه متوجهين إلى بيتيهما. غمز "هاري" بعينه لـ"رامتشانند"، وربّت "جوكل" على كتفه، قبل أن يتراه. سار في الشوارع المألوفة المؤدية إلى مسكنه. صعد السلّم المظلم، وفتح القفل، ثم دفع الباب. رأى الحجرة المغطاة بالغبار. بحث عن الخرقه. بدأ في العمل. مسح، ببطء، جميع الأسطح.. عدا الرف المحتوي على كتبه. تجنبه تمامًا.

بعد ساعة، كانت الغرفة نظيفة ومرتبّة، وكان "رامتشانند" مستقلقيًا على سريريه، يحملق بشرود في البقعة التي سببتها الرطوبة الموجودة في السقف.

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

1. أرامل الخميس كلاوديا بينيرو الأرجنتين
2. اسمي نور إلسا أوسوريو الأرجنتين
3. كلي لك كلاوديا بينيرو الأرجنتين
4. بيتي بو كلاوديا بينيرو الأرجنتين
5. مشروع روزي جرايم سيمسيون أستراليا
6. لأننا كنا في مكان آخر رشا الخياط ألمانيا
7. قصص بسيطة إنجو شولنز ألمانيا
8. الثلاثة سارة لوتز إنجلترا
9. الموت والبطريق أندريه كركوف أوكرانيا
10. تاتي كريستين دوير هيكي أيرلندا
11. شركة الحب المحدودة أندريه سنار ماجنسون أيسلندا
12. موسم الساحرة أرني ثورارينسون أيسلندا
13. الحب لم يعد مناسبًا ميلا فينتوريني إيطاليا
14. احترس من جوعي لوتشانا كاستيلينا إيطاليا
15. سارق الجثث باتريسيا ميلو البرازيل
16. السيمفونية البيضاء أديانا ليسبوا البرازيل
17. نيزك في جالفایش جوزيه لويس بايشوتو البرتغال
18. مقبرة البيانو جوزيه لويس بايشوتو البرتغال
19. صانع الملائكة شتيغان بريجش بلجيكا
20. فندق الغرباء ديميتري فيرهولست بلجيكا
21. مخاوف السبعة سلافيدين أفيدتش البوسنة
22. جامع الكتب جوستابو فابرون باترياو بيرو
23. أبستت أيفر تونش تركيا
24. أحلام محطة بيولانت سينوكاك تركيا
25. ارحل قبل أن أنهار تونا كيرميتشي تركيا
26. امرأة صديقي تونا كيرميتشي تركيا
27. توباز هاكان جنيد تركيا
28. خطايا الأبرياء برهان سومميز تركيا
29. ديستينا ماين كيركانات تركيا
30. الشيطان امرأة هاندي ألتايي تركيا

تركيا	تونا كيرميتشي	31. الصلوات تبقى واحدة
تركيا	أسمهان أيكول	32. جريمة في اليوسفور
تركيا	هاندي ألتايي	33. لون الغواية
تركيا	سولماز كاموران	34. مينتا
تركيا	مجموعة قصصية	35. نساء إسطنبول
تركيا	إسكندر بالا	36. الموت في بابل، الحب في إسطنبول
التشيك	بيترا هولوفا	37. حدث في كراكوف
التشيك	باتريك أورشانديك	38. حُفِظَت القِصَّة
التشيك	سوزانا برباتسوا	39. ديتوكس
التشيك	إميل هاكل	40. سراق طائر البطريق
التشيك	فرانز كافكا	41. كافكا
التشيك	فاتسلاف هافل	42. المواطن فانيك
التشيك	ميلوس أوربان	43. الكنائس السبع
الجبل الأسود	أوجنين سباهيتش	44. المبعدون
جواتيمالا	دافيد أوجز	45. العقل المدبر
سلوفاكيا	أورشولا كوفاليك	46. امرأة للبيع
سلوفاكيا	مجموعة قصصية	47. خلف طاحونة الجبل
سويسرا	يونا لوشر	48. ربيع البربر
سويسرا	يونا لوشر	49. كرافت
سويسرا	ميرال قريشي	50. فيل في الحديقة
الصين	شيو تسي تشين	51. بكين.. بكين
الصين	جوو دا شين	52. بين الجبل والبحيرة
الصين	بي ماي	53. سبع ليالٍ في حدائق الورد
الصين	يركسي هولمانبيك	54. النجمة الحمراء
الصين	جين رن شون	55. رقصة الكاهنة
الصين	بي ماي	56. رئيس القبيلة الأخير
فرنسا	إريك نويوف	57. المغفل
فنلندا	آكي أوليكائين	58. المجاعة البيضاء
كولومبيا	إيكتور آباد	59. النسيان
مقدونيا	بلايز ماينفسكي	60. القنّاص
مقدونيا	توميسلاف عثمانلي	61. الواحد والعشرون
مقدونيا	إيرميس لافازوناوفسكي	62. صانع الزجاج

الترويج	إنجفار أمبيورنسون	إلينج	.63
الترويج	روي ياكوبسن	صيف بارد جدًا	.64
الهند	روبأ باجوا	دكان الساري	.65
هولندا	تومي فيرينيجا	جوي سيدبوت	.66
هولندا	هيرمان كوخ	العشاء	.67
هولندا	هيرمان كوخ	المنزل الصيفي	.68

صدر من كتب عامة:

ألمانيا	جيرالد هوتز	الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	.69
ألمانيا	هوبرتس هوفمان	قانون التسامح	.70
ألمانيا	فولفجانج باور	هاربون من الموت	.71
أمريكا	روبرت ماكنمارا	الهاشميون وحلم العرب	.72
أيسلندا	جون جنار	الهندي الأحمر الأيسلندي	.73
إيطاليا	جوفانا لوكاتيلي	يوميات صحفية إيطالية	.74
البرتغال	إيسا دي كيروش	خيالات الشرق	.75
بلجيكا	دافيد فان ريبوك	ضد الانتخابات	.76
التشيك	باتريك أورشادنيك	أورويانا	.77
التشيك	فاتسلاف هافل	قوة المستضعفين	.78
فرنسا	جي. إم. لو كلوزيو	النشوة المادية	.79
فرنسا	أنطوان لاريس	لن أمتحك كراهيتي	.80
كولومبيا	أوسكار بانتوخا	جابو	.81
الترويج	ثور جوتاس	الجري	.82
هولندا	دوي درايسما	عقول مريضة	.83
هولندا	يوريس ليونديك	اللعب مع الكبار	.84

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

- | | | | |
|---------|-------------------|------------------------|-----|
| أرمينيا | ناريك مالبان | النقطة صفر | .85 |
| أرمينيا | أرام باتشيان | وداعًا أيُّها الطائر | .86 |
| إيطاليا | كاسيمو جارميليوني | أحلامًا سعيدة يا صغيري | .87 |
| بلجيكا | ديميترى فيرهولست | القادم متأخرًا | .88 |
| تركيا | تونا كيرميتشي | ثلاثة على الطريق | .89 |
| التشيك | جاتشيم توبول | ورشة الشيطان | .90 |
| التشيك | مارك سينديلكا | خريطة أنا | .91 |
| الصرب | فلاديمير بيستالو | الألفية في بلجراد | .92 |
| فرنسا | صوفي هيناف | دجاج مشوي | .93 |
| فنلندا | صوفي أوسكانين | التطهر | .94 |
| المجر | أندريس فورجاشش | لم يبقَ أحد | .95 |
| هولندا | تومي فيرينيجا | هذه هي الأسماء | .96 |

يصدر قريبًا:

من سلسلة كتب عامّة:

- | | | | |
|---------|---------------|-------------------|-----|
| ألمانيا | فولفجانج باور | بوكو حرام | .97 |
| أيسلندا | جون جنار | القرصان الأيسلندي | .98 |



"رامتشانند" شاب هندي بسيط. يعمل منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره في دكان لبيع الساري بمدينة "أمريتسار" بالهند. يمضي أيامه في فرد الأقمشة والأثواب ويعرضهم على سيدات الطبقة الراقية والعرائس الشابات. لكن حياته برتابتها تلك لا تعجبه، تُوّرِّقه دوماً، ويضايقه شعوره الدائم بقلّة الحيلة والنقص، لا يريد أن يكون مجرد بائع صغير وتافه في دكان للساري، لذا يضع لنفسه هدفاً، ويقرر تحسين لغته الإنجليزية، فيشتري الكتب المستعملة وقاموس ويبدأ على قراءة تهم وحفظ الكلمات المختلفة، لكن حياته لا تسير على هذا المنوال طويلاً، حوادث بعيدة عنه يعاني منها أناس ليسوا بهذا القرب منه. عجوز وزوجته يفقدان ابنيهما في انفجار مرعب، ورجل يعاني من زوجة لم تعد تهتم بالحياة، لكن كيف سيسمح "رامتشانند" لهؤلاء ومآسئهم بالتأثير عليه. "دكان الساري" رواية اجتماعية تغوص بنا في هند مختلفة تماماً عن الهند التي نشاهدها في التلفيزيون. رواية واقعية عن أناس يحاولون الحياة في مجتمع طبقي تختفي منه الرحمة وريداً رويداً.

روبا باجوا



كاتبة هندية، ولدت في "أمريتسار" بالهند عام 1976، وتعيش بها رغم سفرها الدائم لغيرها من البلدان. "دكان الساري" هي روايتها الأولى، وكتبها باللغة الإنجليزية "The Sari Shop"، ورُشِّح العمل لجائزة "أورانج" للرواية عام 2004. فازت الرواية بجائزة "الكومونولث" عام 2005، وجائزة "ساهيتيا أكاديمي" الهندية في 2006. نالت الكاتبة جائزة "جريتزين كافور" الإيطالية كأفضل روائية شابة عام 2005. تُرجمت "دكان الساري" إلى الفرنسية، والهولندية، والصربية، والآن إلى العربية. لـ "روبا باجوا" عمل أدبي آخر يحمل عنوان "Tell Me a Story" - "أخبرني قصة" - صدر عام 2012.

